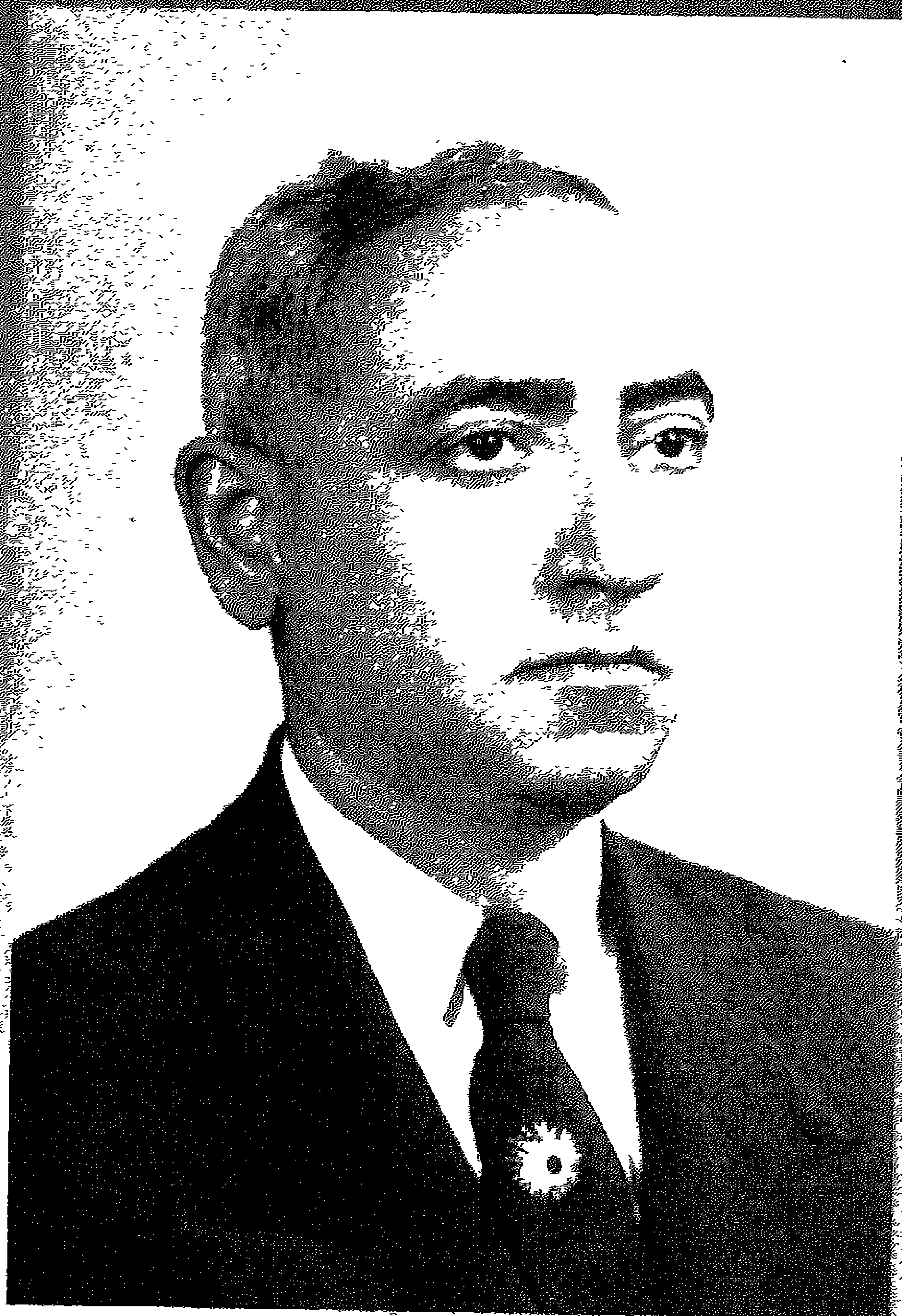
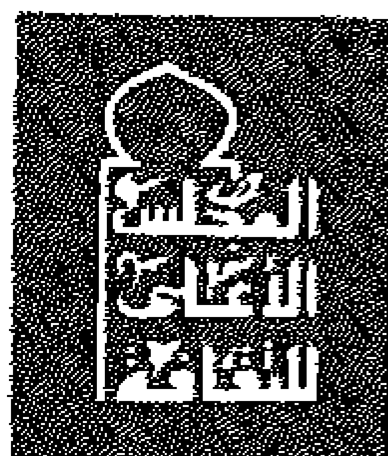
محمود البدوي

المجلس الأعلى للثقافة



قصص قصيرة



تقديم: محمد جبريل

المجلس الأعلى للثقافة

محمود البدوى

قصص قصيرة

تقديم

محمد جبريل

محمود البدوى

رائدًا للقصة القصيرة العربية

كان أول تعرفى إلى محمود البدوى حين بدأت جريدة «المساء» فى نشر قصص له . كانت مهمتى أن أتسلم القصص منه ، فأسلمها إلى سكرتارية التحرير . ولأنى كنت قد تتلمذت على إبداعاته فى العديد من المجموعات القصصية ، بالإضافة إلى ما نشر له فى الصحف والدوريات ، فقد حرصت على علاقة الأستاذ والتلميذ بينه وبينى ، أفيد من قراءة إبداعاته ، وأفيد – فى الوقت نفسه – من الأبوة الحانية التى كانت سمة تعامله مع مبدعى الأجيال التالية ، ومن التعرف إلى آرائه فى القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية .

* * *

اسمه محمود أحمد حسن عمر ، وشهرته محمود البدوى . يذهب أحمد كمال زكى إلى أنه من مواليد ١٩١٠ ، بينما يقرر علاء الدين وحيد أنه من مواليد ١٩١١ ، لكن تاريخ ميلاد محمود البدوى – كما تقول شهادة ميلاده – هو الرابع من ديسمبر ١٩٠٨ ، ومولده فى قرية الأكراد التابعة لمركز أبنوب مديرية [محافظة] أسيوط . تلقى تعليمه الأولى فى كتّاب مسجد «الخطبة» ، ثم تعليمه الابتدائى فى مدرسة أسيوط ، ثم الثانوى فى المدرسة السعيدية بالقاهرة ، ثم دخل الجامعة المصرية القديمة ، وإن حالت ظروفه الوظيفية دون أن يستكمل المرحلة الجامعية .

والده الشيخ أحمد حسن عمر ، عمدة قرية الأكراد التابعة لمركز أبنوب مديرية [محافظة] أسيوط . وقد تولى العمدية بعد وفاة أبيه حسن عمر في ١٩٠٥ ، وكان عمره ثمانية عشر عامًا . أما والدته فهي السيدة تفيدة بنت عبد المنعم بك التوني عمدة أتليدم ، وقد أنجبا – بالترتيب – محمد البدوي – فضيلة الشيخ والقطب الصوفي فيما بعد – ثم محمود ، ففاطمة ، فأبو الفتوح .

أصبح اسمه – بناء على طلب منه بذلك – منذ ٢٨ فبراير ١٩٥٧ ، محمود البدوي أحمد حسن عمر ، بدلاً من محمود أحمد حسن عمر . نشرت جريدة «أبو الهول» – كانت مخصصة – فيما يبدو – لنشر الإعلانات القضائية – إعلانًا في ٢٩ يناير ١٩٥٧ بأن محمود بن أحمد حسن عمر ، المقيم بميدان النزهة رقم ٧ تبع قسم مصر الجديدة ، يرغب تغيير اسمه إلى محمود البدوي المشهور به . فالمعترض يتقدم للوزارة خلال خمسة عشر يومًا .

عين – في بداية حياته الوظيفية – كاتبًا بقسم الإدارة في وزارة المالية . وكان أول راتب له سبعة جنيهات وخمسمائة مليم في الشهر . ألقت الوظيفة بنجيب محفوظ في إدارة القرض الحسن بوزارة الأوقاف ، وألقت بمحمود البدوي في إدارة حسابات الحكومة بوزارة المالية . وإذا كانت الوظيفة تبين عن ملامحها في الكثير من إبداعات محفوظ ، فإن صورة الوظيفة تشحب – إلى حد بعيد – في إبداعات البدوي . نحن نستطيع التعرف في قصص البدوي إلى حياة الليل والجريمة والثأر والغيطان والنهر وحاملات الجرار أكثر مما نتعرف إلى حياة الوظيفة ، رغم أن الفترة الأولى تأخذ مساحة زمنية قصيرة جداً بالقياس إلى حياته الوظيفية التي لم يغادرها حتى أحيل إلى المعاش . وقد لاحظ محمد قطب أن البدوي لم يكن يذكر شيئًا – إلاّ ما ندر – في حواراته

أو في جلساته الخاصة – عن عمله الوظيفي «كما لو كان يريد أن يسقطه من حياته ، أو لا يريد أن يذكر ذلك لأحد من باب التكتم والبعد عن الخوض فيما لا يفيد» (محمد قطب : محمود البدوى عاشق القصة القصيرة – هيئة الكتاب – ص ٢٠) .

يقول البدوى في ذكرياته التى نشرها في سنى شيخوخته : "في نهاية الدراسة الثانوية وبداية الدراسة الجامعية التى لم تتم ، قرأت الأدب القديم والحديث ، ونوعت وسائل الاطلاع ، وساعدنى على ذلك ذهابى إلى دار الكتب يوميًا . قرأت في دار الكتب مجلة «البيان» لعبد الرحمن البرقوقى ، وكان يكتب فيها محمد السباعى وعباس حافظ والعقاد والمازنى ، مقالات وترجمات عن أدب الغرب في كل ألوان الأدب وفنونه . ثم قرأت مؤلفات الزيات والمازنى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وصادق الرافعى وطه حسين وعلى أدهم وسلامة موسى وحسين فوزى وشوقى وحافظ وطاهر لاشين وإبراهيم المصرى ويحيى حقى ومحمد تيمور ومحمود تيمور . كما قرأت في دار الكتب عيون الأخبار وصبح الأعشى والأغانى والبيان والتبيين ، ودواوين المتنبى والبارودى وابن الرومى ومهيار . واستأثر بلبى كتاب الأغانى ، فكنت أطلبه من مخزن الدار في كل صباح ، وهو الذى أبقانى أثناء عطلة الدراسة الصيفية مقيمًا في صالة الدار طول النهار ، لأن الإضاءة كانت معطلة في الليل .. وفي دار الكتب تعلمت من الحكمة المسطّرة على الجدران «كل كتاب تقرأ تستفد» ، فكنت أقرأ كل كتاب يقع تحت يدى ، حتى ولو لم يكن هو الذى طلبته . كما تعلمت «وخير جليس في الزمان كتاب» (الثقافة – مارس ١٩٧٥) .

ولم يكن البدوى أول من اتجه – من أفراد عائلته – إلى الكتابة الأدبية ، فقد سبقه خال له هو إسماعيل عبد المنعم الموظف بوزارة

المعارف إلى تأليف مجموعات قصصية ، منها « عقد اللآلئ » و « على سفح الجبل » ، أحدثت تأثيراً نقدياً جيداً ، ولخص العديد من مسرحيات شكسبير فى كتاب بعنوان «على مسرح التمثيل» . كما لخص أعمال موليير . وسبقه إلى الكتابة الأدبية أيضاً خاله محمد شوكت التونى ، الذى لم يحل عمله بالمحاماة دون كتابة الكثير من القصص والمسرحيات ، فضلاً عن بعض كتب الدراسات الأدبية المهمة .

وفى التاسع عشر من مايو ١٩٤٧ تزوج محمود البدوى من «حكمت» ابنة عمه صاحب العزة عمر بك حسن بن عمر ، مفتش بوليس [شرطة] برتبة قائمقام [عقيد] . وكانت قيمة الصداق ٧٠٠ جنيه ، دفع منها عند إتمام العقد ٣٥٠ جنيهاً ، وأنجب ابنتين ليلى الموظفة ببنك الإسكندرية ، وفاطمة المدرسة بوزارة التربية والتعليم .

وفى السادس من يناير ١٩٦٩ ، تسلم محمود البدوى ، المراقب العام بالإدارة العامة للتفتيش المالى بوزارة الخزانة ، قرار إحالته إلى المعاش فى ١٩٦٨/١٢/٣

ورحل البدوى عن عالمنا فى ١٢ فبراير عام ١٩٨٦ ، وترك قصة لم تنشر بعد ، وقصة أخرى لم تكتمل . وكلتا القصتان توظّفان التراث الإسلامى ، ولا يخلو من دلالة أن آخر رحلات البدوى كانت إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأنه كان منشغلاً بمجموعة قصصية من وحى زيارته للأراضى المقدسة .

وقد نال اسمه – بعد أن رحل عن عالمنا – جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام ١٩٨٦

* * *

كانت مجلة «صوت الإسلام» أولى الدوريات الثقافية التى نشر فيها البدوى محاولاته الباكرة . نشر فيها قصة «الأعمى» فى يونيو ١٩٣٥ ، وكانت أولى قصصه المترجمة «الجورب الوردى» ، ترجمها عن تشيكوف ، ونشرها له الزيات - وقصص أخرى مترجمة - فى «الرسالة» . وكانت «الرسالة» أولى الدوريات الأدبية التى نشر فيها محمود البدوى قصصه المؤلفة [١٩٣٦] . كانت ملتقى جيل الرواد وجيل الوسط . كتب فيها الزيات ومحمود الخفيف وطه حسين وإبراهيم طلعت ومحمود محمد شاكر ومحمد سعيد العريان ونجيب محفوظ وعبد الحميد السحار ومحمود البدوى وسيد قطب وأحمد فتحى وحسن حبشى وعباس خضر وغيرهم .

وإذا كان نجيب محفوظ قد بدأ كاتبًا للدراسات الفلسفية ، فإن محمود البدوى زاوج - فى مطالع حياته الأدبية - بين كتابة القصة والنقد والترجمة ، ثم قصر اهتماماته على القصة القصيرة فهو لا يكتب سواها . ولا تشغله هامشيات العمل الفنى ، مثل توضيح النظريات الفنية ، أو الرد على ملاحظات النقاد ، أو رواية المذكرات [وإن كان البدوى قد كتب نوعًا من الذكريات فى أعوامه الأخيرة] . وفى حين أنه قد صدر له ٢٢ مجموعة قصصية ، فقد صدر له رواية قصيرة وحيدة ، وكتاب وحيد فى أدب الرحلات هو «مدينة الأحلام» . لقد التقط جيل الوسط طرف خيط النهاية فى إسهامات جيل الرواد ، فوصله بطرف جيل إسهاماته . عزف مبدعوه العديد من الألحان ، ثم اقتصرت إبداعاتهم على جنس أدبى ، أو أجناس متشابهة . وكما أشرت ، فقد كتب محفوظ المقال والدراسة والقصة القصيرة والرواية ، ثم تحددت

إبداعاته فى الرواية ، ثم عاد إلى كتابة القصة القصيرة التى أعقبت ثلاث عشرة رواية . أما البدوى فقد اقتصرت إبداعاته على القصة القصيرة ، واقتصرت إبداعات باكثير على المسرحية . وكما يقول البعض فإن جيل الرواد كان عليه أن يلم بأطراف شتى من الثقافة الأوروبية والإسلامية ، وأن يكتسب القدرة على الكتابة فى نواحى متعددة . أما الجيل الثانى فهو جيل المتخصصين من الشعراء وكتاب القصة والرواية . مارس الجيل الأول من الكتّاب كتابة القصة ، لكن القصة بالمعنى الحقيقى ، القصة فى تميزها عن الشعر والمقالة والبحث ، نجدها لدى الجيل الثانى من الكتّاب (عبد الرحمن الصادق : أدب محمود البدوى بين القديم والحديث - الهدف - مارس ١٩٦٠) .

* * *

يقول الراوى : «كنت أود لو أمسك بيد أمينة وأقول لها : إركعى أمام والدك المسكين ، السكير ، كما فعل رازكولينكوف أمام امرأة سقطت ، وقبّلى الإنسانية المعذبة فى شخصه . إن والدك ليس فظًا ولا حقيراً ولا جشعاً كما تتصورين ، ولكنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا» (قصة : زهور ذابلة) . ويتحدث الراوى عن بعض الشخصيات التافهة التى يلتقى بها ، وأنهم يذكرونه بشخصيات مماثلة فى أعمال تشيكوف ، فهم أشبه بعمال السكة الحديد فى المحطات الصغيرة فى روسيا . تعاسة وبلادة وخور واستسلام للمصير ورضوخ لحكم الأقدار (قصة : نساء فى الطريق) . ويتذكر الراوى الذى يعانى الوحدة ، قصة لتشيكوف عن مسافر وجيد اضطرته الظروف أن يقطع فى الليل والظلام مئات الأميال ، فى قلب غابة ساكنة موحشة ، بعربة يقودها حوذى منخلع القلب . وظل الاثنان فى رعب ، كل منهما يخاف الآخر ، حتى وصلا إلى نهاية الغابة . أما أجواء الجريمة التى تتخلل الكثير من إبداعاته ، فهى تبين عن تأثره

بديستويفسكى ، وهو التأثر الذى يتوضح أيضًا فى الكثير من روايات نجيب محفوظ .

وعلى الرغم من افتتان البدوى بالأدب الأوروبى ، وأدب روسيا القيصرية بخاصة ، فإنه ظل حريصًا على صلته بالأدب العربى قارئًا وكاتبًا . لقد أفاد من تردده المثابر على دار الكتب فى قراءة عيون التراث : ألف ليلة وليلة ، الأغانى ، صبح الأعشى ، عيون الأخبار ، إلخ . بالإضافة طبعًا إلى حفظه القرآن الكريم . وكما يقول فى حوار له ، فقد حاول أن يغترف من المنابع الأولى للفن القصصى ، وبالتحديد من القرآن الكريم . أنظر إلى عظمة الإيجاز القرآنى وهو يقول : «ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم» . إنها عبارة بليغة تعبّر عن نفسها بنفسها ، وتحمل معانى كثيرة قل أن يستطيع التعبير الطويل أن يعبّر عنها» (الأهرام ٢٠/٢/١٩٨٦) .

وقد كتب البدوى - ونشر - فى شبابه الباكر ، بعض القصص التى حاولت توظيف التراث العربى والإسلامى . وهو ما يختلف مع رأى الراحل سيد النساج فى أن البدوى «لم يكتب قصصًا قصيرة تاريخية ، بحيث يجعل التاريخ منطلقه أو مهاده ، كما كان يفعل حبيب جاماتى وإبراهيم المصرى ونجيب محفوظ فى بداية حياته الروائية ، كأن يستمد بعض الأحداث أو الشخصيات أوالمواقف من التاريخ ، ويجعلها مداراً لقصصه ، أو رمزًا لما يريد أن يصوره فى الواقع» (القصة - أكتوبر ١٩٨٠) .

كما ترجم البدوى العديد من القصص الأوروبى - وهو ما يذكرنا ببدايات محفوظ والسحار وعادل كامل وباكثير وغيرهم - قبل أن يتجه إلى الحياة المعاشة ، يعبر عنها فى المئات من إبداعاته القصصية . إنه يكتب عن القاهرة والإسكندرية والسويس والصين وهونج كونج وغيرها

من «الأماكن» التى عاش فيها ، أو زارها . وربما كان هذا هو السبب في تحول البدوى من توظيف التراث إلى تناول الحياة المعاشة . فضل قراءة الوجوه ، والتعرف إلى الواقع اليومى للناس العاديين ، بدلاً من محاولة العيش فى اللحظة التاريخية ، أو التراثية ، بالقراءة المثابرة التى لابد أن تلم بكل التفصيلات ، مثل المفردة اللغوية والزى والطعام والبناية والسوق إلخ .

واللافت أنه منذ صدرت رواية محمود البدوى القصيرة ، الوحيدة «الرحيل» عنى الناشرون ودور الصحف بطلب إبداعات الفنان . ثمة الكثير من الرسائل التى تلقاها – تحتفظ بها أسرته – بطلب الإسهام فى صحف ودوريات مصرية وعربية ومع ميل البدوى إلى العزلة الاجتماعية ، فإنه قد شارك فى الحياة الثقافية من خلال عضويته لمعظم الهيئات واللجان الثقافية ، وما يتصل منها بالقصة تحديداً . فهو عضو مؤسس لنادى القصة ، وجمعية الأدباء ، واتحاد الكتاب . وكان عضواً فى لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة ، ولجنة القصة بالمجالس القومية المتخصصة . وكان عضواً فى لجان منح جوائز الدولة فى القصة والرواية .

وكان البدوى من جلساء المقاهى ، لكن المقهى عنده كان مكاناً للتأمل والكتابة ، بعكس نجيب محفوظ الذى جعل المقهى موضعاً للقاء الأصدقاء ، والتقاط ما أفاد منه بالفعل فى إبداعاته ، وإن كان البدوى قد رفض لقاءات الصداقة فى بيته . فضل أن تتم اللقاءات فى مقهى ، أو أى مكان عام [زرته فى بيته ثلاث مرات ، قبل أن أسافر فى رحلة عمل خارج مصر ، امتدت ما يقرب من الثمانى سنوات] . وكان مقهى البدوى المفضل «سفنكس» بشارع طلعت حرب ، يفضل الكتابة فى ساعات الصباح ، وفى مكان ملئ بالحياة والحركة ، هو – غالبًا – مقهى .

يجلس فيه ، وإن انعزل عن صخبه بقلمه وأوراقه . يقول : «لا أحب الأماكن المغلقة . أحب الأماكن المفتوحة . وأحب أن تكون الحياة متحركة أمامي دائمًا . الكتابة الأولى لأى عمل أدبى لابد وأن تتم وحولى الناس بكل الصخب والضجيج الذى يحدثونه . أما الكتابة الثانية ، أو الثالثة ، فهى تتم فى البيت عادة ، وإن كان من المؤسف أن المقاهى تختفى من حياتنا . كل الأشياء الجميلة تختفى» (المصور ١٩٨١/٩/٢٥) . كان يبدأ يومه فى الخامسة صباحًا . يصلّى ، ثم يفرغ لقراءة الصحف ، وقراءة المطبوعات الحديثة ، أو يعود إلى كتب التراث . وكان المشى رياضته المفضلة . وحدد لنفسه يومًا فى كل شهر يقطع فيه المسافة ماشيًا بين بيته في مصر الجديدة وعمله بالقرب من ميدان التحرير . وربما شاهد أحد الأفلام فى حفلة الثالثة . وكان يحب السفر والرحلات ، والفرجة على فاترينات المكتبات ، ويحمل حقيبة صغيرة لا تكاد تفارقه . وكان يعشق ألحان سيد درويش ، وصوت محمد رفعت ، ويحب سماع الموسيقا الكلاسيك لفاجنر وبيتهوفن وتشايكوفسكى وهاندل . وقد تعلم العزف على القانون والعود فى معهد فؤاد الأول للموسيقا العربية . درّس له مصطفى بك رضا وصفر بك على وأمين بك المهدى . وظل إلى أخريات أيامه محبًا لكرة القدم ، متابعًا لمبارياتها . وقد اشترى البدوى سيارة فى ١٩٥٠ ، لتقله فى رحلة حول العالم ، لكنها تحطّمت فى حادثة سير أفلت منها بأعجوبة . واكتفى - من يومها - بالمواصلات العامة ، أو بالسير على قدميه ! .

ولم يكن البدوى - كما أشرنا - يكتب إلاّ القصة القصيرة . وكان متوسط إبداعه قصة كل أسبوعين ، يكتبها فى كراسة ، بالقلم الرصاص ، ويجرى عليها بالحذف والإضافة ويعيد فيها النظر عمومًا ، ثم ينقلها على ورق أبيض ، ويدفع بها إلى المطبعة . ولم يكن يشرب الشاى أو يدخن ، وإن كان يشرب القهوة بكثرة قبل أن يبدأ فى الكتابة ، ولا يكتب

إلاّ بعد أن يرتدى ثيابه كاملة . ومعظم قصصه – كما تعلم – على لسان الراوى . إنه يروى – بأسلوب تحدّثى – عن وقائع حدثت ، أو توهم القارئ بأنها حدثت .

وكان آخر إسهامات محمود البدوى فى حياتنا الثقافية ، حين أهدت أسرته مكتبته الخاصة إلى دار الكتب والوثائق القومية ، لوضعها فى قاعة المكتبات المهداة ، وتضم مجموعات قيمة من الكتب الأدبية ودواوين الشعر والروايات العربية والأجنبية .

* * *

العمل الإبداعى بعامة هو الجسر الوحيد الذى وصل بين البدوى من ناحية ، وبين النقاد والقراء من ناحية ثانية . أما الإدلاء بالأحاديث فكان – على حد تعبيره – مهمة السياسى وليس مهمة الفنان . السياسى يحتاج إلى قوة منطق وقدرة على الخطابة لإقناع الجماهير . أما الفنان ، فإنه لا يهدف إلاّ إلى إقناع القارئ بصدق عمله فنيًا . وأقول للبدوى : لكن معظم أدباء العالم لهم آراؤهم فى المشكلات الأدبية ، والسياسية أيضًا ؟ .. يجيب فى دهشة : فلماذا لا تكون هذه الآراء نبضًا لأعمالهم الفنية ؟ .. هذا ما أحاول أن أفعله .

مع ذلك ، فقد كان للبدوى آراء فى أدبنا المعاصر . إن بداية القصة المصرية الحديثة – فى تقدير البدوى – رواية محمد المويلحى «حديث عيسى بن هشام» . كانت «قفزة جريئة بالأدب ، أخرجته من الطابع المألوف فى عصره ، لكنه وجد فى «زينب» أشد التزامًا بقواعد القصة الفنية (من محاضرة للبدوى فى بكين) . لم يكن يستريح إلى الرواية كشكل فنى ، وإن قرأ الكثير من الأعمال الروائية للأدباء العالميين . وقد أقبل على كتابة القصة القصيرة ، لأنها – فى تقديره – أقرب

الأشيـاء إلى قلب الإنسـان ، وأعطاها النـاس كل فـراغـهم ، فـأصـبـحت تحتل بالتـالى المكان الأول بين فنون الأدب جميعًا . القصة القصيرة هى التى تجذب قارئها من سطورها الثلاثة الأولى ، وهى التى يعيد القارئ قراءتها دون ملل . وكان يعتبر أن ما كتبه فى القصة القصيرة يمكن أن يضم رواية طويلة من ألف صـفـحـة . كـان يحب التكثـيف ، ويرى أن القارئ غير الذكى لا يفـهم قصصـه ، وإن أشـار إلى أن نفسَه قد يكون قصـيراً ، فلا يمتلك الصبـر على كتـابة الرواية . يقـول : أحب التركـيز بطبـعى . ومـا أريد أن أقـوله فى القـصـة الطويلة ، يمكن أن أقـولـه فى القصة القصيرة ، كما يتطلب التركيز قارئًا ذا سمات خاصة ، أهمها الذكاء المفرط فأنا لا أكتب للغبى مطلقًا ، ويجب أن يكون لقارئى مستوى مـعين» (الرياض ١٩٨٤/١٠/٧) . ولعله من هـنا جـاء قـول البـعض إن «قصص البدوى فى مجموعها ليست إلاّ أمشاجًا تستعصى على التصنيف ، وأغلبـها يخرج على مـفـهوم القصة القصيرة ، وإنه يتسم بروح القاص الذى يحتكم إلى طبيعته واستعداداته الفطرية (أحمد كمـال زكى : الرؤية القصصية عند محمود البدوى – فصول – المجلد الثانى – العدد الرابع) . ومعظم قصص البدوى على لسان الراوى ، ربما لأنه – كما يقول – يريحه فى الكتابة : «أنا أكتب عن شخصياتى بعد أن أعايشـها طويلاً . أفكر بطريقتها . أنظر إلى واقع الحياة من نفس منظورها ، فمن الطبيعى أن يكون ضمير المتكلم أقرب الأدوات إلى الاستعمال» (القاهرة ١٩٨٦/١/١٤) .

وعن بواعث اتجـاهه إلى الكتـابة الإبداعـية يقول البـدوى : «أشـعـر بخوف غريزى من شىء مجـهول فى الحـياة . لهذا أكتب لأمنع القلق عن نفسى ، وأمنع المرض العضوى كذلك . إن الكتابة – بهذا الاعتبار – هـى بمثـابة طوق نجـاة ، ولكل سـن أحلامـهـا التى تتـمسك بأطواق النجـاة» . ويقـول : «الأدب ألصقنى بـالحيـاة ، وجعلنى على صلة بأعمق أعمـاقهـا ،

وإن لم تكن الحاسة الإنسانية موجودة ، فقد جعلها الأدب مرهفة ، دقيقة الحس بكل شيء . وأعني بذلك الإحساس المرهف نحو كل ما هو معذب ومطحون في الحياة . وهذا الإحساس المرهف يجعل حياة الإنسان أو الأديب الذي يمتلك هذه الصفات مثقلة ، تنوء بحمل الإنسانية على أكتافه ، وشديدة التأثر بالمرارة الكبرى» . ويضيف الفنان : «أنا لا أفكر في الخلود أبداً ، أو تخطّي حدود الزمان الذي عشنا فيه . الخلود أسطورة لا أعرفها ، ولا أتصور كاتباً ينقب في حياتي بعد موتي . وحتى إن حاول أحد ذلك لن يجد في بيتي ، ولا في أهل بيتي ما يعينه على فهم أي شيء . أنا أكتب لأطارد من خلال الكلمة شبح الموت والخوف والرعب . أحاول الوقوف مع مكسوري الجناح من البشر ، ورفع الظلم عنهم . بالنسبة لي أحياناً أكتشف أنني أكتب لأطارد شبح الملل عني . كلها أشباح أطاردها من خلال ما أكتبه» (المصور ٢٥/٩/١٩٨١) .

وكان البدوي يعلق الشحوب الذي يعانيه الكثير من أعمالنا الإبداعية ، على مشجب خلو الحياة المصرية من الأحداث الجسيمة ، التي تغيّر – بصورة جذرية – من عاداتنا وتقاليدنا ونظرتنا إلى الأمور ، بينما صهر العالم نفسه في بوتقة حربين عالميتين ، فأنتج أدباً يقابل ضخامة أحداثهما . وأشار – في حوار له – إلى أنه اعتمد القصص الغربي في إقامة بنائه الفني ، أو إحكام تقنيته ، وأدرك عن طريقه قيمة التركيز ، واختصار التفصيلات ، وتحديد الشخصيات (أحمد كمال زكي : مرجع سابق) .

ومع أن البدوي لم يكن يحب السياسة – على حد تعبيره – ويكرهها ، ويكره الأحزاب ، فقد أسهم بآراء في الحياة العامة . كتب العديد من المقالات التي تدعو إلى سرعة الأداء الإداري ، وتحطيم الروتين ، وتيسير خدمات المواطنين . وكما قال في مقال له ، فإن الجمهور «يتردد على الأجهزة

لينجز أعماله . وهذا حقه . والمفروض أن ترعى هذه الحقوق ، ويحترم أصحابها . وإذا كنا نريد الثورة الإدارية ، فيجب أن يحدث تغيير جذرى فى كل الأجهزة فى كل وزارة ، وكل مصلحة» (الأخبار ١٩٧٧/٧/١٩) .
وعدد البدوى مظاهر سوء الإدارة المصرية ، متمثلة فى تأخر تفريغ ما تحمله البواخر فى الموانى المصرية من واردات ، وتأخر القطارات والطائرات عن مواعيدها ، وإهمال الصيانة ، إلخ (المصدر السابق) .
وكان رأيه أن العقل المتفتح لا يعوقه الروتين ، ولا يمكن أن يعطّل الروتين من يريد الخير والإصلاح لوطنه فى أى موقع . ووصف الحريص على الروتين بأنه سادى ، وشاذ الطباع ، يسرّه أن يعذّب الناس ، ويذلّهم ، ويجعلهم يترددون على مكتبه وهم وقوف ، وتشعر نفسه الوضيعة بالزهو والفخار كلما أذلّهم (الأخبار ١٩٧٧/٦/١) . ودعا إلى أن شعار الدولة يجب أن يكون تعبيراً عن عصر النور ، وعصر الأقمار الصناعية ، وأن تكون القوانين مبسّطة ومفهومة للجميع . «إننا شعب بسيط ، نفس البساطة التى فى أرضنا ، والصفاء الذى فى سمائنا» (المصدر السابق) .

* * *

كانت أولى رحلاته إلى الخارج فى ١٩٣٤ . سافر إلى تركيا واليونان ورومانيا والمجر ، فهو لم ينتقل إذن من القرية إلى المدينة فحسب ، وإنما انتقل إلى المدينة الأوروبية بكل التمايز والاختلاف عن الحياة الشرقية عموماً . قريته هى الأكراد إحدى قرى محافظة أسيوط ، وكانت تابعة لمركز أبنوب الذى اشتهر بالجريمة والعنف . وكانت المدينة المصرية جسراً إلى مدينة الغرب الأوروبى بكل اتساع مساحة التباين . وأثمرت الرحلة قصته الطويلة الوحيدة «الرحيل» . وفى ١٦ أكتوبر ١٩٥٧ سافر محمود البدوى إلى الصين فى رحلة لمدة ٤٥ يوماً ، ضمن وفد من المثقفين والمبدعين المصريين برئاسة الدكتور السعيد مصطفى السعيد

مدير جامعة الإسكندرية ، ومن أعضائه الدكتور أحمد نجيب هاشم ، والمثال سعيد الصدر . وقد ألقى البدوى - فى هذه الرحلة - محاضرة عن أدب النضال فى مصر من أيام الأفغانى إلى القصة المصرية الحديثة .

وبالطبع ، فإن الرحلة لم تكن بالنسبة للبدوى الذى ألف أن يحيل كل تجربة إلى قصة قصيرة مجرد رحلة للنزهة - فضلاً عن التحدث إلى جمهور المثقفين - لكنه عنى بالمشاهدة والتأمل وإلقاء الأسئلة ، واستثمار ذلك كله فى رؤى إبداعية كانت قواماً للعديد من إبداعاته القصصية .

وفى يناير ١٩٧٣ سافر البدوى إلى الاتحاد السوفييتى ، ضمن وفد من الأدباء والشعراء : محمود حسن إسماعيل وصلاح عبد الصبور وحلمى مراد . وفى نوفمبر ١٩٨١ سافر البدوى والشاعر فاروق جويدة فى رحلة إلى الدانمارك ، ضمن البرنامج الثقافى التنفيذى بينها وبين مصر .

صدر للبدوى - كما أشرنا - رواية وحيدة قصيرة هى «الرحيل» ، و٢٢ مجموعة قصصية ، بالإضافة إلى القصص التى يضمها هذا الكتاب ، بينما لم يصدر له سوى كتاب وحيد فى أدب الرحلات . وظنى أن ذلك الكتاب - وأيضاً ذكرياته التى نشرها منجّمة فلم يضمها كتاب بعد - أقرب إلى هوامش المتون . أما المتون نفسها فهى إبداعاته القصصية . البدوى توقف أمام كل لحظات حياته ، تأملها ، واختزنها ، وحاول التعبير عنها فى أعماله «من يقرأ قصصى قراءة متأنية سيفهم حياتى دون توجيه سؤال» (القصة - أكتوبر ١٩٨٠) .. «إن قصة حياتى مكتوبة كلها فى قصصى ، فما من قصة إلاّ ولها أصل فى حياتى ، أو تعبير عن تجربة فى حياتى» (المساء ١٩٦٣/٥/٣٠) . ويقول لنعمان عاشور إنه لا يستطيع أن يرسم إلاّ حياة من يختلط بهم . وفى أواخر

الخمسينيات كانت زوّادته - التعبير له - قد فرغت ، ولم يعد فى إمكانه أن يجتر من تأملات تجاربه الماضية بعد أن خوت وذوت . ثم قام برحلة إلى اليابان ، ملأت جعبته بالعديد من التجارب . وعاد إليه الأمل فى أن يواصل الكتابة ، فيضيف إلى رصيده من المجموعات الخمس التى كان قد أصدرها حينذاك . وما لم تستوعبه قصص البدوى كتب عنه بصورة مباشرة فى كتاب رحلاته الوحيد ، وفى ذكرياته . إنه أقرب إلى قصص القصص - والتعبير للبدوى نفسه .

ما كتبه البدوى من قصص توظيفًا لمشاهدات رحلاته إلى خارج مصر ولقاءاتها وخبراتها ، يضع علامة استفهام أمام قول سيد النساج بأنه «لم يكتب إلاّ عن شخصيات استمدها من الواقع المصرى ، من خلال مواقف مصرية وروح مصرية» . ولا يخلو من دلالة قول البدوى : «مع السفر تلتقى بوجوه كثيرة ، وثقافات متعددة ، وأسفارى داخل مصر وبين بلدان العالم ، وسّعت مداركى ، وعرّفتنى بمختلف شعوب العالم ، وبالتالى أفدت من كل هذا فى قصصى» .

* * *

ثمة معلمان مهمان فى إبداع محمود البدوى ، يتصل بهما قسمات وملامح أخرى ، ترسم - فى مجموعها - عالم البدوى بكل ما فيه من تفصيلات وتكوينات وملامح .

أما المعلم الأول فهو الحرب . إنها بعد مهم فى أعمال محمود البدوى ، لعاملين : أولهما أنه كان يثق بدور الحرب فى صياغة الأعمال الإبداعية . المثل الأقرب أدب ما بين الحربين فى أمريكا وأوروبا [كانت أعمال همنجواى هى المثل الأبلغ فى التعبير عن أجواء الحرب] . أراد البدوى أن يسم أعماله بإنسانية تخاطب الإنسان بعامة . قرأ الكثير من

الإبداعات العالمية ، فوجد أنها تتحدث عن الحرب : الحرب والسلام .. وداعًا للسلاح .. الأمل .. الحرب .. وانعكست أحداث الحرب في الكثير من أعمال البدوى .

لقد خاضت مصر - بالفعل - حروبًا متوالية ، ألقت ظلها على الحياة المدنية ، فضلاً عن وقائع المعارك ، وتأثيرها على الجماعات والأفراد فى جبهات القتال . لم يمارس الفنان تجربة القتال الفعلى فى جبهات المعارك . ولأنه - كما يبين فى كل قصصه - لا يصدر إبداعه إلاّ عن تعرف وتأمل ، فإنه عنى بتناول تأثيرات الحرب على الجبهة الداخلية ، على المدن والقرى والناس العاديين ، هؤلاء الذين يبعدون - أو يقتربون - من جبهات القتال ، لكن تأثيرات الحرب تنالهم بصورة وبأخرى . الحرب تعنى - بالنسبة للداخل - الأحكام العرفية والإظلام والغارات وضرب المدن وإغراق السفن والاعتداءات غير المبررة وقتل الأبرياء والتشوه والهجرة وتفشى الأوبئة وغيرها من المفردات التى تعمق قتامة الصورة .

وإذا كان البدوى يلح على أهمية الحرب فى الأعمال الإبداعية ، فإنه يأخذ موقف إدانة الحرب فى إبداعاته إطلاقًا . الحرب - فى تقديره - من ضعفنا ، ومن عمل الشر ، وهى جنون مطبق ودمار شامل ، ومادمنا لا نستطيع أن نوقف هذا الدمار ، فنحن أعجز من أن نحرر أنفسنا من الذين يدفعوننا إليها دوما (قصة «امرأة فى الجانب الآخر») . ويقول الراوى : «إن الذى اخترع آلات التدمير التى تلقى علينا الآن على شكل قنابل ومفرقعات ، هو عقل بشرى متفتح دون شك . وكان غرضه الأول هو خير الإنسانية ، ولكن الشياطين هم الذين حولوا هذه الأشياء إلى آلات للدمار تسحق الإنسان نفسه الذى اخترعها ، وقتل الروح الطيبة من البشر (قصة «حارس البستان») .

* * *

ولعل انعكاس الوجود الاحتلالى على الحياة المصرية يتصل - على نحو - بمعاناة الحرب ، ويمثل - فى الوقت نفسه - بعداً مهماً فى إبداعات البدوى . إن المظهر الاحتلالى فى شوارع المدن المصرية يعنى العنف والقهر وخطف النساء وفقد المواطن المصرى إحساسه بالأمن والحرية والكرامة . بل إن الفنان يدين الاستعمار - بوسيلة غير مباشرة - حين يسأل الرجل : لماذا لا يوجد أديب فى الشرق مثل جوركى أو ديكنز أو همنجواى ؟ .

يجيب محاوره : لأن الأدب عندنا ينفصل عن الحياة .

- أليس للاستعمار دخل فى هذا ؟ !

- إن الأدب يزهر وينمو ، حيث القلق والاضطهاد ، ولكننا نعيش فى الحياة ولا نصل إلى أعماقها (الأعرج فى الميناء) .

والوجود الاحتلالى فى قصص البدوى ، لا يقتصر على جنود الإنجليز وحدهم ، لكنه يمتد فيشمل الجاليات الأجنبية التى تفرض واقعاً قاسياً على المواطنين المصريين .

وبالطبع ، فقد انعكس سلوك جنود الاحتلال بالسلب على أخلاقيات بعض المصريين ، كما حدث - على سبيل المثال - مع حميدة وفرج إبراهيم وحسين كرشة فى رائعة نجيب محفوظ «زقاق المدق» . وكما حدث أيضاً مع الكثير من أبطال محمود البدوى فى قصص : فندق البحر ، وساعات الهول ، وامرأة فى الجانب الآخر ، والرجل الشريف ، إلخ .. وثمة الكثير من الرجال والنساء - فى المقابل - قاوموا الإنجليز ، فى القاهرة والإسكندرية ومنطقة القناة ، وفى بعض قرى الصعيد إبان أحداث ثورة ١٩١٩ .

* * *

أما المعلم الثانى ، المهم ، فى أعمال البدوى ، فهو العلاقة بين المرأة والرجل ، العلاقة الحسية على وجه التحديد . الإنسان هو نبض أعمال البدوى ، والعلاقة بين الرجل والمرأة هى الشريان الأهم فى تلك الأعمال . وكما يقول الراوى فى قصة «فى الظلام» فقد «خلقت المرأة للرجل ، وخلق الرجل للمرأة ، ولابد أن يتلازما» (فى الظلام – الذئاب الجائعة) . وكان أستاذنا محمد مندور أول من لاحظ أن «مسألة الرجل والمرأة ، والعلاقة الجنسية بينهما ، تحتل مكانًا مسرفًا فى قصصه ، حتى لا تكاد تخلو منها قصة واحدة» (الشعب ١٩٥٩/٨/٣٠) .

مفردات المكان عند البدوى – فى غالبيتها – هى المدينة والقرية والنهر والحقل والبحر والشاطىء والشارع ومحطة القطار والمطعم والبار والفندق والبنسيون . ومعظم العلاقات الإنسانية فى هذا المكان هى – فى الأغلب – بين امرأة ورجل . الجوانب النفسية هى أهم ما تعنى به قصص البدوى . العلاقات بين البشر فى تشابكها وغموضها وغرابتها ، وأوضح ما تكون هذه العلاقات بين الرجل والمرأة . كانت قراءاته كثيرة ومتنوعة فى علم النفس . وكان مؤمنًا بالنظريات الفرويدية ، حتى أنه سعى إلى لقاء عالم النفس الشهير .

فى مقالة عن مجموعة «الشيخ عفا الله» لمحمود تيمور ، يبدى البدوى تقديره لمحاولة الفنان أن يخضع إبداعاته لعلم النفس ، اتساقًا مع ميل البدوى نفسه للإفادة من علم النفس فى إبداعاته ، فهو – فى تقديره – علم جليل الشأن ، عظيم الأثر ، يعنى بالغرائز وخفايا الشعور ، ويبرع فى سبر أغوار النفس البشرية ، والوصول إلى أعماقها ، وتصوير أدق خلجات القلب ، ورد كل ما يجيش فى صدر الإنسان وعقله من عواطف وخواطر وانفعالات إلى أسبابه الحقيقية . ويشير البدوى إلى أن «هؤلاء العلماء الأفذاذ» قد كشفوا الإنسان البشرى بعد جهل طويل ،

وجـرّدوه من لبـاسـه المسـتـعـار ، وأبرزوه فـى ضـوء النـهـار أمـام هؤلاء المتزمتين العاجزين الذين يشوهون بنفاقهم حقائق الوجود («الرسالة» - التاريخ غير موجود) .

نحن نجد التحليل النفسجنسى منذ رواية البدوى القصيرة الأولى «الرحيل» . توقدت المشاعر الجنسية للشاب والفتاة ، بعد أن التقيا على ظهر باخرة . وتبدّت فى تصرفاتهما العفوية وهما يتجولان بين آثار أثينا ، وينصـتـان إلى الأذان يتـعـالى من مـآذن اسطنبـول . وظلت الفـتـاة فى اسطنبول ، بينما واصل الشاب رحلته . وكانت عاطفة الشابين قد رقت وشفت . تحولت إلى مشاعر سامية يشغلها الحب بمعناه العاطفى وليس الحسى .

وتوقد الحرب يرادف توقد الجنس فى العديد من أعمال البدوى . إنه يفـرض نفـسـه حـتى فى أشـد لحظات الخطر والمأسـاة . قـد تنشـأ العلاقة فى أثناء غارة جوية ، أو عند التـهيؤ لتشـييع جثـمـان راحل . ويتذكر الراوى الذى كان يحادث صديقته الأجنبية ، فأفزعهما صوت القنابل ، وتعانقا ، من ثم ، فى لحظة جنس حميمة !

فى رواية «الأمل» لمالرو ، يبين الحوار عن أن الحـرب لا تحـتـمل التفكير فى قيام علاقات بين المرأة والرجل . وقد عاب بعض النقاد على همنجواى تلك العلاقة الحسية بين ماريا وروبرت جوردان فى قلب المعركة (لمن تدق الأجراس) . لكن ذلك ما فعله البدوى حين مارس الرجل والمرأة الجنس فى قلب الغارة الجوية . حتى التفكير فى الجنس يفرض نفسه فى عربة الموتى ، وممارسة الجنس تحدث بالقرب منها ، وفى وسط لحظات الحزن والخوف والتوتر (قصة : زهور ذابلة) .

وإذا كان التوقد الجنسي يبين عن ملامحه في أوقات الحرب ، بكل ما تعنيه من خوف ورعب ، فإن أوقات الحزن الشديد كذلك قد تبين عن ملامح مشابهة ، وهو ما حدث في قصة للبدوى ، حين أقام الرجل علاقة جنسية مع زوجة صديقه الميت في غرفة مجاورة ! (قصة : الدرس الأول) .

كل قصة للبدوى لابد أن يكون بطلاها رجلاً وامرأة ، والجنس هو محور العلاقة ، والمرأة – دائماً – تمثل الغواية . أما الرجل فهو الضحية ، أو هو الجانب السلبي الذى لا يتخذ موقفاً معارضاً أو مقاوماً لإغراء المرأة ، مثلما فعل راهب «تاييس» لأناتول فرانس ، أو بطل «سادى تومسون» لسومرست موم ، أو بطل «السيمفونية الريفية» لأندريه جيد . المصير القاسي يترصد لكل من تغويه المرأة ، الأفعى ، في حبائلها . المرأة والرجل يؤديان دوراً مشابهاً لدور أنثى النحل وذكره ، فهى تغويه بالعلاقة ، حتى إذا انتهى من أداء دوره ، قتلته ، أعدمته ، وإن اختلف أسلوب قتل المرأة للرجل ، فهو يدفع ثمن «الجريمة» بالدفع به إلى المشنقة ، أو السجن لأعوام طويلة !

إن معظم قصص البدوى تمتد جذورها إلى تلك الحادثة القديمة التى تعود إلى قيام البشرية ، وأعنى بها إغراء حواء لآدم مما أوقعه في الخطيئة ، فاستحق أن يطرد من الجنة ! .. يقول : «الجنس شيء هام جداً ، ظواهره خفية . قد تلاحظ أشياء تبدو من الوهلة الأولى بعيدة كل البعد عن الجنس ، ولكنك إذا تعمقتها وبحثت وراءها ، تجد أن الجنس هو الباعث الأول لها» (الصياد ٢٨/١١/١٩٧٤) .

الحب عند البدوى أقرب إلى المعادلة : امرأة + رجل = جنس ، منه إلى المعادلة : امرأة + رجل = حب . فالرجل في قصص البدوى ليس إلاّ أداة في نشدان المرأة للجنس ، وإن كان الهدف في النهاية تلك العلاقة الهلامية التى تعتمد على الجنس بصورة أساسية ، والتى تنتسب –

تجاوزاً – إلى الحب . وبتعبير آخر ، فإن المرأة عند البدوى تعنى العلاقة الجنسية ، سواء كانت علاقة قائمة أو متوقعة . إنها – كما وصفها أحد النقاد – «مجرد حيوان يبحث عن لذته فى أى مكان ، ويختار الرجل الأقوى الذى يحقق له ما يريد دون إخلاص للحب ، أو تمسك بالحبيب» (عبد الرحمن الصادق : أدب محمود البدوى بين القديم والحديث – الهدف مارس ١٩٦٠) . المرأة التى تغوى تظل تنعم بالحياة . أما الرجل الذى يسقط فريسة للإغواء ، فيلقى مصيراً مأساوياً ، قد يكون الموت !

محمود البدوى يرتكز – فى غالبية أعماله – إلى النظريات الفرويدية من ناحية ، وإلى المعتقد الشعبى الذى يرى «أن الشهوة الجنسية تسيطر على المرأة ، حتى ولو كانت درويشة ، وأنها تخون زوجها بلا سبب واضح ، وإنما لنزوة فيها» (المستقبل العربى ٨١/١٢) .

وإذا كان جورج سانتيانا يرى أن طبيعة الرجل مهيأة للإنجذاب العاطفى نحو المرأة ، فإن الرجل عند البدوى مثل أبطال ديستويفسكى ، هو وحده الذى يكابد المصير القاسى دوماً ، فى حين أن المرأة هى الغواية الجوانية ، التعبير الجوانى عن هذا المصير . الطبيعة الشهوانية للمرأة تثير شهوة الرجل ، تثير ذكورته ، تدفعه إلى فعل الجنس ، ليدفع الثمن – ربما حياته – مقابلاً لما فعل ، بينما لا تدفع هى ثمناً من أى نوع . وإذا كان المعلم فى رواية «زوربا» لكازنتزاكس ، يصف الأرملة سورمولينا بأنها حيوان مفترس ، لدنة ، خطرة ، تلتهم الرجال ، متشحة بالسواد ، فإن المرأة فى أعمال البدوى هى امرأة فرعون ، والرجل هو النبى يوسف .

وقد واجه البدوى اتهاماً بأنه لا ينظر إلى الحياة من كل جوانبها «وإنما يحصر نظرته فى الجانب الشهوى ، ويخلى هذا الجانب من أى نبض فكرى إلاّ حين تتسلل إليه صور الحرب . وهكذا يصبح خياله

المثقل بزخم الجنس شفيفًا عاقلاً ، يزن الأمور باللغة أحيانًا ، وبالنقد الموجه أحيانًا أخرى ، مبتعداً ما شاء له الابتعاد عن جوع مارى أو كارولين صاحبة القبلات المحمومة والشعر الأشقر المتهدل» (أحمد كمال زكى : مرجع سابق) .

حين صور البدوى أجواء الحرب ، فلأنه كان يعى التغيّر الذى تحدثه الحرب فى الأفراد والجماعات . ثمة ما يشبه الزلزال تحدثه الحروب الكبرى فى حياة البشر ، والمثل الأقرب الحربان العالميتان الأولى والثانية . لقد تغيرت صورة العالم فيما بين الحربين . كما تغيرت صورة العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . اختفت دول ، ونشأت دول جديدة ، وتخلّقت تيارات ومذاهب حديثة ، وظهرت قيم لم تكن موجودة إلخ ..

وعندما صور الكاتب العلاقة بين الرجل والمرأة ، فإنه لم يستهدف مجرد العلاقة ، مجرد العلاقة الحسية . وبتعبير آخر ، فإن الفنان لم يحاول دغدغة حواس القارئ ، واستثارة مشاعره ، لكنه تناول العلاقة بين المرأة والرجل فى إطار التحليل النفسي الذى يحض على التأمل واستكناه البواعث ، بما يذكرنا - على سبيل المثال - بالنظرة التى تعامل بها ألبرتو مورافيا مع هذه العلاقة .

ما صدر عن البدوى من أعمال تعنى بالحرب والجنس ، يختلف - بصورة جذرية - عن مطبوعات الإثارة التى تستهدف حواس القارئ . إنها تنطلق من الفن الجميل ، ومن فلسفة الحياة المتكاملة التى تجد فى الجنس احتياجًا طبيعياً ، مثل النوم والطعام وحب الحرية . وكما يقول محمد شوكت التونى ، فقد «أراد بعض الكتاب المصريين الذين لم ينضج فيهم الذوق الفنى ، ولم يسعفهم الإلهام المواتى أن يقلدوا بعض هؤلاء الكتاب ، فشطّوا وسيطرت عليهم العواطف المكبوتة ، وبرزت غريزتهم الجنسية ، وسمّوا هذا النوع من الكتابة أدبًا مكشوفًا ، فكان جهلاً

مكشوفًا . أما الإنتاج الجديد الذى نحن بصدده ، وهو أدب القصصى الناشىء محمود البدوى فأدب تحليلى سام فى فنه ، عال فى خياله ، مهذّب اللفظ ، مغطّى المعنى بطبقات من الذوق (المساء ١٩٣٦/٦/٢٢) .

* * *

ولكن الحرب والجنس ليسا البعدين الوحيدين فى أعمال البدوى . إنهما البعدان المهمّان . ثمة الريف بكل ما يحياه من مشكلات ، وثمة الغربة والحنين والاضطرابات النفسية وجرائم الثأر والعنف والظلم الاجتماعى . وعموماً ، فإن البدوى لم يكتب إلاّ عن البيئات التى اختبرها . كتب عن ريف الصعيد لأنه عاش فيه طفولته وصباه وشبابه الباكر . كانت السنوات الثمانى عشرة الأولى من حياته - فى قول له - ريفية بكل معنى الكلمة . وهو ما أجاد تصويره فى العديد من قصصه : جرائم الثأر ورجال الليل والتكافل الاجتماعى وخلافات الحياة اليومية . أذكر قوله لى : احتوانى الريف واحتويته ، بمزارعه وأجرانه وليالى حصاده وحكاياته التى لا تنتهى . إننى لازلت أحمل على كتفى زخم الأكراد (آباء الستينيات ص ٢٥٠) وإذا كانت نظرة يحيى حقى إلى ريف الصعيد تتسم بالسوداوية والقتامة وملاحظة السلبيات ، فإن نظرة البدوى تبدو متعاطفة ، مشفقة ، وتتطلع إلى التغيير . وقد لاحظ أحمد كمال زكى أن الريف لدى البدوى هامشى ، مع أنه من إحدى قرى الصعيد (أحمد كمال زكى : مرجع سابق) بينما ذهب رجاء النقاش إلى أنه استطاع أن يعتصر لنا فى أدبه مأساة الصعيد . وكتب البدوى عن مدن فى الخارج لأنه زارها ، وأمضى فيها فترات طالت أو قصرت ، وكتب عن الفنادق والبنسيونات لأنه تردد عليها ، بل كتب عن فنار رآه فى الفترة التى قضاها موظفًا بمصلحة الموانى والمنائر بالسويس ، ممثلاً لوزارة المالية

(قصة : رجل على الطريق) - يقول : أنا أكتب ما أشعر به ، وأحسه بوجدانى ، وأعيشه فى حياتى ، وأكتب عن تجربة صادقة ، ولا أفتعل الحوادث ولا أزينها ، ولا أتقيد بمذهب ، ولا أعرف المذاهب . وأنا واقعى مثل جوستاف فلوبير وديكنز وجوركى وتشيكوف ، وطبيعى أحياناً مثل زولا . وهؤلاء لم يدرسوا الواقعية ولا الطبيعة قبل كتابتهم ، وإنما كتبوا بالفطرة ، ومتأثرين بالجو الذى يعيشون فيه ، وبالأشخاص الذين يلتقون بهم فى الحياة ، فشخوصهم حية عامرة بنبض الحياة . ولهذا عاشت قصصهم» .

* * *

ربما تخطئ بعض المحاولات النقدية تحديد موقع محمود البدوى على خريطة الحياة الأدبية فى بلادنا ، ذلك لأننا نهمل مكانة المبدع فى زمانه ، فى الوقت الذى يدين له بالريادة . من الظلم أن أجاوز عشرات الأعوام لأحاسب مبدعاً فى ضوء تيارات إبداعية ونقدية حديثة . تلك النظرة المتعسفة تكفل - فى تقديرى - ظلم الكثير من كبار المبدعين ، وربما التهوين من قيمة معطياتهم ، ولنا أن نستعيد - فى زمانها - نظرات المنفلوطى وعبراته ، وزينب لهيكل ، وشجرة البؤس لطه حسين ، وعودة الروح للحكيم ، وأرخص ليالى ليوسف إدريس إلخ .

إن البدوى - فى تقدير الكثيرين - هو رائد الواقعية فى القصة المصرية القصيرة . وإذا كانت حملة «الأدب الجديد» التى حمل لواءها عبد الرحمن الخميسى ومحمود عبد المنعم مراد وعبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم وغيرهم فى أوائل الخمسينيات ، قد استطاعت أن تشق للواقعية الاشتراكية طريقاً فى مسار الحياة الأدبية المصرية ، فإن الواقعية - كتيار أدبى حى ، وخصب - أكدت وجودها فى منتصف الثلاثينيات ، ومنذ أصدر البدوى مجموعته القصصية الأولى على وجه

التحديد . وقد اعترف عبد الرحمن الشرقاوى فى تقديمه لمجموعته «أحلام صغيرة» بأستاذية البدوى . أشار إلى حكايات الجاحظ ، وانتفاضات عبد الله النديم ، ومغامرات محمد المويلحي ومحمد تيمور ومحمد السباعى ، حتى توقف عند إشراق تجربة محمود البدوى - التعبير للشرقاوى - التى أضاءت «أمام العين والفكر والقلب كثيراً من آفاق حياتنا المصرية المعاصرة ، وشعّت من كلماته الصادقة تلك الحرارة الحلوة التى تعطى الدفء والنبض لكثير من الأشياء الصغيرة التافهة» . ثم يهدى الشرقاوى مجموعته إلى البدوى ، وإلى كل هؤلاء الذين يعملون - بأمانة - على إثراء تجربة التعبير فى مصر ، ويضيفون بكتاباتهم المخلصة كنوزاً جديدة إلى تراثنا الفنى (أحلام صغيرة - كتب للجميع - مارس ١٩٥٦) . وتتأكد قيمة كلمات الشرقاوى فى ضوء أعمال محمود تيمور ومحمود كامل وغيرهما من أدباء تلك الفترة ، والتى كانت تدين بالرومانسية ، أو تنبو عن الحية المعاشة ، الحقيقية ، وإن أقبل شباب تلك الفترة عليها لأنها تنقلهم - على الورق - إلى عوالم لا يحيونها ، وغير مرئية ! . احتضن البدوى الواقعية بكل فظاظتها وخشونتها وغرابتها وشذوذها ، فأحدثت أعماله هزة عنيفة بين الأدباء والقراء فى آن ، وأقبل عليه البعض ورفضه البعض الآخر [كان رشاد رشدى من أشد النقاد هجوماً على البدوى . وكان رأيه أن البدوى لا يدرك الشكل الفنى للقصة القصيرة - بناء الوطن - مايو ١٩٦١] وإن اتفق الجميع على أن معطيات البدوى تناقض مألوف القصة آنذاك . لقد أحدثت - فى حينها - النقلة ذاتها التى أحدثتها - فى الخمسينيات - مجموعة يوسف إدريس «أرخص ليالى» . وثمة من أكد على أن البدوى كاتب قصة لا يتكرر . فقصصه معزوفات إنسانية شجنية تخطف العقل والقلب معًا ، وأفكاره تتمثل غرابتها فى فرط بساطتها ، والبيئات التى يرتادها تتفاوت من

حارس إحدى الفنارات لغاية أوكار الرذيلة فى هونج كونج . ولم أر فى حياتى مزيجًا من الحرارة والمرارة والسخرية والرضا ، مثل ذلك المزيج الذى يحفل به عالم قصص محمود البدوى . هذا العالم الذى يحترم الضعف الإنسانى ، ولا يسخر منه أو يلمّزه قط» (الكواكب ١٦/١/١٩٨٤) . ووصفه ابن جيله عبد الحليم عبد الله بأنه «أستاذ كتّاب القصة القصيرة ، يأتى بعد ذلك كتاب أجادوا فيها ، منهم يوسف إدريس ومحمود السعدنى وصالح مرسى (الحقائق ٨/١٢/١٩٦٠) . ووصفه محرر «الآفاق» بأنه «زعيم القصة فى مصر ، الرجل الذى استطاع أن يجعل لها فى المحيط الأدبى مكانة ملحوظة» (الآفاق ٢١/٦/١٩٤٨) . وكتب عميد الإمام أن أعماله من بين الأعمال القليلة فى أدبنا العربى المعاصر التى تقف على قدم المساواة مع أى إنتاج أدبى عالمى (الجمهورية ١٢/٦/١٩٦٠) . أما فؤاد دوارة ، فقد تناول أعمال البدوى باعتباره واحداً من أفضل خمسة كتاب قصة قصيرة فى أدبنا الحديث (فؤاد دوارة : فى القصة القصيرة – الألف كتاب ٦٢٧ ص ٣٢) .

التأكيد على التجاهل الذى عاناه محمود البدوى ، أشبه بالكونشرتو الذى يسبق الهارمونى الموسيقى . لابد أن يمهد كل ناقد ، أو دارس ، لمقاله بالإشارة إلى التعتيم الذى يواجه أعمال البدوى . ثمة ما يقرب من الإجماع أن الأضواء قد ابتعدت عنه ، أو ابتعد هو عنها (سيد النساج : القصة – ديسمبر ١٩٧٤) . أشد ما كان يؤلمنى تظاهر البدوى باللامبالاة ، حتى أمام التجاهل النقدى الذى بدا وكأنه مؤامرة صمت ، لكن مشاعرى كانت ترقبه وهو يسلم نفسه إلى دوامات متلاحقة من الشرود الحزين ، تعبيراً عما يضطرم فى أعماقه من عدم الرضى .. لكن البدوى لم يتخلّ عن إيمانه بفنه ونفسه ، وظل يواصل عطاءه فى صمت ، دون أن تشغله تلك الجوائز والمناصب الرفيعة التى حصل عليها هؤلاء الذين يدينون له بالأستاذية ، أو تقف قدراتهم الفنية على مبعدة من موهبته المتميزة .

الطريف – والمؤسف – أن التجاهل الذى لقيته أعمال البدوى ، إلاّ من محاولات نقدية وإشارات ، منصفة وجادة ، لسيد قطب ومحمد شوكت التونى وصديق شيبوب ومحمد على غريب وعبد الرحمن الشرقاوى وسيد النساج ومحمد قطب وإبراهيم سعفان وعلاء وحيد وعبد الرحمن الصادق ومجدى توفيق وبشير الهاشمى وعبد العال الحمامصى وأبو المعاطى أبو النجا وأحمد زكى عبد الحليم وعبد العزيز مصطفى ومصطفى عبد الشافى وغيرهم .. ذلك التجاهل ، قابله اهتمام مؤكد فى الترجمة إلى اللغات الأخرى ، فقد ترجم له الألمان والفرنسيون والروس والمجريون وغيرهم . كما خصص له المستعربون مساحات واسعة فى دراساتهم .

ولأن الرجل طال إهماله ، فلم يحصل على جائزة تشجيعية ولا تقديرية ، فقد اخترع الرئيس الراحل أنور السادات – لا يحضرنى تعبير آخر – جائزة له سمّاها جائزة الجدارة ، وهى جائزة لم تتكرر فى عام تال بما يشى أنها خصصت للبدوى ، ولسواه من الرواد الذين عبرهم تقدير الدولة ، ولم ينصفهم .. ثم نال الرجل جائزة الدولة التقديرية بعد أن ودّع الحياة .

* * *

وبعد ، فإن هدف هذه الكلمات ليس تقديم دراسة فى أدب محمود البدوى ، ولا حتى مجرد التعريف النقدى بأعماله ، لكنها تعنى بتسليط أضواء جديدة على حياة البدوى وأدبه ، من خلال القراءة المتأملة لما كتبه البدوى ، وما كتبه النقاد عن أعماله ، بالإضافة إلى الآراء التى تضمنتها حواراته .

ولعله يجدر بى – ختامًا – أن أوجه الشكر إلى الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة ، لمبادرته بتخصيص ندوة علمية عن محمود البدوى ، ولموافقته على إصدار هذا المجلد الذى يضم ما لم يسبق نشره فى مجموعات للأديب الراحل . كما أوجه الشكر إلى

الأستاذ على عبد اللطيف زوج السيدة ليلى محمود البدوى على ما وضعه تحت يدى كاتب هذه السطور من معلومات ووثائق ، أتاحت التعرف إلى جوانب مهمة فى سيرة البدوى الشخصية .

محمد جبريل

مصر الجديدة ٢٠٠٠/١/٥

المحتويات

رقم الصفحة

رقم الصفحة

السماء لا تغفل أبدًا

خرجت من دائرة المطار وبيدى حقيبتى .. وكان الجو فى الخارج شديد البرودة كما توقعت ، وبدت السماء شهباء داكنة .. والثلج يتساقط بغزارة .. وأشرت لتاكسى فوقف .. وقلت لسائقه :

– أتعرف فندقًا هادئًا ورخيصًا .. فى هذه المدينة ؟

– نعم .. وسأذهب بك إلى أجمل فندق هنا .. ولن تدفع أكثر من ثلاثين دولارًا فى اليوم .

– إقامة كاملة .. ؟

– بالإفطار .. فقط .. !

ولم استكثر المبلغ لأنى أعرف غلاء المعيشة فى الدول الاسكندنافية .. ووجدته مقبولاً ، ويتحمله جيبى فى الأيام العشرة التى سأقيمها فى المدينة .. وبعد جولة طويلة فى مدينة ساكنة وقف السائق .. أمام بناية خضراء من ثلاثة طوابق .. قريبة من المحيط .. ولم يكن خلفها ولا بجوارها بناء .. حتى حسبتها قائمة وحدها على سيف البحر ..

وأمسك السائق بالحقيبة ودفع الباب الدوار .. ودخلت وراءه مسرعًا لأتقى البرد والثلج الساقط ..

وكان هناك رجل متوسط الطول سمين الوجه فى مركز الاستقبال . استقبلتنا عيناه بنظرة متأنية .. قبل أن نقف أمامه ..

وقال للسائق .. بعد محادثة قصيرة بينهما :

– سنعطى السيد الغرفة ٢٠٦ فى الدور الثانى مطلة على البحر ..

وشكرت السائق ونقدته أجره وانصرف ..

وجاءت سيدة في رداء أزرق سابغ .. حملت الحقيبة إلى المصعد .. ولم نتحادث حتى حسبتها لا تعرف الإنجليزية وقلت في نفسي إنها مصيبة أن نتفاهم بالإشارة من أول يوم .

وكان معها مفتاح الغرفة .. وبعد أن فتحت الباب سلمتني المفتاح .. ودخلت معي الغرفة وأشعلت الأنوار .. وأزاحت الستر .. ووضعت الحقيبة داخل الدولاب .. ودلتني على الباب الصغير الداخلي الموصل للحمام . ثم أحنت رأسها وانصرفت وأنا أشكرها ..

وخلعت معطفي وملفعتي .. وكل ما تدثرت به ليقيني من البرد في الخارج .. وأخذت حماماً ساخناً شعرت بعده بالراحة . وهدوء الأعصاب . ولكن السكون الذي طالعني من جنبات الفندق أقلقني بدلاً من أن يريحني . فقد كان شديداً وخيل إليّ أنني الوحيد المقيم في الفندق .

وغيرت ملابسي ونزلت إلى بهو الاستقبال في الدور الأرضي .. فلم أجد نزيلاً واحداً ، وطالعني السكون – وشعرت بالوحشة فليس حولي إلا مقاعد وأرائك خالية ، وستر كثيفة على الأبواب والنوافذ .. رياش وطنافس يسر بها كل نزيل ، ولكنها لم تدخل البهجة إلى قلبي .

وأزحت ستار النافذة القريبة مني لأستأنس بالمارة في الطريق .. ولكن الثلج كان يتساقط .. ولا أرى إلا العربات تمضي سريعاً .. وبعض العابرين .. يتحركون تحت الثلج .. فرادى .. رجل واحد .. وامرأة وحيدة في دثار كامل من البرد والثلوج ..

وكان بالقرب مني في الساحة الواسعة .. رجل على حصان .. ولم أعرف موقعه من التاريخ فما أكثر التماثيل في هذه المدينة .

والرجل الذى استقبلنى بالحقيبة وأنا داخل .. قد حل محله موظف آخر .. سيدة طويلة بيضاء حمراء الشعر .. قد خلعت عذارها .. واشتغلت بالكتابة فى دفتر طويل أو بالرد على التليفون ..

وظللت وحيداً فى مكانى أحصى المقاعد من خشب السويد . وأتمعن فى اللوحات على الحوائط .. وأقلب فى عناوين الصحف التى أمامى .. حتى أحسست بالجوع .. وكنت أود أن أسأل موظفة الاستقبال عن مطعم .. ولكنى رأيت أن أعرف ذلك بنفسى دون سؤال . وتلفعت وأصبحت فى الطريق .

ورأيت فى البناية القريبة من الفندق مطعمًا .. ولكنى تركته ودخلت المدينة أحدق فى اللافتات .. وأصبحت فى الشارع الرئيسى الذى تتجمع فيه كل المتاجر . وقرأت لافتة تشير إلى مطعم فى الدور العاشر من محل «إرما» ودون أقل تردد ركبت المصعد إلى هناك .

وكان المطعم يشغل السطح كله للبناية .. ووجدته مزدحمًا ولكنى أخذت مائدة جانبية أعدت لشخص واحد . وطلبت من الطعام ما راقنى لأن العاملة كانت تجيد الإنجليزية ويسهل معها التفاهم ..

ولما فرغت من الطعام ، ودفعت الحساب ، وارتديت معطفى وملفعتى وتحركت إلى الصالة الطويلة .. ووجدت إعلانًا جذابًا عن معرض ألف ليلة وليلة الذى جئت من أجله .. ووجدت اسمى وصورتى مع صور الرسامين المتقدمين بعروضهم ولوحاتهم .. ووقفت طويلاً أمام هذا الإعلان فقد سرنى وأبهج قلبى . وحمدت الله الذى ساقنى إلى هذا المتجر الكبير فى اليوم الأول من وصولى . لأرى هذا وأسرّ به .

ورجعت إلى الفندق وأنا أشعر بمرارة الوحدة وكآبتها . ولكن سماعى الموسيقى الكلاسيكية من الراديو الموضوع بجانب فراشى أراح نفسى فنمت نوماً عميقاً .. واستيقظت فى الساعة التى يقدم فيها الإفطار فى صالة الفندق ..

وفى الساعة التاسعة صباحاً رأيت عربة تقف أمام الفندق وينزل منها ثلاث فتيات صبايا وفى عمر واحد بزى واحد . وقلت فى نفسى لقد بدأ النزلاء يهلون .. كما يهل القمر بعد ظلمة طويلة . ولكنى أصبت بحسرة عندما عرفت أنهن من العاملات فى شركة التنظيف الخاصة بالفندق . وأنهن جئن لتنظيف الغرف .. وكل صباح يجئن لهذا العمل ، ومعهن معداتهن الكهربائية .

ورأيت أن أتغذى فى المطعم الذى تناولت فيه طعام العشاء بالأمس .. لأرى صورتى ولوحات ألف ليلة وليلة المعلقة هناك مرة أخرى .

واتخذت طريقى إلى الخارج ، وفيما أنا أسلم المفتاح لموظفة الاستقبال فى الفندق ناولتنى بطاقة . وكانت دعوة لحضور حفل تكريم أحد الفنانين .

وأدركت أن السيدة صاحبة المطبعة التى ستطبع ألف ليلة وليلة باللغات الأجنبية هى التى أرسلت لى البطاقة بعد أن اتصلت بها تليفونياً بالأمس ، وعرفتها بالفندق الذى نزلت فيه .

وكانت الحفلة فى الساعة السادسة مساء .. فهم يبكرون فى موعد الحفلات .. والبطاقة تشير إلى الشارع والمكان .. وقررت أن أركب تاكسياً يوصلنى إليه دون حاجة إلى سؤال . ولكنى عندما قدمت البطاقة لموظفة الاستقبال قالت لى إن المكان قريب جداً إلى درجة أنى أستطيع مشاهدته من هنا .. لو خلينا البنايات .. فبضع خطوات على رصيف الفندق .. ثم دورة إلى الشمال ومثلها على نفس الطوار توصلنى إلى المنزل ٢٦ .

ووقفت على الرصيف أقرع جرس الباب المغلق . والمنازل كلها فى الدانمرك مغلقة الأبواب دائمًا فى النهار والليل . ليس اتقاء للصوص ولكن هذه هى عادتهم .

وأطلت عينان من الدور الرابع ، وفتح لى الباب ودخلت وصعدت السلالم إلى الدور الأول ثم الثانى ، وأنا أتصور أنى أخطأت الطريق ، فليس هذا مكان حفلات تقام .. فلا حركة ولا ضجيج .. ثم وجدت علاقات المعاطف فى زاوية من الباب فخلعت معطفى وكوفيتى وأثناء هذا أقبل فوج فيه سيدة شاهدتنى وحدى .. وتبادلنا النظرات طويلاً وشجعنى ذلك على سؤالها :

– أتعرفين الإنجليزية .. يا سيدتى .. ؟

– نعم ..

بنعومة وابتسامة ..

– هل هذا مكان تكريم الفنان فيلى VILLY أم أنا أخطأت العنوان .. ؟

– إنه هو تمامًا .. وتفضل بالدخول من الباب .

وكانت قد خلعت معطفها ودثارها وبدت متألقة فياضة الحركة جذابة الملامح وفى عينيها نعاس وصحو يترجرجان كالزئبق .

وحدثتنى أن اسمى تردد وهم يكتبون عناوين البطاقات وصورتى عندهم فى المطبعة ، وأن السيدة صاحبة المطبعة هى التى أصرت على دعوتى لحفلة التكريم هذه لأعرف الرسامين المشهورين فى هذه البلاد . وأختلط بهم فى مدة إقامتى القصيرة .. وأنها بعد عرض كل الرسومات التى أرسلت إليها .. اختارت رسمى لأنى الوحيد من بين الرسامين

جميعًا الذى عرف كيف يبرز روح «شهر زاد» فى اللوحة ويصور كل ما فيها من ذكاء وجمال وفطنة .. وهناك من رسم لوحات جميلة ومطابقة من الشرق العربى .. ولكنهم لم يبلغوا برسوماتهم مستوى فنى .. فرسمى مميز وسرت به السيدة صاحبة المطبعة كثيرًا .

وشكرت السيدة مرافقتى لكل هذا الإطراء ..

وتحولنا إلى المائدة الطويلة فى وسط القاعة .. وقد رصت عليها زجاجات النبيذ والبيرة وعصير البرتقال والليمون .. وفاكهة كثيرة .. وأنواع مختلفة من المكسرات ..

وكانت السيدة مرافقتى قد لازمتنى لحظات ثم استأذنت .. ولما وقف من يتكلم عن الفنان المكرم .. عادت إلى جانبى تشرح لى مضمون الكلام .. لأن المتحدث كان يتكلم بلغة البلاد .. وأشاد بالفنان المسافر وعدد مواهبه وجوانب عبقريته .

ثم أقبلنا على الطعام والشراب وشربت كثيرًا من النبيذ الأحمر والأبيض وشربت السيدة مثلى حتى لاحظت أثر ذلك فى وهج عينيها وأخذ المدعوون فى الانصراف ..

وسألتنى السيدة :

– ما الذى شاهدته فى المدينة منذ وصلت ؟

– لا شىء له قيمة فى الواقع ..

– إذن سنتجول معًا .. وأمامى ساعتان أخصصهما لك .. وقد اختارتنى مدام كارين لأكون دليلتك فى الأيام التى ستقضيها هنا .. وأرجو ألا تبتئس لهذا .. !!

– أبتئس يا سيدتى . كيف يكون هذا ؟ إنى أرقص من الفرح .

– إذن سنقوم بجولة معاً .. والمدينة ساهرة فى الليل وكلها أنوار ..

وقمنا بجولة فى وسط المدينة وكانت المحلات قد أغلقت أبوابها ولكنها ظلت مضاءة تعرض بضاعتها من وراء الزجاج . وكان سكون الشارع وقلة العابرين يجعلاك تستمتع بالمشاهدة وتشعر بالراحة .

وصلنا إلى مقهى صغير هادئ يقدم الفطير والقهوة والشاى .. واخترنا مائدة فى الداخل .. وشربت القهوة وشربت مثلى .. وحكيت لها باقتضاب السبب الذى جعلنى أسافر .. وكان يمكن أن أكتفى بالبريد بعد أن أرسلت اللوحات .. ولكنى رأيت أن أستغنى عن البريد كلية وأحضر بشخصى لأرى مدينة جميلة من دول الشمال .. يسمونها باريس الصغرى .. ومن رأى باريس الكبرى لابد أن يرى باريس الصغرى .. ! ثم أحيى هذه السيدة التى فكرت فى طبع قصة عربية على هذه الصورة الجميلة .

وقالت مرافقتى بعد سماعها حكاية سفرى :

– إن السيدة كارين Karen معجبة بالشرق العربى منذ صباها .. وكانت بمصر والكثير من بلاد الشرق .. ورجعت فى آخر جولة تحمل نسخة إنجليزية قديمة نادرة من ألف ليلة فى يدها .. وبعدها فكرت فى طبعها فى مطبعتها .. وقالت إن القصة عربية ويجب أن يرسم لوحاتها العرب . لأنهم أعرف الناس ببيئتهم وأشخاصهم . وأعلنت فى الصحف وفى المعاهد العليا للفنون وكان من نتيجة الإعلان وجودك هنا .

– قد لا تعرفين يا سيدتى أن هذه القصة العربية الفذة والعديمة النظير فى كل ما كتب من قصص والتى بلغت شهرتها كل آفاق الدنيا .. هذه القصة لا نعرف ولا نتحقق من مؤلفها حتى الآن !

وهذه القصة هى التى فتحت الآفاق أمام الكثير من كتاب الغرب .. فكتب بوكاشيو الإيطالى الديكاميرون .

وكتبت مرجريت نافار الفرنسية «الهيتاميرون» كما تأثر بها «لامرتين» «وجوته» . وكل من كتب من شعراء وكتاب الغرب عن الشرق .. فهى التى ألهبت مشاعرهم وفتحت أمامهم آفاق الخيال .

– لقد شوقتنى لقراءتها .. ولكن سأنتظر حتى أقرأ القصة التى فيها لوحاتك ..

– شكرًا لكل هذا العطف ..

ونظرت فى الساعة ثم قالت ..

– سنتقابل غداً بعد الساعة السادسة لنذهب إلى المطبعة .. وسأتلفن لك فى الفندق قبلها .

– هل أطمع فى أن نتقابل قبل ذلك لنتغذى معًا ؟

– إنى أعمل حتى الساعة السادسة مساء .. ويصعب على مقابلتك قبل ذلك ..

– إذن نتعشى ..

– لا بأس من هذا ..

وسررت جداً لموافقتها .. ورافقتها إلى محطة القطار الذى ستركبه إلى بيتها ويقع فى ريف كوبنهاجن .

* * *

والتقيت بمرافقتى فى المقهى الصغير الذى تحت محل فروك جار froijar ثم ركبنا إلى المطبعة بعد أن أعلمنا السيدة «كارين» .. بقدومنا وسرت بنا ورحبت .. وأرتنا الماكينات وعدد الطباعة الحديثة وعرضت على أجمل مطبوعاتها ..

وقالت وهى تبتسم :

– وسيكون ألف ليلة وليلة .. أجمل وأروع من كل هذه الكتب ..

– بالطبع سيكون هكذا ..

– وقد فكرت أخيراً فى طبعة عربية فى لندن .. وستكون لوحاتك فى هذه الطبعة أيضاً ..

– إن هذا سيجعلنى أشعر بسعادة لا حد لها ..

وجلسنا نشرب الشاى فى مكتبها الصغير الأنيق .. وقالت وهى تشير إلى مجموعة من الصور فوق المكتب – هذا جدى .. وهذا والدى .. وهذا ابنى «أنجر» الذى يعمل معى الآن .. وهم جميعاً الذين أسسوا المطبعة .

– من دواعى السرور أن تحتفظى بمكانتهم وصورهم هنا .

وقدمت لى كهدية بعض الروايات والقصص لكتاب من السويد والنرويج والدانمرك .. سلمى لاجرلوف .. أوجست استرندبرج .. هرمان بانج .. ألكسندر كيلاند .. أبسن .. وكلها من طبعتها باللغة الإنجليزية .

ولما تناولت اللفة .

قالت برقة :

– لن تحمل شيئًا يا سيد «مختار» وتدور به فى المدينة .. سأرسل الكتب إلى الفندق .

وشكرتها وخرجنا أنا ومرافقتى السيدة «كوانا» لنتجول قليلاً .. ثم نذهب إلى مطعم للعشاء كما اتفقنا من قبل .. وكانت قد هيأت نفسها لهذه الجولة الليلية فى أجمل ما ترتديه الأنثى فى المساء .. معطف سنجابى أنيق يضم جسمها ويبرز تقاطيعه ووشاح من الصوف دار على عنقها وزادها جمالاً وفتنة .

وتعشينا فى المطعم الذى فوق المتجر .. والذى عرفته من قبل ..

وقالت بعذوبة :

– لقد عرفت أجمل وأرخص المطاعم بسرعة .. ومن أول يوم ..

– كان ذلك مصادفة .. محض صدفة .. والبيرة جيدة هنا ..

– نعم جيدة .. وستجعلنا نأكل كثيراً .. !

وضحكنا وسألتنى :

– كم من الزمن أخذت منك هذه اللوحات .. ؟

– قد أكون كاذباً إذا قلت إنها استغرقت سنة .. الواقع أنها استغرقت منى أقل من ذلك .. ورسمت بعد تفرغ ورغبة .. وكنت قد قرأت القصة .. واختلطت بمشاعرى ودمى .. ولذلك كان الرسم سهلاً بعد ذلك .. رغم مشاغل الحياة والسعى وراء لقمة العيش .

– بالطبع نحن لا نستطيع أن نتفرغ كلية .. كما فعل من كان قبلنا .. مشاغل الحياة كثيرة .

– انظرى وفكرى بعمق فى الرسام الذى التصق بكنيسة روما سنين وسنين ليرسم على سقفها أروع ما رسم فنان فى الوجود .. وفى الذى وهو يرسم «الموناليزا» جاء لها بفرقة موسيقية تعزف لها أجمل

الألحان .. ليظل طابع الهدوء والسكون مرتسمين على وجه الفتاة وهو يرسم . إننا لا نستطيع الآن أن نكون مثلهم .. لم يكن دماغ الفنان مشغولاً فى ذلك الوقت بالقنبلة النووية والهيدروجينية .. ودمار الحروب ، كان ذهنه متفرغًا لعمله تمامًا .. كان يرسم فى سكون وتأمل وبسطة فى العيش .

- وأظن أنهم جميعًا ولدوا فى سنين مقاربة وجاءوا فى عصر واحد .. عصر الأساتذة ..

- أجل فمشيل أنجلو على ما أذكر ولد سنة ١٤٧٥ وهو الذى رسم سقف كنيسة روما .. وخلق الدنيا .. تصورى كيف كان تفكيره .. عندما فكر فى خلق الدنيا .. وفى آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة وطردا من الجنة .

- منتهى الهدوء والسكينة للنفس وهى ممسكة بالفرشاة ..

- ثم رافائيل ١٤٨٣ وروبنز ١٥٣٦ .. جيل العباقرة والأساتذة كما ذكرت . وفى زماننا ظهر واحد فلتة بيكاسو ولكنه فلتة لن تتكرر . ونحن الآن نعمل وكلنا يسعى لغرض أسمى .. ولإسعاد البشرية .. ولكن هل تحس البشرية بعملنا .. وما نلاقيه من صعاب .. أبدًا أبدًا .

وقالت «جوانا» معقبة .. !

- والذى يجنى الثمر من تعب الفنان وكده .. هو غيره وأنت تعرف هذا أكثر منى .

- إن نظرة التحول طرأت على الفنون جميعًا .. تبعًا لصخب الحياة وضجيجها .. موسيقى الجاز .. أفلام رعاة البقر .. قنابل ومتفجرات الحروب ودخانها .. تلوثت العقول .. وانمحى صفاء الذهن .. وبعد التأمل الطويل .. وركن الناس إلى السرعة .. السرعة .. والجرى بكل ما يملكون من طاقة وراء صخب الحياة .

عفواً لقد أثقلت عليك . من كل هذه الخطب فمعذرة .

– أبداً أحب أن أرى على وجهك هذه الحماسة للفنون .

– سأريك شيئًا جميلاً سررت به من قبل وشاهدته مصادفة هنا ..

– ما هو ؟

– لوحات من ألف ليلة وليلة معلقة فى صالة المتجر .

– هذا من نشاط مدام «كارين» إنها نشطة جداً فى الإعلان . ولولا الإعلان ما جئت أنت إلى هنا .. !

– وسترين صورتى وبعضًا من لوحاتى .. ونحن فى الطريق إلى الصالة .

ورأت السرور على وجهى فابتسمت ونزلنا بالمصعد إلى الطريق وودعتها فى القطار الذاهبة به إلى بيتها .

* * *

وفى الصباح التالى اتصلت بى تليفونياً فى الفندق .

وقالت برقة :

– سنتقابل اليوم فى السادسة والنصف مساء بعد انتهاء عملى .. وسنتعشى معًا .. وأنا صاحبة الدعوة !

– وأقبل بسرور .. !

– سيكون اللقاء فى المقهى الصغير الذى شربنا فيه القهوة بالأمس .

– سأكون هناك قبل الموعد بساعة !

وتعشينا أنا «وجوانا» فى مطعم اختارته هى .. وشربنا مع الطعام الكثير من البيرة .. وخرجنا نتجول فى المدينة .. وأصبحنا نخرج من ميدان إلى ميدان .. ومن شارع إلى شارع .. وأنا أقول لها ..

– ألا تشعرين بالتعب .. ألا نركب سيارة ؟

– أبدًا أحب أن أريك أجمل ما فى المدينة فى الليل .

وكنا نتجه إلى الميناء . ووجدنا ملهى طالعنا منه السكون .

فهبطنا إليه . واتخذنا زاوية ركنية .. وطلبنا النبيذ وجلسنا نشرب .. ونستمتع بالموسيقى والرقص .. ثم أقبل فوج من البحارة وكنا فى ظهر الميناء .. فدخلوا الملهى وأخذوا يشربون ويعربدون .. وكانوا من أجناس مختلفة من الإنجليز ومن بحارة الشمال .. وكنت أود أن نخرج من المكان بمجرد دخولهم ولكنى خشيت أن تتصور أنى خفت منهم .. فبقينا كما كنا ..

وكان همهم كله الرقص والغناء بصوت كريه .

وأقبل بحار تجاه مائدتنا وقال بأدب :

– هل تسمح لى السيدة برقصة ..

ورددت أنا على الفور قبل أن أعطيها الفرصة للرد بالقبول أو الرفض ..

– السيدة لا تعرف الرقص ..

– أتوجد سيدة أوروبية لا تعرف الرقص ؟

باستغراب شديد ..

– أجل توجد وأرجو أن تنصرف .

وهم بأن يمسك السيدة من ذراعـها .. فلكمـتـه بجـمـع يدى فـذهب يترنح وسقط على مائدة مجاورة وشعرت بلكمة على صدغي ولم أر من فعلها .

وتكهرب الموقف وجاء اثنان من عمـال الملهى فـوقـفـا بيننا وبين من تحرك من البحارة ، وكان صاحب الملهى قد طلب البوليس فدخل سريعًا .

وقالت بسرعة :

– لنخرج .

فقلت لها :

– سنخرج ولكن ليس فى حركة الهارب أو الجبان .

– أعجب لموقفك وأنت الغريب .. !

وبعد دقائق أمـسكت بيدها وخـرجنا .. فإذا بالمطر يتـسـاقط بغزارة والريح تعصف ولم نكن مستعدين بملابسنا للمطر فقلت لها :

– إن الفندق على بعـد خطوات من هـنـا .. وهـو أحـسن مكان يـأوينا .. حتى ينقشع المطر .

فلم ترد واتجهنا إلى الفندق مسرعين .

ولم ينفعنا الجلوس فى البهو لأن مـعـاطفنا كـانت مبللة .. فـصـعـدنا إلى غرفتى وخلعنا مـعطفينا ووضـعناهما على المناشف الكـهربائية المعدة للفوط ليجفا من الماء ..

وكان صدارهـا الصـوفى الذى تحت المعطف قد أصـابه البلل أيضـًا ، ولكنى خـجلت أن أقول لهـا اخلعيه ليجف وإلا سـيـصـيـبك البرد والزكام وأكون أنا السبب . وتحـسـسـتـه بيدها ثم أبقته كمـا كان . ولعلها راودت نفسها على خلعه ثم عدلت .

وقالت وعلى وجهها الأسى :

– كيف حدث كل هذا ؟ إنى أتعجب .. ؟

– إن بلدكم هادئ وجـمـيل .. وأهله بسطاء ومن أطيب الناس وأحسنهم خلقًا .. ولكن المتاعب تأتيكم دومًا من الغرباء عنكم ..

– هذا حق .. والخنزير الذى لكمك لم أره .. وإلا لكنت .. وإلا لكنت ..

ونظرت إليها وهى منفعلة .. وأحببتها فى هذه اللحظة كما لم يحب رجل امرأة فى حياته .. وشعرت بالخجل لكل ما حدث ..

وقلت وأنا أنظر إلى عينيها :

سنشرب .. عندى كونياك .. هنا ..

لقد شربنا كثيراً .. يا مختار ..

ولنشرب أكثر .. لتتقى البرد وأنت خارجة .. ولننسى ما حدث .

لقد كنت السبب فى إحراجك الليلة ..

كيف تفكر هكذا يا مختار .. وأنت الغريب عن البلد . ولا تعرف فى أى ملهى كنا وأخذنا نشرب ..

وقالت وقد تضرج وجهها :

– هل كانت شهر زاد جميلة إلى هذا الحد الذى رسمته فى اللوحة ؟

أعتقد هذا بعد كل ما قرأته عنها .. وأنها كانت أجمل من كل رسم ..

– وذكية .. ؟

– جداً .. ذكاء مفرط .. انظرى كيف كانت تختار الجمل .. وكيف كانت تتوقف عند جملة بعينها .. بعد أن يبلغ شهريار مداه من التشوق واللهفة إلى سماع باقى القصة .. فى هذه اللحظة كانت تتوقف عن السرد .. وتتركه يتمرغ فى شوقه إلى الليالى التالية ..

– لقد رسمتها وأنت تحبها إذن .. ؟

– أجل .. وستحبينها أنت أكثر منى .. إذا قرأت القصة ..

وحدث شىء جعلنا نقطع الحديث .. فقد أخذ الدم يتساقط من أنفي .. حدث هذا فجأة .. وحدث من دفء الغرفة والشراب .. وكان الدم قد حبسه البرد الشديد فى الخارج ولكنه انطلق الآن ..

ودخلت الحمام أغسل الدم . ودخلت ورائى ..

وقالت بلوعة :

– أفكر فى الطبيب بسرعة .. والطبيب هنا لا يوجد إلا فى المستشفى ..

– لا داعى لطبيب أو مستشفى .. الدم سينقطع حالاً بالماء البارد وأمسكت بالفوطة وبللتها بالماء وأخذت أمسح الدم .. وتناولت الفوطة من يدى .. وحركة كفها بنعومة ..

فقلت لها وأنا شاعر بالراحة .. ؟ !

– هذه أول أنامل لأنثى تمسح آلامى وأشعر بها فى حياتى ..

– كيف هذا .. وزوجتك .. ؟

– تزوجت مرة واحدة .. وفشلت .. وعدلت عن الزواج كلية بعد هذه التجربة ..

فليس عندى من الأعصاب ما يحتمل ترويض الأنثى .. أنا قلق ولا أثبت على حال ..

– أنت فنان .. ولوحاتك تعبر عن الصبر الطويل وليس القلق ..

– ولكنى كنت قلقًا وعصبيًا معها فاعذرينى ..

– وجهك بملامحه يبدو عليه الهدوء وسكينة النفس .. ولكن من عينيك يطل الحزن .. وأدركت هذا من الصورة التى بعثتها إلينا مع لوحتك . فما سبب هذا الحزن ؟ ..

– أشعر فى أعماقى بالتعاسة .. والقلق ..

– هذا ما يشعر به كل فنان .. فلا تروع نفسك ..

– ولكنى مروع .. وأخاف دائمًا من شىء مجهول لا أعرف متى يأتى .. !!

– لا تجعلنى أضحك .. أنت فى رونق شبابك .. وهذه حالة مرضية فأبعدها عن راسك ..

– ولكنها موجودة .. فما حيلتى .. !

– انظر انقطع الدم تمامًا ..

– سأقبل اليد التى مسحت عليه .. وكانت السبب ..

وقبلت يدها وعينيها .. وضممتها إلى صدرى ورحنا فى عناق طويل .. غبنا فيه عن الغرفة . والفندق والزمان والمكان بل عن الوجود كله .

* * *

وارتدت ملابسها التى جفت وأكملت زينتها وتهيأت للرواح .. وكانت تود أن تذهب وحدها إلى قطار الضواحي الذى سيحملها بيتها .. ولكنى أصررت على مرافقتها ..

وخرجنا والليل متجل وفى قمة جماله وصحوه .. كما تتجلى العروس .. والمدينة ساكنة وأنوارها تتلألأ .. ودخلنا المحطة وكانت خالية إلا بالقليل من الركاب .. فقد قارب الليل أن ينتصف .. ورأينا رجلاً يترنح تحت الرصيف والجو أخذ يثلج .. ونظرت إليه وقالت بمكر ..

– هل كانت شهر زاد سكرى الليلة فى الفندق .. ؟

– أبداً .. ولا كان شهريار سكرانًا .. !

– وما حدث .. ؟ !

– لابد من حدوثه ..

وارتسم على وجهها حنان لم أر مثله على وجه أنثى ..

وسمعنا صوت القطار داخل المحطة .. فقالت :

– أقبل القطار .. وسأريك طريقة قطع التذكرة ..

وأخذت ترينى الطريقة فى الآلة الأتوماتيكية المخصصة للتذاكر ..

وقلت لها :

– إننى من الغباء بحيث يصعب على التعلم من أول مرة ..

– سأكرر الطريقة ..

– وتخسرين نقوداً ..

- لا يهم ..

- أو أحسن أن أركب من غير تذكرة .. ويغرمنى الكومسارى .. بدلاً من كل هذا التعب ..

- لن يغرمك الكمسارى ..

- لماذا .. ؟

- لأنه يعرف إنك فنان .. ومهذب .. ووجهك ضاحك .. !!

- وقبلت يدها .. ودخلت القطار .

* * *

وفى الصباح عرفت الطريق إلى المحطة وركبت نفس القطار .

واستقبلتنى جوانا على المحطة التى فيها بيتها .. وكان اليوم من أيام الأحد وهو عطلة .. فتحركت بحريتها وأرتنى الريف .. ببهجته وجماله وأزهاره وحدائقه ومزارعه الصغيرة .. وفيلاته الخضراء .. من طابقين بسقوفها المحدودبة ، والثلج يغطيها والبرد يلفها والعصافير تزقزق فى أركانها .. والطرق كلها بيضاء كندف القطن ..

وبعد جولة طويلة بين الفيللات والثلج يتساقط والشمس غائبة .. شربنا الشاى وأكلنا الفطير فى شرفتها المطلة على المزارع ..

وقالت :

- سنقوم بجولة أخرى بعد أن يخف سقوط الثلج .. وسأريك كلية الفنون .. وسترى هناك لوحات الشباب من كل أجناس الأرض .. وستمر بها وتعجب بهذه المواهب المتفتحة للحياة ..

– يسعدنى هذا ..

– وسنتغدى هنا ..

– ونتغدى هنا .. !

فابتسمت واكتسى وجهها بلون الأرجوان .. لموافقتى السريعة .

وقالت وهى تنهض وعلى وجهها البشر ..

– إنك حتى هذه اللحظة .. لم تر زوجى .. فتعال لأقدمك إليه ..

وتحركت وراءها إلى الدور الأول من الفيلا ..

وفى قاعة جميلة زينت بالكتب واللوحات والتماثيل الصغيرة .. قادتنى إلى ركن خفيف الضوء ..

وقالت برقة :

– سلم على زوجى ..

وكان الرجل يجلس بكامل هندامه على كرسى متحرك ..

وشعرت بيدى وأنا أحاول مدها إليه كأنها تحمل أطناناً من الحديد المحمى .. وعجزت عن تحريكها ..

وهبت العاصفة بكل ثقلها فجأة ..

وانحنيت وقبلت رأسه ..

وأدركت هى ما حل بى .. فأدارت رأسها وغالبت عبراتها .. وخرجت مسرعة من الغرفة .. وجلست بجوار الرجل وأنا مشلول الذراع صامت أخرس والدنيا تدور بكل ثقلها وأوزارها وتحط على صدرى .

ليلة فى طوكيو

قال الكاتب الأمريكى توماس وولف .. إذا أردت أن تعرف «نيويورك» فعش فى باريس ، وفى هذا القول اجتمعت كل الحقيقة .. من المدائن والناس ..

وأردت أنا (والقياس مع الفارق بينى وبين الروائى العظيم) .. أن أعرف القاهرة فعشت فى «طوكيو» .. وحرام أن تظلم القاهرة فى هذه الأيام ، لأنها تمر بمحنة سوء الإدارة .. ومن هذه النازلة تتفرع جميع المساوىء .. سقطت بعض العمارات العالية فى القاهرة ، والذى شيد البناء ساقط . وكل من كان له اتصال بهذا العمل ساقط .. سقطت هذه العمارات ، ولكن لم تسقط الأهرامات التى شيدت منذ آلاف السنين لم يسقط منها حجر واحد .. ولم تسقط قلعة صلاح الدين .. ولم يسقط القضاء العالى .. سيظل شامخًا لأنه فخر مصر .. ورمز مصر الحضارة ، وحصن مصر الأمين .

حرام أن تقارنها بطوكيو مع التشابه الكبير فى عدد السكان .. وعدد الرءوس التى تتحرك فى الشوارع والميادين .. حرام على قاهرة المعز الشامخة بنيلها العظيم .. وبكل مآذنها ، وقبابها .. وبحجة أنوارها .. حرام أن تقارنها بطوكيو لأن قاهرة المعز .. غشاوة فى هذه الأيام .. وبعد أن تنجلى هذه الغشاوة .. قارن ما شئت وقارن .

التقيت بالطبيب اليابانى تاشيو فى مدينة «هانشو» بالصين فى المستشفى الضخم الذى يعالج جميع المرضى بغير عقاقير .. وتحدثنا عن فعل الطبيعة فى جسم الإنسان .. وعن الأفذاذ من الأطباء الذين برزوا فى هذا المجال .. ولما علم بإعزازى «بأكفادن» قربنى إليه أكثر ، ودعانى إلى زيارته فى المستشفى الذى يعمل فيه بمدينة «طوكيو» ..

ووجدته فى انتظارى على باب المستشفى .. ومعه طبيب فى مقتبل العمر فى مثل سنى ، خصصه ليتجول معى فى أرجاء المستشفى لأنه فى يوم راحته ويتقن الإنجليزية ..

وطالعنى وأنا داخل إلى أجنحة المستشفى السكوت المطبق ، ودقة النظام ، واستعمال كل وسائل العلم فى كل خطوة .. ومراعاة خبايا النفس البشرية ومتطلباتها ، فالإضاءة مختلفة فى كل جناح .. وكذلك المرضة والطبيبة .. فهن مختلفات فى الزى والسلوك ودرجة الجمال ..

وقال لى الطبيب المرافق بعد جولة استغرقت ساعة :

– حدثنى الدكتور تاشيو .. برغبتك فى تحليل الدم ..

– نعم .. وأرجو هذا ..

ودخلنا فى جناح طويل بلون البنفسج كل ما فيه يلمع .. وقدمنى المرافق إلى طبيبة شابة ..

وخلعت معطفى الأبيض المعقم وجاكتتى وقميصى .. وأسلمت لها ذراعى . فقالت برقة :

سنأخذ الدم مرتين .. وبين كل مرة زمن ..

ولاحظت وهى تمسك براحتى أن ظفر الإصبع السبابة .. مهروس ..

فقالت وهى منكسة رأسها :

– هناك ظفر جديد ينمو مكان هذا .. انظر ..

فقلت وأنا مأخوذ بعظمة الخالق !

– سبحان الخلاق العظيم .. إننا بكل علمنا وتقدمنا فى الطب والجراحة ، والفلك والدوران حول الأرض والصعود إلى القمر .. لا نستطيع أن نخلق مثل هذا الظفر .. وهو أضأل شىء فى جسم الإنسان ..

- هذا حق .. فلماذا يشمخ الإنسان بأنفه ويتكبر !!

وقالت وهى تضم ذراعى دون أن تنظر إلى وجهى :

- وحدك فى طوكيو .. ؟

- نعم ..

- أين تقيم .. ؟

- فى دايتشى ..

- رائع .. هناك الفتيات الجميلات يعملن فى كل الطوابق .. !

- ولكنهن ينصرفن فى الليل .. بعد العاشرة !

- ويعدن لإيقاظك فى الصباح .. فغيابهن قصير .. !

- ولكنى مشغول بعملى إلى درجة تفقدنى كل تسلية ..

- مهما يكن عملك .. ولكن خسارة أن تكون بطوكيو .. ولا ترى قصر الإمبراطور .. ولا ترى «جنزا» فى الليل .. ولا تزور «فوجى» ..

- زرت هذا كله فى المرة السابقة ..

- إذن فقد جئت إلى هنا من قبل .. ؟

- نعم ..

- لا شك أنك تحب المدينة .. وإلا ما كررت الزيارة ..

وابتسمت بوداعة .. ووضعت عينة الدم مع بطاقة صغيرة باسمى وسنى فى طاقة مستديرة .. ونزل كل شىء بشريط كهربائى إلى المعمل .. وجاءت فتاة أخرى أصرت على أن تساعدنى فى لبس ما خلعته من ملابسى .. وقادتنى إلى حيث يوجد الدكتور .. تاشيو ..

وفى مكتب الدكتور تاشيو .. قال لى ..

– سنشاهد معًا .. بعد ربع ساعة عملية تدليك للقلب فى الجناح ٢١ .. وسيقوم الدكتور هيكامو بعملية فى الكلية .. ويمكنك أن تشاهد هذه العملية على شاشة التليفزيون ..

– قد أكتفى بعملية تدليك القلب .. لأن عملية الكلية لا يتسع لها وقتى ..

– كما تحب .. ويمكنك الاكتفاء بعملية الإعداد للعملية الثانية ، وترى كيف تجهز الغرفة ، وفى هذا فائدة كبيرة لك ..

– شكرًا عظيمًا .. يا دكتور لكل أريحيتك وسماحة نفسك واهتمامك ..

وكان مريض القلب سمينًا متوسط القامة ، ويبدو فى الخمسين من عمره .. ولم تكن ملامح وجهه يابانية وإن كان ينطقها ..

ومده على طاولة بيضاء بذراعين ، وهو شبه ميت ، وحوله ثلاثة من الأطباء .. وكانت الأنوار فى زرقة ، وفى الغرفة رائحة أشبه برائحة البنفسج .

ووقفت أنا والدكتور تاشيو فى جانب .. وبدأ مسح الجسم بخفة من يد طبيب شاب ، قصير القامة ، هادىء الملامح والطباع .. ثم قامت طبيبة بعملية تدليك القلب .. ببراعة وسرعة .. وخيل إلىّ من سرعة يدها أنها أخرجت مضخة القلب فى يدها ثم ردتها ..

وتنفس المريض وعادت عيناه تسبحان فى الزرقة .. وأمسكت ممرضة برسغه وجست نبضه ..

وخرجنا إلى بهو جميل التنسيق مزهر .. وقدمنى الدكتور تاشيو إلى الطبيبة التى قامت بالعملية فهنأتها بحرارة ..

وسألتها :

- هل كل العمليات ناجحة يا دكتورة .. ؟

- بالطبع .. إذا كانت للمريض رغبة فى الحياة !

- وإذا لم تكن عنده الرغبة .. ؟

- لا فائدة من الطب إطلاقًا ..

- ما أعظم حكمتك ..

وأصرت على أن تقدم لنا الشاى والفطير .. فى صالة المستشفى العلوية ..

ولاحظت من الوجوه التى التقيت بها فى المستشفى والشارع أن اليابانى سيظل يابانيًا فى خلقه وطباعه وسلوكه العام والخاص .. وأنه لا يختلط بأحد .. ولا يحب الاختلاط بالغريب .. وفى طبعه التفرد .. وهو جم التهذيب وسريع الابتكار والحركة ، كما أنه سريع التحول .. وهو ينحنى لك ثلاث مرات إذا أسمعته كلمة حلوة ..ولكن إذا أغضبته وأهنته طعنك بالسونكى .. والمرأة لا تزال تلبس الكومينو .. وتنحنى فى الشارع للسيدة الأكبر منها سنًا .. وتحمل طفلها على ظهرها بطريقة بديعة .. وتتحدث بصوت ناعم كزقزقة العصافير .. وكعاملة فى المتاجر الكبرى ، والفنادق ، والمطاعم ، وقاعات الشاى تسيل رقة وعذوبة .. وكأنها تخرجت فى مدرسة أعدتها لذلك العمل ..

وتمشى الوجى فى الطريق .. يعنى بخطوات قصيرة .. كظاهرة مميزة على النعومة والرقة ، وهما من متطلبات الأنثى ..

ولكنك تشاهد إلى جانب هذه من تلبس الزى الأوربى الخالص .. وتقود السيارة بسرعة ١٠٠ كيلو فى الساعة .. والجيل الحديث كله من النساء والرجال يتحدث الإنجليزية .. أما كبار السن فندر منهم من يعرفها .. إلا إذا كان يشتغل بالتدريس ومن أساتذة الجامعات .

وشكرت الدكتور تاشيو .. واستأذنت فى الانصراف ..

فقال لى الدكتور :

– أتعرف الطريق إلى الفندق .. ؟

– نعم .. لقد جئت وحدى ..

– إذا اختلطت عليك المعالم فى الليل .. نستطيع أن نرافقك ..

– شكراً .. طوكيو ليست غريبة علىّ .. أعرفها كما أعرف القاهرة .. وسأركب المترو .. وسينزلنى فى شمباسى ..

– نعم .. المترو أحسن من التاكسى .. لأن المسافة طويلة ..

وسلمت على الجميع .. واتخذت الطريق إلى المترو .. والليل زحف وخيم .. وسماء طوكيو تموج بالبالونات الزرقاء والحمراء والصفراء ، وهى تتلألأ وتسطع فى كل مكان .. وأينما ترفع رأسك تشاهدها تتراقص .

لم تتغير طوكيو عما شاهدته منذ سنوات .. سوى أن العمارات الحديثة انطلقت إلى عنان السماء .. وكثر هذا فى قلب طوكيو .. ولا تزال فى أطراف المدينة المنازل الخشبية القديمة من طابقين ومن طابق واحد .. وهنا يبرز الكومينو فى الطريق والبيت .. وبعد أجمل اجتماع على شرب الشاى ..

المستشفى يقع فى حى هادىء وعلى طريق جانبى ، ولكن لما خرجت منه إلى الطريق العام شعرت بحركة المرور السريعة .. كان المارة يتحركون بسرعة عجيبة ويهبطون من الأفاريز إلى الأنفاق ..

ونزلت درجـات قليلـة إلى نفـق المترو .. ولم يكن فى المحطة أكثر من عشرة أشخاص من الرجال والنساء .. وعللت ذلك بكثرة القطارات التى تمر .

وركبت أول قطارقادم .. ويبدو أنه أحدث القطر التى سيروها على الخط .. فقد كان متأنقًا متألقا وفخمًا .. ومقاعد العربة من القطيفة الزرقاء ، صفت فى صفين .. المقعد المفرد .. ومن هو على شكل كنبة طويلة .. فاخترت المفرد .. ولم يشعر بدخولى الركاب .. لانشغالهم بحالهم .. وللسكون المطبق على العربة .. وفى المحطة التالية ركبت جماعة امتلأت بهم المماشى .. وما جلسوا حتى عاد السكون .. وبرز راكب واحد من بين ركاب العربة جميعًا .. أحس بوجوده كافة الركاب .. فقد تمدد على كنبة طويلة شغلها وحده .. ومد حذاءه فى وجه الركاب جميعًا .. وبدأ يهذى بصوت عال .. وبكلمات غير مفهومة .. كان فى أقصى حالات السكر .. ويرتدى بنطلونًا غامقًا وصدارًا من الصوف فى لونه .. وكان فى قامة اليابانيين .. ولكنه ممتلىء الجسم بادى العضلات كأنه صب فى قالب صبًا ، وخرج على هذا الطراز المتماسك .

وظل يهذى والعينان تقدحان بالشرر وفى جلسته وكلامه وقاحة .. وعجبت لمقابلته بالصمت والسكوت من الجالسين حوله .. وليس من طباع اليابانى الجبن ولا الاستكانة .. فهو أشجع خلق الله .. ويهزأ بالموت ، والحياة عنده رخيصة ، ويستهين بنفسه فى لحظات كدرت عليه الحياة وضاق بها ..

شاهدت مثل هذه العربة وهذا المخمور فى فيلم أمريكى .. وقابله الجالسون فى العربة الأمريكية بالصمت الأخرس الذى طال .. ودعا إلى الضجر والنفور والتقزز .. ثم تحرك جندى معوق فى العربة وأسكت هذا المخمور إلى الأبد .

فهل يحدث مثل هذا الآن في العربة اليابانية التي أركبها .. ؟ حدث أن قال المخمور الياباني كلامًا أضحك فتاة كانت تجلس إلى مقعد بجانب مقعدي .. فلانت ملامحي لضحكتها .. وضحكت مثلها ..

وانتصب المخمور وهو لا يكاد يتماسك واتجه إلينا وفي عينيه يقدح الشرر الضاري ويبرز الجنون الأعمى ..

وقبل أن يصل إلى الفتاة .. أدركته يد قوية من جالس طرحته أرضًا ..

وكان القطار في هذه اللحظة يهدىء من سرعته وهو داخل المحطة ، وعندما فتح الباب وتوقف القطار طرح اثنان من الركاب بالمخمور وألقياه على الرصيف .

حدث كل هذا في خطف البرق وسرعة عجيبة حتى إن نصف ركاب العربة لم يشعروا بالذي جرى ..

وتحرك المترو .. وبدت الأنوار القوية تلمع في الشوارع وفي سقف العربة ، والكل في سكون .. وخفت من هذا السكون .. وخشيت أن يكون هذا القطار من الطراز الذي يتحرك من غير سائق .. فأنا منذ ركبت لم أر وجه سائق ولا سحنة كمساري ..واستقر رأيي على النزول في أول محطة يقف فيها القطار ..

ونزلت والليل من حولي كله ضياء ، والجو رائع منعش .. والبالونات تسبح في السماء من كل الألوان وكل الأحجام ..

ولزمت الرصيف الطويل متجهًا إلى الوجهة التي أتصور فيها الفندق .. وكلما قابلني عابر سألته عن الفندق ، وجدته بالمصادفة لا يعرف الإنجليزية .. وتكرر ذلك وأنا أسير في اتجاه واحد ثم أصبحت أدور

وألف وحدى .. وأصبحت المفرد تحت البالونات .. فهل خلت المدينة التى يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين من سكانها ومن البوليس .. وهل قادتنى قدماى إلى ضاحية ساكنة جامدة مهجورة من ضواحي طوكيو .. وأنا لا أدرى .. ؟

وشعرت بالخوف يشل حركتى .. وفى مثل خطف البرق لمحت عربة متوسطة من عربات السياحة اليابانية التى يعمل مثلها فى المطار .. فاستوقفتها صارخًا بالإنجليزية .. فوقفت وسألت عن الفندق ..

فقال الراكب الذى بجوار السائق :

- انزل واركب المترو .. خمس محطات .. !

وشكرته وأنا شاعر بالغيظ ..

واستأنفت السير وأنا أقول لنفسى ما أشد حماقة الإنسان .. لماذا لا أركب تاكسيًا واتخلص من هذا الضيق .. والمسافة ليست بالبعد الذى أتصوره فالبالونات لا تزال تتموج فوق رأسى والبالونات كلها فى قلب «جنزا» والفندق فى طرف من جنزا .. فلماذا الهلع .. ؟

وتخطيت الشارع وقد عاد إلى قلبى وبصرى الهدى .. لأشير إلى أول تاكسى يمر .. وفيما أنا أهم بذلك لمحت ضوءًا صغيرًا من لافتة تشير إلى «نزل» . لافتة بالإنجليزية مضاءة بحروف صغيرة جدًا تتجاوزها العينان فى الليل .. ولكنى قرأتها بقلبى وبصيرتى ..

واتجهت إليها وقلبى يزداد وجيبه لشعور لا أعرف كنهه ..

وطالعنى وأنا أجتاز ممر الحديقة المعشب ، بسكون جامد ، حتى تصورت أن ليس بالنزل أحد .. ووجدت على كرسى بجانب الباب المغلق

شيخًا يابانيًا .. أفسح لى الطريق بعد أن قرع جرس الباب ، وأدركت من زيه وعمله أنه خفير المنزل ..

وخلعت حذائى ومشيت تحت الأنوار الخافتة على طرقة مفروشة بالحصر المضفر الملون .. إلى حيث توجد فتاة فى لباس الكومينو .. جالسة على حشية مزركشة ، وبجانبها طاولة ورفوف من الخشب ..

وحييتها وأنا أقدم لها جواز السفر .. صامتًا .. مستغربًا .. محدقًا فى وجهها ببلاهة .. أخذتنى الرجفة ..

وسمعتها تقول بإنجليزية سليمة :

– لا داعى لجواز السفر .. هنا نزل خاص ويكفى أن تدون اسمك وعنوانك فى هذه البطاقة .

ودونت ما طلبته وأنا أحدق فى وجهها وأزداد تحديقًا واستغرابًا .. وسلمتها البطاقة .. فقرأت ما فيها ..

وقالت .. بصوت عال ..

– طبيب ..

– وكأنها سرت لأنى طبيب .. وأحمل هذه المهنة ..

وقلت :

– نعم .. وأنا قادم من مستشفى الدكتور تاشيو .. ورأيت هناك طبيبة تشبهك تمامًا .. شبهًا يدير العقل .. بل أنت فى الواقع .. التى كانت هناك .. وهذا ما جعلنى فى شبه ذهول ..

– أنا .. أنا ما برحت هذا المكان .. وعملى فى هذا المنزل فقط ..

– ألك توأم .. ؟

– أبدًا ..

وضحكت من قلب طروب ..

وقلت وأنا أضحك أيضًا ..

– إن هذا لعجيب وهذه ليلة العجائب ..

– أهذه أول ليلة لك فى طوكيو .. ؟

– لا .. نزلت طوكيو منذ عشرة أيام .. وأقيم فى فندق دايتشى .. وحدث أن ضللت الطريق إلى الفندق ، وأنا راجع وحدى من المستشفى .. وهداني قلبى إلى هذا المكان .. لأقضى فيه ليلة .. بدلاً من الدوران بالتاكسى ..

– جميل أن تستدل علينا فى الليل دون دليل .. لأن اللافتة الخاصة بالنزل مكتوبة بحروف دقيقة لا تكاد تقرأ .. !

– هذا من حسن حظى ..

– والآن .. سأريك الغرفة ..

وسارت أمامى فى طرقة مستديرة مزينة بالأصص والورود والزخارف اليابانية .. وعلى الجانبين حجرات منها الصغير والكبير ، تقسم بأبواب خشبية متحركة حسب الرغبة ..

وقالت تشير إلى غرفة وصلنا إلى بابها :

– اخترت لك هذه الغرفة ..

وأرتنى غرفة جميلة مفروشة بالحصر والحشيات والمساند .

– لا توجد أسرة فى نزلنا وستنام على الحصير !

– لقد نمت على الحصير مع جدتى فوق سطح بيتنا .. أعوامًا طويلة .. فهى ليست غريبة على مثلى ..

ونظرت بتأمل ثم قالت :

- سأجيء لك بقميص .. فليس معك بيجامة !

- شكراً .. وأستطيع أن أنام بالبنطلون والقميص .

وأزاحت باباً جانبياً صغيراً .. وهي تقول بزهو لأنها تعرف أن ما تقوله يسر كل مسافر ..

- والحمام داخل الغرفة ..

ورأيت المناشف والمرايا والنظافة والأناقة ..

وسألتها وأنا أحدق في البانيو الصغير الحجم .. وهو معد قطعاً للمرأة قبل الرجل ..

- سمعت أن المرأة اليابانية تستحم كثيراً .. فكم مرة في اليوم ..

- ثلاث وأربع مرات .. !

- ثلاث وأربع مرات .. وليس عندكن النيل مثلنا .. وإذا وجد النيل فكم مرة .. ؟

- ولا مرة .. !!

وضحكنا كثيراً .. لأن هذا ما يحدث فعلاً ..

وسألت : أتعشيت .. ؟

- أبداً ..

- سنعد لك العشاء ..

ودلتني على مائدة الطعام ..

– أتحب أن تتعشى الآن .. ؟

– الأحسن بعد ساعة .. لأنى أكلت فطيراً مع الشاى فى المستشفى ..

– كما تحب ..

وتحركنا فى الطريق إلى الأمام .. لترينى حديقة «النزل» ومرت بنا عاملة وهى تمسح عبراتها .. وسألتها مرافقتى بالإنجليزية :

– ما الخبر .. ؟

فرددت هذه اليابانية وهى تشهق حابسة عبراتها .. واجتازتنا مسرعة فسألت مرافقتى فى خجل :

– ما الذى جرى .. ؟

– فتاة من العاملات فى النزل ماتت .. مع أن الطبيب كان عندها منذ ساعة وطمأنها .

– ما الذى كانت تشكو منه .. ؟

– أشياء كثيرة .. عدة أمراض ..

– أمتزوجة .. ؟

– أبداً .

– هل أستطيع أن أراها .. ؟

سأقول لماما ..

وماما .. صاحبة النزل لأن بابا ميت ..

وجلسنا فى البهو على الحشيات .. وجاءت ماما سريعًا ، تلبس البياض فى بياض .. لأنها بيضاء فى قمة رأسها وما لفته حول عنقها ..

وتدثرت به حتى قدميها .. وطالعتنى بوجهها السمين ، وبعينيها الساكنتين .. وكان معها شيخ يابانى جلس صامتًا يحدق فى وجهى .. ولم يقدمه لى أحد .. فأدركت إنه من أقربائهن ..

ولم يطل الصمت .. حدثت الفتاة أمها برغبتى .. وتحركنا جميعًا إلى غرفة الميتة ..

ودخلت وهم حولى وركعت على الأرض بجانب الميتة .. لأنها كانت مطروحة على خشبة .. وتبدو صفراء ذابلة كأجمل الورود .

ورفعت رأسى وأشرت إلى النافذة .. وهم يتفرسون باستغراب وفضول .

ونظرت إلى عينى الميتة وحركت الجفن .. ورأيت فى الشعيرات الدقيقة للعين الحياة .. الحياة ..

وقلت لمن حولى بزهو :

– إنها لم تمت ..

وخرجت من الجموع الواقفة همهمة عالية ، وصرخة عفوية مكتومة ، مع كل ما هم عليه من تهذيب ورقىّ .

وتحولت سريعًا إلى الفتاة مرافقتى وقلت لها :

– استدعى طبيبها أو أى طبيب يابانى حالاً ..

– وأنت .. !!

– أنا لا أستطيع أن أزاول المهنة هنا .. من غير تصريح ..

– أرجوك يا دكتور «حسن» أن تنقذها .. لعنة الله على التصريح .. إن حياة هذه المسكينة على يديك ..

- سأشترك مع الطبيب الياباني عندما يجيء .. فلا تراعي ..

وكنت أعرف أن الطبيب في اليابان يأتي في زمن يقل عن ثلاث دقائق .. وأقل من هذا الزمن يأتي الإسعاف والبوليس .. ولذلك لم أشعر بالقلق على المريضة ولم يؤنبني ضميري .. لأني تركتها من غير علاج بعد أن عرفت أنها حية ..

وجاء طبيبها وقدموني له .. وحدثته على عجل .. وأصبحت أنا وهو والسيدة الكبيرة والفتاة مرافقتي داخل الغرفة وخرج الجميع وأغلقنا الباب .

وكشفت الفتاة عن صدر زميلتها .. وشعرت بالخجل وأنا أرى هذا الجمال الآسر .. سبحان من أعطى المرأة اليابانية كل هذه النعومة وهذه الأنوثة وهذه الفتنة وسلبها من الرجل .

وقفت خجلاً مبهوراً والفتاة تكشف فتنة الأنثى في منبع الأمومة والرضاعة والحنان .

كان الطبيب الياباني يرغب في إعطائها حقنة فاعترضت بأدب وقلت له :

- إنها الآن في حاجة سريعة إلى تدليك القلب أولاً .. وبعد ذلك تأتي الأدوية والحقن ..

وأخذ الطبيب بوجهة نظري وانحنى عليها وأخذ يدلك قلبها .. ونظرت المرافقة إلى ناحيتي .. فابتسمت وأدركت غرضها ..

وقلت للطبيب الياباني بأدب :

- هل تسمح لي بمساعدتك يا دكتور .. !

فتنحى جانبًا .. وركعت بجانب الميتة .. وحدقت فى عينيها .. ووضعت خدى على قلبها .. ولمست يداى صدرها .. وأخذت أدلك فى نعومة ودقة .. ولأول مرة أنسى نفسى وأضع فمى على فمها وأنفخ فيه بحرارة .. وشعرت بشرايين الحياة .

وفتحت المريضة عينيها بثقل .

وفى غمرة الفرح بنجاة الفتاة طوقنى الطبيب اليابانى وكل من كان فى داخل الغرفة .

وقلت للطبيب :

– إن هذه الخبرة تعلمتها منكم والدكتور تاشيو هو أستاذى وأنا فخور به كأستاذ .

وأحنى رأسه محييًا .. ورأيت أن يبقى هو بجانب المريضة ، ويعطيها ما يشاء من الأدوية .

وقادتنى المرافقة إلى غرفة الطعام .. وهى تطير من الفرحة ..

وجلست إلى طاولة مستديرة كالطبلية .. وحولى النقوش والزخارف على الجدران .. والتماثيل الخزفية فى الأركان ..

وكان الضوء خافتًا والقناديل تسبح فى زرقة القاعة .. والموسيقى اليابانية الخفيفة تذاع فى نغم رتيب يجلب النعاس .. فأحنيت رأسى وأسبلت عينى ..

وأفقت على رنة صحن وضع أمامى وفيه الفوطة المشبعة بالبخار .. فرفعت رأسى إلى وجه الفتاة التى وضعت الطبق .. وأحسست برعشة الفجاءة التى تهز كيان الجسم كله فى لحظة أسرع من خطف البرق ،

ومن رعشة الجفن ومن سريان التيار الكهربائى .. لحظة مباغتة سمعت لها دقات قلبى وكأنه المطرقة ، فى عنف دقه .. لحظة يذهب لمثلها العقل .. وكانت هى بقدر ما تلاقت أعيننا الأربع ، وحدقت واتسعت ، وارتجفت الأجفان بقدر ما غاب إنساف العين بعد ذلك من هول المفاجأة .

وجرت إلى البطاقات التى فى المدخل .. وأخرجت البطاقة الخاصة بالنزيل الجديد الذى وفد الليلة وقرأت الاسم .. وسألت الفتاة الموكلة بالبطاقات عن اسمى وجنسيتى للتأكيد .. فلما عرفت كل هذا وتيقنت منه عادت تحمل أطباق الطعام فى تباطؤ وجمود ، وكأن ما حدث لم يكن قد حدث .

وكنت أمسح بفوطة البخار وجهى وعينى وأشعر بما تفعله هذه الفوطة من راحة للأعصاب .

واشتقت إلى أن أسمع جرس صوتها بعد هذه الغيبة الطويلة .. وهل تغير كما تغير عودها فقد سمنت قليلاً وثقل خطوها .

وسألتها دون أن أرفع وجهى عن الأطباق :

- هل جنزا بعيدة عن هنا .. !

- بعيدة جداً .. أربعون دقيقة بالتاكسى ..

- وإذا مشيت .. ؟

- تصل صباح الأربعاء ..

وكنا فى يوم الاثنين .. فأدركت مداعبتها ..

وسألت بجفاء وهى تحرك أشياء على المائدة :

- وما الذى تريده من جنزا فى الساعة التاسعة ليلاً ..

- أريد أن أرى السفينة ..

- أية سفينة .. ؟

- السفينة الراسية على شط جنزا ..

- غرقت من سنين وتحطمت قمراتها ..

- وركابها .. ؟

- غرقوا جميعًا .. ونجا اثنان .. رجل وامرأة .. وقد طوح بهما الزمان .

- ولكنهما التقيا ..

- أبدًا أخلف الرجل وعده .. كالعادة .. وعاشت المرأة فى محنتها ولوعتها شبه مذهولة .. ثم تمالكت نفسها واستردت أنفاسها وأخذت تعمل فى كل مكان فى المطاعم والمحلات .. وأنساها العمل لوعتها وحبها القديم .. وهكذا تمر الأيام .

- قد يكون للرجل عذره .. وتكاليف السفر باهظة ..

- أبدًا .. يستطيع أن يعمل حمالاً فى باخرة .. ويأتى كما وعدها ..

- اعذريه لفقره .. لقد حاول بكل ما يملك من جهد أن يسافر كطالب إلى بكين أو هونج كونج .. ليكون قريبًا منها ، ولكنه فشل بعد جهود مضنية مرغت نفسه فى التراب .

- لا فائدة ترجى من الكلام الآن .. هل تريد شيئًا آخر .. ؟

- ستذهبين معى الليلة إلى جنزا ..

- أنا .. كيف تطلب من سيدة متزوجة هذا الطلب .. أنا زوجة وأم ..

وابيض وجهى وأطرقت .. زوجة وأم ..

الآن جاء لسع السياط ..

وأطرقت وأخذت استرجع شريط الذكريات ..

منذ سبع سنوات وفى مثل هذا الشهر .. شهر أكتوبر .. وقفت وحدى فى طرف .. جنزا .. بعد أن عبرت الكوبرى الصغير والقناة . واستدرت إلى يسار وكانت الساعة العاشرة ليلاً والجو صحواً لطيفًا .. لا تؤثر برودته على الواقف فى المكان يتأمل ما حوله حتى وإن طالت وقفته .

ولمحت على بعد خطوات منى بناية على شكل سفينة عائمة على الأرض .. وقناديل قمراتها تتوهج بلون فسفورى جذاب .. وساريتها مرفوعة تناطح البالونات المتأرجحة فى الحى كله .

وفى وقفتى ، وأنا منبهر طارح ، وجدت من يسألنى :

– أتود أن تشاهد السفينة .. !

وأفقت على أنثى رقيقة تجاوزت فى وقفتها كتفى ..

وتأملت عينيها نصف المسبلتين ، وقوامها ولباسها الأوروبى البسيط من قطعتين جونلة وبلوزة .. لم تكن تلبس الكومينو ..

– وبكم المشاهدة .. ؟

– الساعة بألف (ين) .. فى القمرة ..

ولم أعقب .. وظل التفاعل النفسى والجذب والشد .. يعمل .. ويعمل بضراوة .. وسقط شىء علينا من سماء طوكيو أشبه بالبرد أو نتف الثلج .. فضحكنا ..

وظلت هى ممسكة بالحبل ..

- إذا لم يكن معك هذا المبلغ .. نستطيع أن نتمشى بعض الوقت .. المهم أن نبقى معًا ..

- ولماذا أتعبك بالمشى .. سندخل السفينة .

وفى الطابق الثانى احتوتنا قمرة ضيقة أشبه بقمرة البواخر .. وفيها كل أثاثها ومعداتها .. وشربنا النبيذ والساكى .. وتحدثنا عن القاهرة وطوكيو .. بحب وحماسة ..

وسألتنى :

- أين تقيم .. ؟

- فى دايتشى ..

- إنها على بعد خطوات من هنا .. سأكتفى بعملى الليلة فى السفينة وأخرج معك .. لنتجول فى جنزا ..

وشعرت بالسعادة تغمر قلبى .. وسرنا فى الليل الحالم فى حى الألف ملهى وألف .. حى كأنما رسمه ووضع له الخطوط .. فنان لا يجارى فى عبقريته ونبوغه .. ملاه زاهية بألوانها وقناديلها ورسومها .. فى صفوف تدور وتطول .. وكلما دارت تألقت إلى لون آخر .. أكثر جمالاً وأشد فتنة .. وعلى كل باب تقف فتاة فى حفل من الزينة والعطر .. والكومينو ينسحب إلى الأرض ..

وفى الداخل ترى صفًا من الفتيات اللابسات الأقنعة .. جالسات فى صمت أخرس تحت الضوء الشاحب .. يتفرسن فى كل داخل .. ومنهن مع كل ما فيها من رقة وعذرية وجمال .. من تقع فريسة سكير فظ يذيقها كل أنواع العذاب .. وتتحمله بصبر عجيب .. وتظل تعمل فى

المكان .. والسكير المتشرد يتردد ويختار .. عجبًا للدنيا بتصاريفها .. فلا يقع مثل هذا في جنزا وحدها ولا في طوكيو وحدها .. وإنما في كل مدينة يقع فيها ليل وملهى ..

بعد أن تجولنا أنا وفتاة السفينة في طرقات الملاهي وشبعنا من النظر .. اخترنا ملهى من طابقين لنأكل ونسمع في هدوء الموسيقى الخفيفة .

وجلسنا متجاورين إلى مائدة مستطيلة في نصفها زهرية .. وجاءت العاملة بالفوطتين المشبعتين بالبخار .. لكل واحدة في طبقه .. كأول ما يقدم للزبائن ..

وتناولت فوطتي .. وأخذت أمسح وجهها وأضغط على خديها وأنفها وهي تضحك مسبلة عينيها .. وساعدني على الاسترسال في العملية خلو المكان .. وفعلت هي بفوطتها في وجهي مثل ما فعلت ..

وخرجنا كأننا نسبح في الجو ..

وقلت لها :

– أين تقيمين .. سأوصلك إلى منزلك .. ؟

– سأذهب معك ..

وحاولت أن أقول شيئًا ..

– لا تفتح فمك ..

وانقطعت أسبوعًا كاملاً عن عملها في السفينة لتبقى معي . وتصاحبني في كل جولة ..

وفى يوم سفرى كان قلبى يتمزق وروحى ضاعت ..

وسافرت لأعود بعد شهور قليلة .. ولكنى عدت بعد سبع سنوات كاملة .. ويجمعنى القدر بها فى هذا النزل .. فى ليلة عجيبة بكل تصاريفها .. يجمعنا بعد أن طوح بنا الزمن ، وتصورنا أن الموت فرق بيننا .. وخيم اليأس الذى لارجاء بعده ..

ولكن ها هى الآن واقفة أمامى بلحمها ودمها وكل ما فيها من جمال ورقة .. واقفة فى هذا النزل وكأنه لم يحدث بيننا فراق ولا غيبة طويلة .. واقفة بكل أنوثتها .. ولكنها جامدة .

وذلك لأن العواطف المتأججة الصارخة أخرسها اليأس والزمن الطويل .. وكان اللقاء المفاجىء كأنه يمسح على جسد مريض طال مرضه وطالت بلواه .. بغير أمل فى الشفاء .

قالت بظل ابتسامة :

– تحدثت مع المدام وستذهب معك مس «آكى» إلى جنزا ..

– أريدك أنت وإلا فلا داعى لهذه الجولة .

– سأجعل المدام تتصل بزوجى وتستأذنه ..

– ما عمله .. ؟

– إنه موسيقى يعمل فى مسرح ميكامو .

لابد أن يكون زوجها عازفًا فنانًا شاعرى الطباع .. فمن كان فى مثل رقتها وطباعها لا يتحمل خشونة رجل آخر ..

– وابنك .. كبير .. ؟

- عمره ست سنوات ..

وأحسست بالأرض تدور ..

- أحب أن أراه ..

فى الصباح ستراه .. وهو يوزع جريدة أساهى قبل أن يذهب إلى المدرسة .

- أمعك صورة له .. !

- معى ... !

- أرينيها .. أرجوك ..

- أخاف أن يغمى عليك .. وأنت طبيب ..

وشعرت بالدنيا تدور فعلاً قبل أن أرى الصورة ..

الإنسـان

- أتتحدثين بالإنجليزية .. ؟

- أجل .. !

- وذاهبة إلى كوبنهاجن .. ؟

- لا .. إلى استوكهلم ..

وصمت «صبرى» وشعر بخيبة الأمل .. إذ كان يتمنى أن تكون من كوبنهاجن ليعرف منها بعض ما يجهله عن هذه المدينة الذاهب هو إليها لأول مرة . وبعد صمته الذى طال سمعها تقول فجأة :

- انظر إلى الثلج هل تراه من نافذتك .. ؟

- نعم أراه .

- إنه يغطى قمم الجمال .. إننا نطير الآن فوق هذه المنطقة .

واستدارت برأسها وأرته الموقع على الخريطة .

وابتسم «صبرى» من عادة الأجانب الذين يتحركون فى كل مكان وبيدهم الخرائط . ويحددون الموقع ، ويسيرون على هدى ما بأيديهم دون أن يسألوا أحداً أو يستعينوا بشخص . الاعتماد على النفس هو أبرز صفاتهم . وعجب لسرورها وانبهارها من منظر الثلوج فوق الجبال . فهو لم يكن أكثر من بياض . ولم يتقطع المنظر ويتشكل بأجسام بشرية وحيوانية .

ولم تتخلله الألوان التى تأخذ بلب المشاهد . كما رأى من قبل وهو يطير فوق جبال القوقاز .. ولكنه جاملها وارتضى به كمنظر يسره كما سرها .

وكانت جالسة فى الصف الذى أمامه . والمقعد الذى بجوارها خاليًا . كما كان المقعد المجاور له خاليًا . لأنهما فى المكان المخصص لغير المدخنين من ركاب الطائرة – وهم قلة – معظم المقاعد خالية . إلا من نفر قليل بين السيدات ووجد «صبرى» نفسه وحيداً بينهن .. واستراح أولاً لأنه يكره رائحة الدخان بدرجة فظيعة . ولكنه ما لبث أن شعر بوحدته بينهن .

كما وجد أن الحديث معهن لا يليق . ومعظمهن يسافرن مع أزواجهن فى جماعات .

ولما نهضت إلى مكان الصحف .. ثم عادت تحمل جريدة اليوم .. رآها فى جولتها لا تحادث شخصاً ممن كان يتصور أنهم معها .. وبدأ بينهما الحديث ثم انقطع . ولما طوت الصحيفة سألها ليتأكد :

– هل أنت مع هذه الجماعة ؟

– لا .. إننى وحيدة ..

– وكنت فى سياحة بمصر ..

– لا .. أنا قادمة من جنوب إفريقيا .. زوجى فى السفارة هناك .. وقضيت معه شهراً .. اعتدت هذا كل عام ..

– وشاهدت القاهرة .. ؟

– بالطبع مرتين فى الذهاب والإياب ..

– وسرتك .. ؟

– جداً ..

وظن أنها تجامل .. فما الذى يسر فى القاهرة فى هذه الأيام .. مع الزحام الشديد ورداءة المواصلات . وسوء خلق سائقى التاكسى .. وقلة الفنادق .. ؟

ولكن لشعوره الوطنى لم يعقب على كلامها . بل أخذ يمتدح لها القاهرة ويشيد بمعالمها الجميلة . ويتحدث عن القلعة والأهرامات .. والآثار الإسلامية والفرعونية ومنظر النيل فى الليل عندما تسقط عليه القناديل أو يسقط ضوء القمر . ويموج بالتبر المذاب ..

وأخذته الشفقة عليها وهى تحادثه . لأنها كانت تلوى عنقها وتستدير برأسها كلما وجهت إليه سؤالاً أو سمعت رأيه فى جواب أو سؤال .

وكان يود أن يقول لها :

– هل تسمحين لى بالجلوس بجانبك .. ؟

ولكنه لم ير أن يقيد حريتها .. ورأى أن من الخير لهما أن يكونا هكذا .. وكان فى استدارة عنقها ما يشوقه .. لأنه يرى لون عينيها من غير أن تسدد إليه سهام لحظها . كما يرى جمال وجهها فى غير مواجهة صريحة .

ولما وقفت ، وهى ذاهبة تأتى بالصحيفة رآها فى بنطلون أزرق وصدار طويل غامق . وكانت قد خلعت الجاكتة الصوفية بمجرد جلوسها على المقعد .

ورأى بجوارها على المقعد كتابين إنجليزيين .. واستعار واحداً منهما فقلبه فى يده قليلاً ثم رده إليها شاكراً ..

وسألته :

– ألا تحب أن تقرأ .. ؟

– حسبته رواية .. والأحسن من كل قراءة أن أشاهد الوجوه الجديدة ..

– بالطبع هذا أحسن .. أذاهب إلى استوكهلم .. ؟

– إلى كوبنهاجن ..

– لأول مرة ..

– لأول مرة ..

وأشفقت على شيخوخته وعلى سفره وحده .. فسألته :

– ألك .. أقرباء هناك ؟

– لا .. !

– وينتظرك شخص ؟

– أجل هناك برقية ..

وكان واثقًا من ذلك فقالها بقلب مطمئن .

– أما أنا فذاهبة إلى استوكهلم كما حدثتك .. اشتقت لأولادى ..

– أعندك أولاد .. ؟

– أجل .. ولدان وبنت ..

– ولكنك صغيرة على الثلاثة .. وصغيرة حتى على الواحد ..

ورأى وجهها يزداد حمرة وعينيها تتكسران ولا يدرى أكان ذلك خجلاً ، أم سروراً لكلماته .

واستدارت وقالت زامة شفتيها :

– هذا ما حدث .. وكما قلت .. أسافر إلى زوجى كل عام .. وأقضى هناك شهراً .. أما الأولاد ففى استوكهلم فى بيتهم وفى مكانهم من الدراسة ..

– أتذهبين إلى زوجك فى العام المقبل ..

– لا أدرى كل وقت بظروفه ..

– إذا عزمت .. فيسرنى أن أكون دليلك فى القاهرة فى الذهاب والعودة . وكتب لها اسمه وعنوانه ..

– وسرها ذلك للغاية وكتب بأناقة وخط جميل اسمها وعنوانها فى استوكهلم .

وقدم طعام الغداء .. وكان الركاب الأجانب يشربون البيرة والنبيذ .. إلا «كاترينا» .. فإنها اكتفت مثله بالقهوة وعصير البرتقال .

ورآها بعد الطعام تسترخى على المقعد ، وتغلق عينيها . وتود أن تنام . وتركها صبرى على حالها دون سؤال .. وحاول هو أن يسترخى مثلها ، ولكنه لم يستطع .. كان هناك ما يخيفه . ويسيطر على مشاعره .. حتى قبل أن يركب الطائرة .. ويستعد للسفر وهو ما قرأه فى الصحف عن البرد والعواصف فى أوربا .. فى هذا الوقت من السنة .. ثلوج وعواصف ورياح .. فما الذى يفعله هو فى شيخوخته ليقاوم هذا كله ؟ لا شىء على التحديد . ولكن حبه للسفر جعله ينسى هذا . ويتركه وراء ظهره .. فإن ما سيقع سيقع ..

ولما وقف المضيف فى الطائرة عندما أخذت فى الإقلاع يشرح كيف يلبس القميص الواقى من الغرق . لو قدر وسقطت الطائرة فى المحيط .

ارتسمت بسمة على محياه .. بسمة سخرية مرة .. وكذلك والمضيفة تشرح كيف يلبس القناع عندما ينقص الأكسجين .. كانت السخرية هنا أشد .

هل بعد السقوط فى المحيط .. وتخلخل الهواء حاجة للقميص والقناع .. وهل سيكون هناك نظام وترتيب .

ويد تتحرك فى هدوء لتضع هذا وذاك .. إنها القارعة وما أدراك ما القارعة !!

وكانت الطائرة من أكبر ما ركب من طائرات فى حياته .. ولكنها اهتزت مرتين ، ودخلت فى منخفض جوى شديد .

وصحت «كاترينا» وحولت وجهها إليه .

فقال :

- اقتربنا .

- حقًا .. ونظرت إلى ساعتها .. وقالت برقة :

- لا .. بقى ساعة ..

- أأطلب لك قهوة .. ؟

- لا .. شكراً شربت منها الكفاية ..

- أما أنا فسأشربها .. لأظل متنبهاً وأنا فى المدينة الجديدة ..

وحدقت فى وجهه .. وأطالت التحديق .. كأنها تستغرب سفره وحده فى هذه السن العالية .. وسألته :

- ألا تعرف أحداً فى كوبنهاجن .. خلاف الشخص الذى ينتظرك ؟

- أبداً .. لا أعرف أحداً .. والشخص الذى ينتظرنى لا أعرفه .. !

- لا عليك .. لا عليك ..

قالتها لتطمئنه .. مع أن القلق كان يطل من عينيها الزرقاوين ..

* * *

وشعرا بأنهما يقتربان من كوبنهاجن . ومن مهبط الطائرات .

فأخرج أقراصاً من الحلوى ، وقدم لها العلبة ..

فقالت بنعومة :

– شكراً .. سآخذ قرصاً .. وإن كنت لا أحب أن تحرك المرأة فكيها هكذا طويلاً ..

وابتسم لرقة مشاعرها ..

ولمست الطائرة بعجلاتها الأرض .. وهم الركاب إلى لفاتهم فى الدواليب التى فوق رؤوسهم .. وأخرجت هى لفات صغيرة ..

وقال لها :

– ليس معى سوى حقيبة صغيرة .. وسأعاونك فى الحمل ..

– ليس معى ما يستحق المساعدة وسترى .. ووضعت كل ما معها فى كيس واحد بلباقة وكياسة .

وخرجا من الطائرة .

وقالت كاترينا وهى باسمة :

– سر بجانبى .. وسأدلك على الطريق .. وسنجتاز ثمانى عشرة قاعة .

وراقب هذه الكتابة .. إنها تشير إلى الخروج ..

وقال لنفسه :

– ثمانى عشرة قاعة .. يا للهول .. مالى والسفر وحدى .. وإذا لم تكن هذه الجميلة معى .. فكيف أتحرك .. !

ونظر إلى عينيها .. وقال وكأنه يودعها بأحلى ما فى نفسه من كلمات :

– وهل كل النساء فى السويد فى مثل جمالك ورقتك ..

– وهل ..

وقالت كلمات تدل على سرعة خاطر ، وذكاء مفرط ..

ثم سألته :

– كم عمرك ؟

– سبعون سنة ..

– فى سن والدى .. والدى له نفس العمر .. والآن ..

– والآن .. !

– والآن .. فى هذه الصالة سنفترق .. إننى مجرد عابرة .. ولا أستطيع أن أمضى معك خطوة أخرى .. سأنضم إلى هؤلاء العابرين الذين كانوا معى فى الطائرة وفى طريقهم إلى استوكهلم .. أما أنت فادخل من هذا الباب .. وسيقودك إلى الخارج ..

ووقفا .. وأمسك بيدها .. وشعر بها تضغط .. تعبيراً عن الشكر .

وظل سادراً فى موقفه .. ثم اتجه إلى حيث وجهته ..

ووقف أمام بوليس الجوازات .. فإذا به أمام ضابط مرح بلحية كثة تغطى عارضيه .. لا يكف لحظة عن الضحك والنكات بكل ما يعرفه من لغات ..

وأزاح الضابط الضاحك عن نفسه ما كان يقلقه . فخرج إلى القاعدة الفسيحة ينتظر حقيبته .. وجاءت الحقائب .

فأخذ حقيبته وعاد إلى مقعده .

وتطلع إلى الوجوه الباسمة التى حوله .. والتى تضحك فى مرح ..

تطلع إلى هذه الوجوه فلم ير وجهًا واحداً عابسًا .. يحمل همًا .. أو يعانى من مشكلة .. ولا سحنة منقبضة ولا منكسرة .. ولا نفساً مرهقة .

وجوه ضاحكة مستبشرة تفيض بالحيوية والنشاط .

وكان فى قاعة مكيفة فلم يشعر بالبرد فى الخارج .. ولكنه شعر به عندما وقف يتطلع إلى المنتظرين فى الخارج .. وكانوا يلوحون لمن فى الداخل بأيديهم .

ووقف وهو يلوح بيده .. ليدل بنفسه على من ينتظره .

ولكنه لم يشاهد أحداً يتبين منه هذه الصفة . فرجع إلى مكانه ..

ثم عاد يتطلع إلى الباب مرة أخرى ويشير بيده ..

وكانت التليفونات أمامه فى أكثر من موقع .. ولكن مع من يتكلم فى يوم السبت .. وبعد الظهر .. ولا أحد فى المكاتب فى هذه الساعة من النهار .

وعاد إليه القلق . هل يخرج وحده إلى مدينة لا يعرف فيها أحداً .

وأول شىء سيذهب إليه هو الفندق .. والفندق بمائة جنيه فى الليلة الواحدة وأكثر من مائة . فماذا يبقى له من النقود .

بعد ليلتين .. لن يجد حتى أجرة العودة بالطائرة .

كل الوجوه التى حوله ضاحكة وهو وحده المنقبض القلق .

وأضيئت الأنوار .. ووقف قرب الباب الخارجى يلوح بيده لآخر مرة .. فلم يرد على حركة يده أحد .

وشعر بالثقل والانقباض .. ولكنه قرر أن يخرج .. وأن يركب تاكسيًا .. وسائق التاكسي سيدله على أرخص فندق .. بعيدًا عن فنادق السياح .

وحمل حقيبته وخرج من الباب .. وبصر بها واقفة تنتظره .. رأى صاحبته ورفيقته في الطائرة .. كاترينا ..

وقالت له بصوت فيه بعض الأسى لحاله :

– لم تطاوعني نفسي على أن أتركك وحدك .. وقد شاهدت من بعيد ما أنت فيه من حيرة .. وأجلت السفر الليلة ..

وهم أن يقبل يدها ولكنه تماسك ..

وركبا سيارة إلى فندق عينته للسائق .

وكانت الأنوار تسطع والبرودة شديدة . والسماء على أشد ما تكون من زرقة وصفاء .. والثلوج مكومة على جانبي الطريق والمدينة في حلة سنجابية ببيوتها وطرقها .. وتكاد من فرط سكونها أن تكون خالية من أنفاس الحياة .

وأمام فندق صغير هادئ .. وقفت السيارة وأخرج السائق اللفائف والحقائب من السيارة . وأدخلها في قاعة الفندق .

وأمام موظف الاستقبال .. قالت هي قبل أن ينطق هو :

– غرفة .. بسرير .. واحد .. !

ودونت اسمها واسمه ووقف هو صامتًا .. وصعدا إلى الغرفة ..

ولاحظ الغرفة سريعًا بعينيه .. ووجدها أنيقة في كل أثاثها وصغيرة والحمام بداخلها .. وجاءت فتاة الفندق تدفع الحقائب .. ووضع صبري يده في جيبه ليخرج كرونات فقالت له كاترينا بعينها لا .. فرد يده ..

وجلسا قليلاً بعد أن خرجت الفتاة .. يتطلعان إلى ما حولهما .. وينظران من النافذة .. ويرقبان وضع الأشياء ..

ثم قال لها صبرى :

– سأنتظرك تحت ..

وكان يود أن يترك لها حرية تغيير ملابسها على انفراد .. فنظرت إلى الساعة وقالت :

– كما تحب .. وسأنزل بعد دقائق . وهبط بالمصعد إلى الدور الأول .. وجلس ينتظرها فى قاعة الانتظار .. ولاحظ الستائر مسدلة على النوافذ .. وكان يود أن ينتظرها ويعرف حالة الجو فى الخارج ..

وهبطت كاترينا ترتدى معطفًا ثقيلاً وحذاء عاليًا غطى جوربها وساقيها .. وقبعة غطت كل شعرها ..

وشربا القهوة .. وقالت :

– سنخرج وأريك المدينة فى الليل ..

وقال وهو يدير عينه فيما حوله :

– يبدو أن ليس فى هذا الفندق سوانا .

– إنه مخصص لك وحدك ..

وضحكت واستطردت :

– هذا الفندق من أجمل وأرخص فنادق المدينة وهو فى الشتاء دائمًا هكذا .. لأنه قريب على البحر .. البحر وراءنا على بعد خطوة وسنخرج إليه بعد جولة قصيرة فى المدينة .

– نطلب تاكسياً ..

– لا .. الأحسن أن نتحرك بأقدامنا ..

كان يعرف أنها تراعى حالته المالية ولم يكن سائحًا بغرضه .. ولكنه جاء ضيفًا وليس فى جيبه إلا القليل من المال وعلى هذا الوجه سافر .

ونهضت كاترينا وبعد أن لاحظته وراعت أنه تدثر تمامًا وغطى رأسه ، خرجا من الباب .. إلى البرد والليل .

وكانت الطرق خالية تقريبًا من المارة . وقد جرفت الثلوج وتلألأت الأنوار فى أعالى الطريق وفى الحوانيت المغلقة .. وشعر صبرى رغم البرد ولفح الهواء بالراحة . ولم يحاول أن يمسك بذراعها حتى بعد أن سارا أكثر من مائة خطوة وهو مبهور بكل ما حوله من جمال ..

وعند مفترق الطرق أمسكت هى بذراعه .. ولاحظ إشارة المرور .. من غير جنود فى كل مكان ولاحظ الهدوء والأمان المطلق . ولاحظ الجمال فى كل ما حوله .. والأناقة التامة والحيوية والنشاط عندما دخل فى قلب المدينة .. جرى الدم فى عروقه مثلهم وكان فى مثل نشاطهم .

وقالت له برقة :

– لماذا تجرى ؟

– لقد عدونى بسرعتهم ..

فضحكت ..

وأخذا يستعرضان واجهات الحوانيت وفكر فى أن يشترى لها هدية .. أجمل هدية قبل أن تتركه فى الغد .. وكان فى رأسها نفس التفكير .. هدية صغيرة له من قبل أن تفارقه . كانت تقف طويلاً أمام ربطات العنق ..

وكان يقف طويلاً أمام الإيشارب .. والقبعات وكل واحد منهما يعرف ما يدور في رأس الآخر ..

وكانت تقول له بعينيها :

– عندما تعود إلى القاهرة .. أرسل كل ما تبغيه وكل ما تحبه من هدايا ويكفى منك بطاقة بريد .. أما هنا .. فلا .. لا شيء رخيص .. الأسعار عالية في كل دول الشمال .

ووجدا مطعماً فقالت له :

– سنتعشى هنا بعد هذه الجولة .. لأن الفندق ليس فيه عشاء . فيه الإفطار فقط ..

– كما تحبين .. ولا رأي لي .. مادمت دليلي ..

– ربما تفضل الذهاب إلى ملهى ليلي .. وتشرب البيرة والنبيذ وترى كوبنهاجن .. وحدق في عينيها وهما تترقرقان في صفاء ..

وقال :

– معك أشعر بأنني أحتوي كل ما في الدنيا من جمال ..

وفاض وجهها بالسرور ..

– عندما تشعر بالجوع حدثني ..

واقتربا من مطعم آخر .. فقالت على الفور .

– سندخل هنا ..

ودخلا .

واختارت هى مائدة بالداخل ، وجاءت العاملة فحادثتها كاترينا ووضعت العاملة أمامها أدوات المائدة وزجاجتين من البيرة .. ونهضت كاترينا وقالت له :

– هل تأتى معى لتختار عشاءك .. أم اختاره لك ..

– أرضى باختيارك ..

واختارت له فى طبقه السمك .. والكبدة .. واللحم .. وسلطات كثيرة ..

ثم رجعت تختار لنفسها ..

وجعلهما البرد يأكلان كثيراً ..

وكانت تود أن تقاسمه فى ثمن الطعام ولكنه رفض ولاحظت أنه أعطى العاملة مبلغاً تعتبره كبيراً .. فسألته وهما يخرجان :

– هل أعطيتها كل هذا لأنها جميلة ؟

– يا سيدتى .. إنهن جميعاً جميلات .. ولكن لا أجد بينهن .. ولا فى الدنيا بأسرها فى مثل جمالك .. وأكرمتها لأنها كانت لطيفة معك ..

وفى طريق العودة إلى الفندق أمسكت بذراعه ولما صعدا إلى الغرفة .. بدأ يشعر بأنه ليس أهلاً لما يواجهه .. فهؤلاء الناس بسطاء ويأخذون الحياة بمثل ما فيهم من بساطة ، ولكنه هو عاش فى العقد .. فكيف يتخلص من كل هذه العقد .

وكان فى الغرفة مقعدان فجلسا عليهما وفتحت كاترينا الراديو على موسيقى هادئة .. وخلعت حذاءها الطويل .. وقالت له وكان لا يزال فى كامل ملابسه .

– هل تحب أن تنزل إلى الطابق الأول ونشاهد التليفزيون ؟

– لا .. الأحسن نستريح ..

– إذن اخلع معطفك ..

وفتحت له الدولاب وخلع المعطف والجاكتة .. وعاد ينظر إليها ويحدد لنفسه المكان الذى ستنام فيه .. سيضم المقعدين معاً .. ولكن بأى شىء سيتغطى .. وليس على السرير سوى غطاء واحد .. ملاية وبطانية ثقيلة .. هل يأخذ من فراشها ويكون السبب فى مرضها وقد تعبت من أجله وتحملت فى سبيله كل هذه المشقة .. وقرر أن يتغطى بالمعطف ..

وكان يود أن يسألها ما الذى كتبته بخطك فى دفتر الفندق .. ولكنه وجد فى مجرد السؤال حماقة ..

وسره جداً وجود الحمام فى الداخل .. فدخلت هى وغيرت ملابسها وخرجت ببيجامة صوفية بيضاء وكأنها من بنات الحور ..

ووضعت ملابسها فى الدولاب .. وقالت :

– هل تحب أن تأخذ حماماً .. إنه ينعشك ..

– اغتسلى أنت من تراب القاهرة أما أنا فقد تعودت عليه ..

– ليس فى القاهرة تراب .. بل نظافة وجمال فى كل مكان ..

وخجل من قولها لأنها تقول كل ذلك من أجله .. وانسابت كالطيف إلى الحمام وعاد ينظر من النافذة . وسمع صوت الدش الساخن فأدرك أنها تعرت واستسلمت للماء الدافىء .. وشعر باضطراب .

فلأول مرة يجتمع مع أنثى غريبة عنه دون سابق معرفة فى غرفة واحدة .

كان صوت الماء يقلقه . ويسبب له مشاعر صارخة .

وعاد بمشاعره وأدرك حس المرأة الريفية فى بلده .. التى لا تستحم قط حتى وزوجها فى البيت .. لابد أن يخلو البيت تماماً من كل أحد .. ثم تدخل بعدها إلى الحمام ..

وخرجت كاترينا تفرك شعرها وتدلكه وتنشفه .. ثم جلست إلى المرآة فحول هو وجهه إلى النافذة ..

وسألته :

- لماذا تستدير ؟

- يشوقنى منظر الليل وتساقط الثلوج ، والمرأة لا تحب أن ينظر إليها وهى تتزين ..

- ولكن أحب أن أرى وجهك ورائى وأنا جالسة هكذا .. وأرى فيه وجه والدى ..

ولسعته الكلمة على ما فيها من حقيقة .

فسألها :

- والدك فى استوكهلم ..

- أجل ..

- وتعيشين معه ..

وابتسمت وأجابت :

- لا ، من سن العشرين وأنا أعيش وحدى حتى قبل الزواج ، ومثل هذا يحدث للشاب فى دول الشمال .. وستجد هذا فى كوبنهاجن عندما

نتجول فيها غداً وتختلط بناسها .. كل بحياته المستقلة .. ولكن الحنين إلى الأسرة قد يعود أكثر مما تتصور ويقدر خيالك ، لقد رأيت فيك وجه والدى الذى ابتعد منذ عشرات السنين .. وشعرت نحوك بعاطفة لا تستطيع تفسيرها .. فهل تفسرها أنت .. ؟

وشحب لون وجهه وقال وهو يوليها ظهره :

– إنها مجرد شفقة .. وأرجو أن تظل إلى أن نفترق .. وسأظل أحتفظ لك بهذا الجميل ..

– هيا إلى الحمام ..

وخرج بعد قليل وقد أنعشته المياه الدافئة .. وكأنها غسلت أوضاره .. وطالعها بوجه ضاحك ..

وسمعا الموسيقى والغناء بالإنجليزية .. وتحدثا كثيراً عن أفذاذ الرجال فى العالم الذين خدموا الإنسانية فى كل مكان ..

وشعرا بالحاجة إلى النوم ..

وانتفضت كالعصفور وقالت وهى تشير إلى الفراش :

– أتحب أن تنام بالداخل أم بالخارج ؟

– لن أنام بالداخل ولا بالخارج .. سأنام على هذا المقعد .

– مستحيل هذا .. ستجعلنى قاعدة وجالسة هكذا إلى الصباح .. لماذا تتعبنى ؟

وظل فى مكانه يحاورها .. وأمسكت بيده وطاوعها وذهب وراءها وكانت تريد أن تنومه بالداخل .

ولكنه قال لها :

– دعيني في الخارج لأني أستيقظ مبكراً ولا أحب أن أزعجك في نومك وأنا أتحرك ..

ودخلت وانزلقت بخفة قبله وسحبته .. واسترخي على المخدة المحشوة بالريش .. وبخفة سحبت البطانية والملاءة عليهما معاً وأغلقت النور ..

وظلت تتحدث وهي نائمة ورد عليها ثم تناوم .. وشعر باضطراب شديد وهو بجوارها وملاصقاً لجسمها .. وخشي أن تشعر به وهو يرتعش .. فظل متماسكاً إلى أن أحس بأنها استغرقت في النوم .

فانسحب على مهل .. وتمدد على المقعدين وتغطى بالمعطف .. وكانت الغرفة دافئة فلم يشعر ببرد يجعله لا ينام .

* * *

ولما استيقظت وفتحت عينيها وجدته بكامل ملابسه .. فأسرعت إلى الحمام ..

ثم غادرا الفندق ..

وقالت له إنها ستسافر بالقطار إلى استوكهلم في المساء .. لتقضي النهار كله معه .. وقبل سفرها ستسلمه إلى زميلة لها في الجامعة .. وستذهب إليها في بيتها في الريف الملحق بالجامعة .. ومن هناك سيجد الفرصة لمشاهدة ضواحي كوبنهاجن .

واتصلت كاترينا بصديقتها انجلينا تليفونياً لتعلمها بمقدمهما بقطار الضواحي .. فقالت لها هذه إنها ستنتظرهما بسيارتها على المحطة .

وخرجا عن الفندق بالحقائب بعد دفع الحساب واستقلا تاكسياً إلى المحطة . وقالت تداعبه .. أمام آلة قطع التذاكر ..

– هل تعرف تشغيل الآلة ؟

– أجل ، كم كرونا إلى هناك ؟

– خل عنك القطار قادم ..

وقطعت التذكرة وأسرعا إلى القطار بالحقائب . وأجلسته بجانب النافذة ليرى جمال الضواحي وانطلق القطار كالسهم .. وحوله الفيلات الخضراء على الجانبين والأرض بياض في بياض .. وسقوف الفيلات مغطاة بالثلوج والطرق تموج برغاوى الصابون منازل صغيرة جداً بسقوف محدودبة من طابقين .. ثم من طابق واحد .. ولا أرجل حولها ولا حس إنسان في داخلها لكثرة تراكم الثلوج .

وفي الضاحية الهادئة وجدا صديقتها «إنجلينا» تنتظرهما في داخل المحطة ، ولم يظهر على وجهها الاستغراب وهي ترى الغريب بل رحبت وأدخلتهما في سيارتها الصغيرة التي تشبه في سوادها الخنفسة .. وحشرت الحقائب حشراً ولكن بنظام ، وزحفت بها على الثلج وهي تقول كأنها تسمع «صبري» .

– بهذه الخنفسة أذهب في الصيف إلى ألمانيا .. والنمسا وإيطاليا .. فلا تتصور أنها عاجزة عن السير .. إنها أحسن من كل السيارات الكبيرة .

– نرى هذا بوضوح ، وكل شيء يرجع لبراعتك في السواقة ..

– نعم .. نعم .. وضحكوا وبلغت فيلتها .. ولم يكن في الفيلة سواها .. وقدمت لهما الكعك والشاي وقالت :

– وبعد قليل سنذهب إلى المدرسة الملحقة بالجامعة ..لنشاهد رسوم الطلبة وأعمالهم فى الرسم والحفر وصنع التماثيل ..

وكانت السيدة «إنجلينا» فى سن «كاترينا» ولكنها أكثر منها سمنة وأقصر عوداً ، وكان وجهها أبيض مستديراً كوجوه الألمانيات ، وتبدو وهى فى سن الأربعين فى رشاقة وحيوية الفتيات فى سن العشرين .. وكان وجهها الضاحك يتأمل ويقرر فى لحظة واحدة .. فقد أدركت أن كاترينا وقعت على هذا الضيف فى سفرها وإن لم تعرف بعد أن الضيف مصرى وجاء فى مهمة علمية بحتة .

واجلستهما وراء شرفة زجاجية ليتمتعا بمنظر الثلج الساقط على الحقول ، وذهبت وعادت تقول :

– والآن سنذهب إلى مدرسة المواهب . الملحقة بالجامعة وأظنك لا تعرف أيهاالجنتلمان .. أن كاترينا رفيقتك فى السفر .. اشتغلت هنا كمدرسة سنتين متصلتين ثم تركتنا .. !

ولم يكن صبرى يعرف إلى هذه اللحظة أن كاترينا تشتغل مدرسة أو اشتغلت مدرسة .. وسرته هذه المعرفة فقد وقع على إنسانة مثقفة وحمد الله على أنه إلى هذه الساعة لم يقع بينهما ما يجعلها تسىء الظن به . واستطردت إنجلينا :

– وأرجو أن نجد العميد ليشرح لك كل شىء فى مدرسة المواهب .

ولم يجدوا العميد لأن اليوم كان يوم أحد .. ووجدوا الأستاذ هيرمينى أستاذ اللغة الإنجليزية .. وشعر صبرى برجفة عندما أهل عليهم هذا الأستاذ بوجهه ، شعر برجفة لم يشعر بمثلها وهو يلاقى إنساناً . وجه أبيض طويلاً . بلحية خفيفة .. وعينين خضراوين تبرقان .وتتحدثان بالطيبة والدماثة ولين الجانب .. والترحيب بكل إنسان .

تقدم الأستاذ «هيرميني» ودار معهم في الحجرات يشرح الرسوم والتماثيل التي يصنعها طلبة من كل أجناس الأرض يأتون إلى هذه المدرسة .. ويقيمون فيها داخلياً ليوسعوا من مداركهم ويطلقوا العنان لمواهبهم المحبوسة .دراسة حرة في الاجتماع وعلم النفس والفلسفة واللغات والرسم والحفر وصنع التماثيل ..

كان في الحائط وجوه مرسومة رسمها الطلبة أشبه بوجوه نيرون .. چانكيز خان .. هتلر .. موسليني ..

وأشار الأستاذ «هيرميني» إلى هذه الرسوم وقال وهو يشرح ويعلق :

– لماذا هؤلاء فقط .. ولماذا دار هؤلاء فقط في رؤوس الطلبة .. وأخرجوهم بهذه الصورة .. ولماذا لا يكون معهم كل طغاة البشرية ؟ كل من حاول من عصر نيرون تدمير البشرية وتلطيخ وجهها بالطين ، الذين ألقوا القنبلة الذرية والقنابل السامة على الشعوب الآمنة والذين عذبوا الأبرياء في السجون وهتكوا أعراض النساء . والذين سحقوا بجيوشهم ودباباتهم الأطفال الرضع .. والذين سمموا دم البشرية بحيلهم وخداعهم وعلقوا رجالها الأفذاذ في المشانق ليخلوا لهم الجو لتدمير الحياة .. لماذا اختار الطلبة هؤلاء فقط ؟ لا أدري .. واستدار الأستاذ «هيرميني» وسأل صبري :

– هل أعجبتك الرسوم والتماثيل ؟

– إنها تعبر عن مشاعر صادقة .. استفادت من الدراسة وأفادت .. مواهب انطلقت من عقالها ..

وظهر السرور على وجه الأستاذ هيرميني وقال :

– شر ما يصيب الإنسان هو ألا يجد متنفساً لموهبته .. وهنا جعلنا هذه المدرسة للتنفيس .. إننا لا نسجن عاطفة كما لا نحب أن نسجن إنساناً ..

إن البشرية تعذبت من الطغاة الذين دمروا نفس الإنسان .. بأى صورة من الصور إن هذا الشاب الذى لطخ هذا الوجه الذى نراه وشوهه يبحث فى نفسه عن آلة يدمر بها كل من يقف فى طريقه .. وقد وجد هذه الآلة فى رسم هذه الصورة البشعة .. واستراح بعدها ..

ودار بهم الأستاذ هيرمينى فى كل القاعات ثم قال :

– والآن سنذهب إلى المكتبة ونستريح ونشرب القهوة ..

وفى المكتبة رأى «صبرى» معظم أدباء العالم مرسومة بيد الطلبة .. جويس .. همنجواى .. دكنز .. أسكار وايلد .. دستويفسكى .. تولستوى .. جوته ..تشيكوف .. كريستيان أندرسون .. أوجست استرندبرج .. سلمى لاجرولوف .. وقال هيرمينى :

– هذا همنجواى فارس الكتاب فى الحلبة وأبلغ من كتب بالإنجليزية .. يسقط صريع الوساوس .. لأنه وجد أن حياته عبث فى عبث .. ورسالته لم تحقق شيئًا ابتغاه وسعى إليه بأظافره .. لقد اشترك فى الحروب ولمس وضار العالم بأصابعه العارية .. ولكنه لم يوقف حربًا ولم يستطع أن يدافع عن مظلوم .. إن العالم يحركه رجال السياسة حسب أطماعهم .. ولهذا انتهى بالانتحار كما رسمه الطلبة .

ودكنز الذى صور حوارى لندن وأزقتها وأعاد بكتاباته إليها النور والنظافة .. وصور بؤس أطفال الملاجىء ..انظر إليه .. لقد رسموه فى حانة قذرة يهذى .. وقد سقط القلم من يده .

وهذا أسكار وايلد المتألق فى هندامه وكلامه يخطب فى أمريكا الفن للفن .. ويخرج من السجن شريداً طريداً .. ليعيش فى باريس جائعًا معذبًا كما تراه الآن وكما رسمه الطلبة ..

واستدار الأستاذ إلى صبرى وسأله :

– هل قرأت يوليسيس .. لجويس ؟

– منذ سنوات ولكنها لا تنسى ..

– يقول «فورستر» وهو أستاذى الكبير عن هذه القصة :

– لقد لطخ جويس فى هذه الرواية وجه العالم بالوحل . رمى فى وجه العالم الأوحال .. ومسز «بلوم» المرأة الهلوك المتعطشة لكل رجل ولا ترد يد طالب هى فى نظره امرأة العصر ، وكذلك كان يلوم نفسه الشهوانى المتقلب ..

وغرضه من هذا هو تشويه وجه البشرية مادامت لم تسع إلى الخلاص من أوضارها ..

سقطت حضارتها وسقطت كل المظاهر البراقة فيها وكل ظواهر التقدم .. مادامت لا تستطيع أن تدافع عن إنسان مظلوم ، ولا تقف فى وجه مدمر طاغية حرب ، حرب لسبب ولغير سبب .. ودمار وجوع ..

وأضاء وجه الأستاذ «هيرمينى» وجه الإنسان وهو يشير إلى تولوستوى وديستويفسكى المرسومين على الحائط ..

– انظر إلى هذين ، لا يوجد من كتاب العالم من لاقى مصيرهما المحزن . إن ما سعى إليه هؤلاء وتسعى إليه البشرية هو خير الإنسان . ويجب أن نأخذ عظة من الذين دمروا الحياة .. ولا نعاود تدميرها ، إن الرجل الذى يذهب من السويد إلى أقصى الأرض ليعالج البشرية من مرض الجذام .. هو الذى نضع له التمثال .. وليس الذى يخترع القنبلة الذرية .. وقنبلة النيترون ويخترع التدمير ويقود الجيوش إلى الحروب .

وإننا لا نصفق للذى يضع قدمه على أرض القمر .. ولكنا نصفق للذى يغسل عن البشرية عارها .. من الجوع والبطالة وكل صنوف الدعارة التى يسببها الجوع .. إن حياة البشرية وسعادتها مرهونة بخيار رجالها .. إن هذا الكلب سيقتله البرد لو ترك هكذا فى الخارج كما تراه دون مأوى ودون دفء وكذلك المريض فى هذه الفيلات التى نشاهدها وكل جائع فى الأرض يجب أن نوجد له القوت أولاً قبل التباهى بركوب السحاب والوصول إلى الكواكب ووضع الأقدام والسير بها على سطح القمر ..

إن هذا كله مظاهرة تهريجية إلى عالم الكواكب وننسي الجوع والبطالة والتشرد فى كل مكان ونسعى إلى التفاخر ولا شىء غير التفاخر ، والله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما يعرف حماقة هؤلاء .

وأنت يا أستاذ صبرى كما علمت من كاترينا .. أستاذ لغة وتدرس للطلاب ، وقد سرنا هذا للغاية ونحن نقوم بنفس عملك ، ولكنا وقبل تعليمهم اللغة نعلمهم كيف يعيشون فى الحياة ويسعون إلى الخير لكل إنسان مهما تكن جنسيته وتكن صفاته .. ولنسأل أنفسنا بعد كل ساعة تمضى من عمرنا ، ما الذى فعلناه للبشرية لنخفف من آلامها وأرجو أن تسمحوا لى بالغياب لمدة ساعة سأزور فيها بعض الأصدقاء فى الفيلات المجاورة ، وبعدها سنجلس جميعًا لتناول الغداء ..

وتغدوا جميعًا فى قاعة الطعام وتغدى معهم هذا الإنسان الأستاذ هيرمينى .. بوجهه المشرق الضاحك الوضاء فى كل ساعة ..

* * *

ولما اقترب موعد سفر كاترينا ترك الأستاذ وإنجلينا .. المكان لكاترينا وصبرى رفيقها فى السفر ليكونا فى خلوة إلى حديث خاص أو إلى عناق قبل السفر ، ولكنهما لم يتعانقا وافترقا فى لوعة .

وذهبوا جميعًا يودعون كاترينا فى المحطة وعادوا إلى المدرسة وخصصت حجرة لينام فيها صبرى .. وأخذت السيدة إنجلينا ترعاه وتؤنسه وتسمعه أعذب الموسيقى . وتقص عليه أجمل ذكرياتها مع كاترينا . واستراح إليها صبرى لوداعتها ورقتها وفرضت عليه احترامها .. وهناك نساء يفرضن عليك الاحترام من أول لقاء . ولما قرأت فى عين ضيفها النوم تركته لينام ..

ودخل صبرى حجرته ونام ، وبعد منتصف الليل تحرك إلى دورة المياه وكانت خارج الغرفة ، فبصر من وراء الشرفة الزجاجية شبحًا نائمًا تحت الثلوج .

ورغم تساقط الثلج بغزارة لبس معطفه ودفع باب الشرفة وخرج إلى الحديقة واقترب من الشبح فعرف أنه الأستاذ هيرمينى بوجهه الأبيض وقد طمرته الثلوج فأدرك أنه كان يتجول فى الحديقة أو يزور شخصًا فى الفيلات المجاورة وأدركه التعب وهو راجع أو حدث له توقف فى القلب فسقط فى مكانه ..

واقترب منه صبرى جدًا .. وهتف باسمه وحركة .. ولكنه كان بغير حراك .. مات ..

فما الذى يفعله صبرى فى هذا الليل المثلج ؟ يسرع إلى منزل إنجلينا .. لا .. فى هذه الساعة ؟ لا ، لا شىء يستطيع فعله وهو وحده فى هذا الجناح ، عاد إلى غرفته يرتعش من الخوف لقد مات الرجل الإنسان

مصباح المدرسة ونورها في يوم قدومه فأى نحس وأى عذاب !! لقد جاء إلى هذا المكان ليحضر جنازة أعظم إنسان رآه ..

ظل في مكانه من الحجرة يرتعش ويبكى ..

* * *

ولما ظهر النور من وراء الزجاج كان الثلج قد انحسر وبرزت الشمس .

فخرج صبرى إلى الشرفة الطويلة ليتجه منها إلى منزل إنجلينا لإعلامها بما جرى ..

وفى طريقه سمع أقدامًا خفيفة من بعيد ولما اقتربت منه رأى الأستاذ هيرمينى بلحمه ودمه كأنه بعث من لحده .. وحياه هيرمينى فى بشاشة تحية الصباح .

ولكن صبرى لم يقو على تحمل الصدمة وسقط فى مكانه أمام الأستاذ هيرمينى .. ولما فتح عينيه وجد نفسه فى حجرته وفى فراشه وسمع الأستاذ يقول لإنجلينا ..

– فى المساء اقطعى له تذكرة إلى استكهولم ليسافر فى نفس القطار الذى سافرت فيه كاترينا ، وهزت إنجلينا رأسها موافقة وابتسمت .

الفارس

قضى مراد ستة أيام فى هونج كونج يتجول فى شوارعها ويشاهد كل ما فيها من عجائب .

وفكر فى أن يرى «أبردين» أيضًا قبل سفره ويشاهد هؤلاء الصينيين الفقراء البسطاء الذين يعيشون ويموتون فى الماء ، ويتغذى بأكلة السمك الشهية على ظهر السفينة العائمة المشهورة بأطباقها .

وجلس وحده بعد الغداء على ظهر السفينة يرقب كل ما حوله فى استغراب . وكانت الشمس ترسل آخر أشعتها الصفراء على الماء . والزوارق تتأرجح مع الموج فى صفوف طويلة منتظمة . وأشرعتها الحمراء منصوبة وقناديلها قد توهجت قبل غروب الشمس .

وكان المنظر كله يأخذ بلب المشاهد وله طعمه الحلو فى نفسه أكثر من أكلة السمك الشهية فى ساعة الغداء . فإن كل ما فى الأكلة من طرافة هو اصطياد السمكة . وهى حية تنتفض وتحاول الفكاك من السنارة . ثم سحبها سريعًا بحالتها هذه إلى المطبخ وتقديمها بكل ما فيها من حيوية إلى آكلها .

نسي أكلة السمك ومشهياتها وأخذ يتطلع إلى ما حوله وكانت المنازل القائمة على التل تموج بالغسيل المنشور . وهو يرفرف فى بياض ناصع ، ويغطى عينى المشاهد فى دفعة واحدة . كأنما تحركت بمفتاح آلى .

وانطلقت ريح الشتاء تهب بعنف فأخذت الزوارق تتراقص وتتلاعب قناديلها مع الموج .

وكان مراد قد جاء إلى السفينة بزورق تحركه فتاة صينية ورغم أن الصينيات يغلب عليهن قصر القامة . ولكن هذه كانت طويلة ملساء العود . وفى فتحة عينيها الجانبية الجمال الصينى الأسر .

ومع أنها بطيئة الحركة والفتيات الأخريات العاملات فى الزوارق كن يسبقنها فى كل جولة . ولكن مراد اختارها هى من بينهن جميعاً وانتظرها حتى رست أمامه .

وقالت له بإنجليزية سليمة بعد أن نقلته إلى السفينة :

- متى تعود ؟

- بعد ساعتين .

- نادنى وسأظل قريبة منك .

- يسرنى هذا .

وابتعدت وجلس إلى طاولة السفينة وهو يلاحقها بنظره ، كانت تحرك زورقها بالمدراة من الخلف وهى واقفة منتصبة القامة وقد غطت شعرها الأسود الطويل بقبعة كبيرة تقيها المطر والريح . وغطت صدرها بصدار ضم كل عظمها ولحمها بإحكام . ولكنه أبرز نهديها واستدارة كتفيها فكأنما كشف الصدار عن المحاسن بدلاً من أن يغطيها .

وتحت هذا الصدار سروال طويل يصل إلى قدميها مما اعتادت الملاحات لبسه فى هذه الزوارق .

ولكنهن إذا خرجن من الماء إلى الأرض لبسن الجونلة المفتوحة من الجانبين ككل الصينيات فى هونج كونج . وأحكمن دثار الصدر .

ورأها تجلس فى ضباب الغسق وقد تركت الزورق لفعل الموج والريح .

وبعد أكلة السمك أسف لأنه لم يركب معها على التو ويعود .. ولماذا قال لها بعد ساعتين ولا شىء جديد سيراه وهو جالس وحده وقد خلت السفينة من روادها وتغير الجو فجأة .

وفى الوقت المحدد جاءت هى ورست تحته قبل أن يشير إليها . وقفز إلى الزورق . وكانت قد أعدت له فى المؤخرة مكانًا مريحًا غطته بتندة ليكون بنجوة من الريح .

وعندما جلس وحركت الزورق رآها بصورة جديدة .. البنطلون الطويل الأزرق والسترة من لونه والصدار الأحمر الضاغط !

واتجهت سريعًا إلى الشاطىء والحركة إلى هناك لا تأخذ وقتًا طويلاً ..

قال لها :

– أريد أن أخرج إلى البحر الواسع وأرى الخليج .. فبوغتت بهذا الطلب وتجهم وجهها رغم دماثة طباعها وقالت بنبرة استنكار .

– فى هذا الجو .. ؟!

– أجل أرجوك وأنا لا أجىء إلى هنا كل يوم ..

– كما تحب ..

وكانت سحابة من الامتعاض لا تزال على وجهها . وحولت الزورق إلى الخليج ثم جلست تصنع له الشاى وقدمت له الكوب ساخنًا .

– سيجعلك تشعر بالدفء .

وذاقه وقال :

- جميل وفيه سكر أيضاً .

- أجل إننا نشربه بالسكر كالإنجليز هنا .

- ولكن فى الصين الأم لا يشربونه بالسكر .

- هل كنت هناك .. ؟

- نعم عملت سنتين فى بكين .

- فى التجارة .. ؟

- فى السفارة .

- هل أنت سفير ؟

- أقل من ذلك بكثير مجرد موظف صغير .

- لا تقل هذا بل أنت كبير وكبير .

- شكراً لهذا الإطراء .

وسألته :

- أين ذهب صاحبك ؟

- لم يكن معى صحاب .. !

- ولكنى رأيت جنتلماناً بصحبتك على ظهر المركب ..

وأدرك أنها كانت تراقبه من عرض البحر .

- إنه سائح وكان يسألنى عن الجو فى نيودلهى فى هذا الفصل من السنة لأنه ينوى الذهاب إلى هناك .

– وأنت .. ؟

– أنا ذاهب إلى طوكيو .

– جميلة جميلة ما أسعدك بالعمل فيها .

واشتدت الريح وتأرجح الزورق . وسألته :

– أتعود ؟

– أبداً .

وتراقصت الزوارق القريبة والبعيدة على سطح الماء وأصبح الماء كله أنواراً تتراقص وتذهب وتجيء تبعاً لحركة الريح ودفعها للزوارق .

هؤلاء هم الناس الذين يعيشون ويموتون فى الماء . وسألها :

– هل ولدت هنا ؟

– أجل .

وتركت ما فى يدها وجاءت وجلست بجانبه . وقالت :

– شاى آخر ؟

– لا شربت ما فيه الكفاية .

– نبيذ ؟

– شكراً .

– لماذا لم تحمل فى يدك معطفًا .. الجو متقلب ؟

– لم أكن أتصوره سيصل إلى هذه الدرجة من السوء .

وفجأة ظهر شىء فى المقدمة جعله يفتح عينيه فى عجب .. خرج طفل صغير من بطن الزورق يمسح عينيه .. ونظر مراد إليه طويلاً وفهم .

– طفلك ؟

– نعم وكان نائمًا وأيقظه الريح .

وتحركت إليه واحتضنته وقدمت له الشاى .

فقال لها مراد بابتسامة :

– الشاى سيجعله لا ينام .

– وأنا أحبه ساهرًا .

وابتسمت بتوريه .

– جميل مثل أمه .

– شكرًا ولماذا لا يكون مثل أبيه ؟

– لم أر والده بعد .

– ولن تراه .

– لماذا ؟

– سافر بعيدًا بعيدًا .

وفتح الطفل عينيه وأخذ ينظر إلى الغريب بفضول ثم بغضب ..

فقالت الفتاة تخاطب طفلها بالإنجليزية :

– والآن أيها الفارس أنت في مبارزة مع الغريب .. مع هذا الجنتلمان . وأيكما يفوز في المبارزة سيظفر بالأنثى .

وضحك مراد وقال لها برقة :

– لا داعي للمبارزة وأنا منهزم ومنسحب من أول جولة .

– ولماذا هكذا دون صراع ؟ أنا أحب أن تتبارزا !

– واحتضنت طفلها وترقرقت في عينيها الدموع . وقالت في حزن :

– كلما فكرت أن أعيش لحظات لنفسي أجده صاحيًا .

ونكس مراد رأسه وقال بصوت فيه بعض ما في نفسها من مرارة :

– تلك ضريبة الأم . وأين تذهبين منها ويكفيك فخرًا أنك مطوقة بها .

وكان يود أن يقول لها إنه أكثر منها لوعة وعذابًا ولكنه أمسك . ورأت في وجهه الشيء الذي لا تحب أن تراه في وجه المسافر .. المسافر الذي سافر ليتمتع بمباهج الحياة وينسى متاعبها في الدنيا الجديدة . وسألته لتغير من تسلسل خواطره :

– ما الذي كان يريده منك هذا الرجل على الساحل ولماذا ثار غضبك ؟

– لقد طالعني بصف من الأسنان الذهبية وعرض على أن أركب الركشا . فقلت له إنني لا أركب عربة يجرها إنسان . وكرر الطلب فأثارني .

– ولكنك مخطيء ، ففي داخل العربة ستجد حسناء منتظرة وتسليك

فى الطريق !

– حقًا .. ؟ ! لو علمت هذا لركبت على الفور !

وضحكا .

وأحسا بالمطر يهطل بغزارة فتركا سطح الزورق وجلسا متجاورين تحت التندة بعد أن غطت طفلها ولكنه ظل مفتوح العينين يلاحظ الغريب بفضول .

وجاءت الفتاة بدثار من الصوف وطوقت به مراد وقالت :

– إن هذا بدل المعطف .

– هذا كرم منك لم أعهد مثله ، ولا أدرى كيف أشكرك .

واشتد المطر واكفهر الجو فغطت الزورق كله بالمشمع السميك وجلسا يرقبان الليل . وسألته وهى تعطيه كوبًا آخر من الشاى .

– أين تقيم ؟

– فى الجولون جات .

– إنها ممتلئة بالجنود الأمريكيين . وكيف تعيش مع صخبهم ؟ إنهم يسكرون ويسكرون وشبح حرب فيتنام يطاردهم . فهم دومًا فى رعب وصخب ورغم مضى سنوات طويلة على انتهاء الحرب ولكن الشبح يعود بكل ما فيه من رعب .

– فى قولك الحق . ولكنى نزلت من الطائرة إليها مباشرة . دلنى عليها زميل ولم يكن عندى وقت للاختيار .

ونظر إليها طويلاً وتردد قبل أن يلقى السؤال ثم ألقاه :

– ألا توجد غرفة مفروشة هنا على الساحل فى هذه البيوت ؟

وضحكت .

– لماذا تضحكين ؟

– إن الصين أكثر منكم شرقية ومراعاة التقاليد .. هل تؤجر أنت غرفة فى بيتك لغريب ؟

– أبداً .

– وكذلك الصينى لا يؤجر غرفة من مسكنه قط وإنما يمكن أن تجد هذه الغرفة عند الأجانب الذين يقيمون فى هونج كونج أو كولون ، أما عند الصينيين فلا .

– فهمت .. فهمت .

– وأنذر الجو بالعواصف وحركت هى المدراة من الخلف وسألته :

– ألا تفكر فى العودة .

– أبداً سأقضى الليل هكذا فقد تقطعت بى الأسباب إلى كوبون .. الباخرة التى تعبر إلى هناك أحسبها توقفت فى هذه الساعة .

وتركت المدراة وجلست بجانب طفلها بعد أن غطته ولفته جيداً .

وكان المطر لتحركها وفعل الريح قد بلل صدارها . فقال لها مراد :

– إن هذا سىء ويعرضك لالتهاب الرئة فأخلعيه وألبسى غيره .

– سأفعل هذا ولكن أدر وجهك أولاً والأحسن أن أغطيك ..

وغطته فضحك .

ويحرص الصينية التى لا تحب أن تكشف صدرها لأحد ، وقد تكشف فخذيها فى الطريق بالجونلة المفتوحة فإنها خلعت الصدار بسرعة ولبست غيره . وقالت ضاحكة :

- الآن يمكنك أن تنظر .

- أنا لا أرى شيئًا إلا وهج عينيك .. فالظلام تراكب وقد خرجنا إلى عرض البحر وبعدنا عن الزوارق .

- نعم وهذا ما رغبت فيه .

وسألها :

- منذ مدة تعملين فى البحر ؟ .

- قبل أن يولد هذا . وأشارت إلى طفلها .

- والعمل مربح ؟

- هذه حرفة الأجداد منذ مئات السنين فلا يحسن القيام بها سوانا فى طول الأرض وعرضها . انظر أين نحن الآن من الشاطىء ومن الموج والمطر والريح ولو كان فى هذا المكان ملاح غير صينى لابتلعك الموج من أول غمزة فى مثل هذا الزورق الصغير . ولكنها حرفتنا وفننا .

وشعر بها تزهو على البحر والموج والريح والعواصف .. شعر بها فوق كل تقلبات الجو وتقلبات السحاب كجنية فى يدها خاتم السحر .. فلا شىء يروعها ولا شىء يفزعها ولا يدرى لماذا فكر فى هذه اللحظة فى النقود التى سيعطيها لها مقابل كل هذا التعب وتحسس الدولارات الهونج كونجية . وقال لنفسه : إن لم تكن كفاية سيعطيها جنيهات إنجليزية فلا يغمط حقها أبدًا .

* * *

ورآها فجأة متجهمة تنظر إلى موقع من البحر وقد علا وجهها الرعب . ونظر حيث تنظر فلم ير غير سواد الفحم وزبد البحر قد تحول

إلى مداد ودوامات تلف وتدور . وظلت هى على حالها من الفزع الأخرس . فتناول يدها وقال لها بعطف :

– اجلسى لقد تعبت وسنخرج وحدنا من هذه الدوامة سيخرجنا الموج .

– إن الدوامة لا تخيفني وقد اعتدت عليها وعلى الخروج منها ، ولكننى تذكرت فى هذا الموقع شيئًا حسبتنى نسيته لمر الأيام والأعوام ولكننى أدركت الآن أن هذا توهم .. فالذى حدث سيظل محفوراً فى أعماق نفوسنا مهما مرت عليه الأيام ومهما حاولنا فى نطمسه أو نداريه أو نلف حوله ونغطيه .

ونظرت إلى الطفل وأحكمت غطاءه وشربت جرعات من النبيذ . وسألت مراد :

– أتحب أن تشرب ؟

– سأشرب من قدحك .

– هكذا بسرعة أصبحت ولهانًا .

– نعم .. وفى «هانشو» ركبت مع فتاة صينية فى زورق فى بحر يغطيه ورق اللوتس وقلت لنفسى هذه أجمل فتاة فى الصين . فلما جئت أبردين ورأيتك وركبت زورقك قلت لا إن أجمل فتاة فى الدنيا هى صينية هنا فى أبردين .

ورأى القتامة السوداء تنزاح عن وجهها رويداً رويداً وهى تطالعه بعينيها وقد سرت من كلماته .

وقالت برقة :

– لقد طلبت منى فى هذا الليل أن أخرج بالزورق إلى هذا المكان فخرجت من أجلك . والآن انظر معى إلى فم البحر الواسع إنه يبتلع كل شيء وفى بطنه الأسرار أسرار الدنيا . منذ سبع سنوات وقبل أن يولد هذا الغلام ويوجد وكنت متزوجة حديثًا من «يونج» ، جاء إلى الشاطيء مثلك تمامًا شاب إنجليزى مهذب ، ونحن نعرف الإنجليز من سحنتهم من أول نظرة . جاء وكان يتطوح من السكر وطلب منى أن أنقله إلى السفينة وأنا أرفض أن أتعامل مع هذا الصنف من المخلوقات لأنه سيسبب لى متاعب ، فرفضت ولكن صينيًا كهلاً كان على الشاطيء حذرنى من الرفض وقال لى إن أى إنجليزى يمكن أن يسحب منى رخصة الملاحة .. ويسحبها إلى الأبد .. ولمحت والصينى يتحدث ظل كونستابل على الشاطيء فأركبت هذا المخمور على الفور وابتعدت به عن الزوارق .

وعند السفينة العائمة لم ينزل إليها .. قال لى إنه يريد أن يرى الخليج فدرت به إلى هناك .

ولاحظت بعد كل حركة مدراة أن عينيه تلاحقاننى بنظرة فيها من الشهوة ما اختبرت مثلها مراراً . وقال وهو يتطلع إلىّ :

– اتركى المدراة وتعالى واجلسى بجانبى .

– لو تركت المدراة سنغرق والبحر عاصف .

– لا يهم لا يهم .

وكان سكره يزداد ورائحته تغطى رائحة البحر .

وغاظنى أنه يتصور أننى ما دمت فقيرة فأنا رخيصة وطوع أمره . وسألنى :

– كم تأخذين فى الجولة إلى السفينة العائمة ؟

– عشرة دولارات هونج كونجى .

– سأعطيك مائة وألف ألف إذا جلست بجانبى .

– قلت لك إذا تركت الدفة فسنغرق .

– لا يهم لا يهم .

– ما الذى تريده .

– تجلسين معى هنا .

– فى شاطىء استانلى وهو ليس ببعيد وأنت تعرفه جيداً ، لأنه محرم على سواكم من البشر .. فى هذا الشاطىء تجد أكثر من إنجليزية حسناء يمكن أن تلبى رغباتك ، أما أنا فأشتغل ملاحة .. وأعيش بعرقى .

– ولكنى أريدك أنت .

– هل أحببتنى بسرعة هكذا ؟

– أجل .

– ولكنى لا أحبك .

ونفذ هذا الكلام كالسهم فى رأسه المخمور فوقف ومن عينيه يتطاير الشرر .. ولمحت هذا فأخذنى الرعب وأخذت أغير سلوكى وأروضه .. فقلت له بعذوبة .

– هل تريدنى حقًا ؟

– نعم .. نعم .

فأخذت فى خلع صدارى وكان لا يزال واقفًا أمامى وتحركت وأنا أنزع ملابسى إلى سطح الزورق وتحرك معى وأصبحنا عند موضع الدفة وألقيت الصدار فى بطن الزورق وكنت أود أن أتحرك بيدى بسهولة وجمحت به الشهوة وشرع ذراعيه ليطوقنى وفى هذه اللحظة الخاطفة دفعته بكل قوتى وغضبى وكرهى إلى الماء .. فغاص ثم ظهر ثم غاص . وجلست ساعة أرتعش من الرعب كالمشلولة التى تعجز عن كل حركة .

ثم حركت المدراة وابتعدت حتى وصلت إلى الشاطىء .

ومرت ساعات .. وأيام .. وأسابيع دون أن أسمع خبراً .. أو يوجه إلىّ سؤال :

وفى كل يوم كنت أتجه بالزورق إلى نفس المكان فى الليل .. دون أن يدرى أحد مقصدى ..

ولكنه لم يطف ولم يظهر قط .. لا على الشاطىء ولا فى المدينة .. غرق .. ؟ كيف يغرق والإنجليز جميعاً يجيدون السباحة .. لأنهم بحارة .. ؟

ولماذا لا يغرق وقد كان فى كامل ملابسه وفى أشد حالات سكره .. ؟!

غرق .. أو لم يغرق .. ولكننى غرقت أنا فى بحر من الحزن .. كل ما فى الأمر أنه تصورنى رخيصة لأننى فقيرة وكان هذا منبع الجرح . ومنبع الغيظ ، ومحط الإثارة .. ولكن هل يدفع هذا إلى الجريمة ..

يا كنفشيوس العظيم .. إننا جميعًا حمقى رغم كل تعاليمك وكل عظاتك ..

وبعد هذا بستة أسابيع سافر زوجى «يونج» إلى بانكوك ولم يعد .. ولم أسمع عنه خبراً .. وقلت لقد جاء القصاص .. إن هذا بذاك ..

وأمسك مراد بيدها وضغط .

– كم أنت مسكينة وشقية وأنا لا أدرى .. ولا أرى فى وجهك إلا الجمال والسكون .. أما روحك المعذبة فقد جهلتها . فاعذرينى لغباوتى .

– أبداً .. لا تقل هذا .. لقد استرحت إليك من أول نظرة .. وعندما طلبت منى أن أتجه إلى هنا طاوعتك وغمرنى الاطمئنان وحدثتك بعذابى .. ونفسى تحدثنى بأنى رأيتك فى كل مكان تتجول فيه فى شوارع هونج كونج .. فى الكوين رود .. وفى شارع «دى فو» وفى محل .. «لان كراوفورد» .

– إنى أحمل نفس الإحساس .. لقد كنت معى هناك فى الصين الأم .. وستظلين معى فى كل مكان ..

واتجهت بالزورق إلى الشاطىء .

وقالت وهى تنظر إلى هناك :

– إن والدى ينتظرنا ..

ورأى شيخاً طاعناً فى السن يقف على الساحل ولا يعبأ بالمطر .. وخرجت «ليانج شان» تحمل طفلها .. وتحدثت مع والدها طويلاً ، وهبط الشيخ إلى الزورق وسلم على مراد وأخذ يحادثه بإنجليزية مكسرة الحروف .. ثم تركه وهو يقول :

– سنبحث لك عن مكان تقضى فيه الليل .. لأن ذهابك الآن إلى فندقك أصبح متعذراً ..

وشكر «مراد» الشيخ بحرارة .. وجلس فى الزورق يرقب ما حوله وقد سرحت به الخواطر .. وامتلأ رأسه بالأفكار .. وعجب لتصاريف الحياة .. مجرد نزهة مع فتاة عاملة على زورق .. ككل فتاة رآها من قبل تعمل فى القطار .. أو فى الباخرة .. أو فى الطائرة .. مجرد نزهة تكشف له عن هذه المأساة .. إن الفتاة لم تنس قط فعلتها رغم أنها حاولت مراراً أن تنساها بكل وسيلة ممكنة ، وما الذى فعلته لتنسى ما الذى فعلته .. ؟ ما الذى فعلته .. لقد .. لقد .. لا .. لا ..

* * *

استطاعت الفتاة بلباقتها .. وكياستها أن تخلى له الكوخ الخاص بهم .. وتذهب هى ووالدها الشيخ وطفلها إلى جيران من أقربائهم يقضون فيه هذه الليلة .

* * *

وجلس على فراش من الحرير .. والغرفة مزينة بستر حريرية ومفارش جميلة على المناضد .. ورسوم مطرزة على الحيطان .. والكل بلون واحد ..

وجلسوا معه يسامرونه .. وظل الطفل صاحيًا .. كفارس كما وصفته أمه .. ثم حملته أمه إلى جيرانهم .. وعادت تعد مائدة العشاء ..

وأكل مراد .. بالعصوين .. وكان قد أتقن الأكل بهما فى الصين ، وضحكت الفتاة ووالدها .. لبراعته فى استعمالهما .. وشرب معها النبيذ .. وتحدثوا فى كل شىء .. تحدثوا عن الحروب .. وتحدثوا عن هونج كونج التى سقطت فى يد اليابانيين فى ثلاثة أيام .. ثم استرجعها الإنجليز .. وعادت الدائرة تدور .. وظل الإنجليز فى قصورهم على

الشاطىء .. وهم يعيشون ويموتون فى الماء ..

وسأل مراد الشيخ :

– أصبحت هذه الحياة سهلة عليكم كما أعتقد وأتقنتموها ..

– اعتدنا على هذه الحياة .. وألفناها .. ولم نفكر فى التغيير والعادة حكمها رهيب .. ولم نعد نحس بالهوان ..

– من يهن يسهل الهوان عليه ..

– ماذا تقول ؟

– هذا شطر بيت من الشعر لأكبر شعرائنا العرب .. ومن الصعب ترجمته بألفاظه لبلاغته .. وسأشرح لك معناه ..

– معناه حكمة أزلية .. لقد اعتدنا على العيش فى الماء .. ولم نطلب التغيير ولم نسع إليه .. فبقينا كما كنا .. !

– ولماذا لا تخلصكم الصين الأم من احتلال الإنجليز ؟

– تستطيع الصين الأم أن تفعل هذا .. ولكنها لا تفكر فيه .. لأن هونج كونج هى المنفذ المتدفق لبضائعها .. والذاهب منها إلى كل مكان .. لماذا الحرب والدمار .. ؟ وربما وصلنا إلى القنبلة النيترون ونحن لا ندرى .. لماذا كل هذا ونحن نتحرك فى سلام وأمن .. والصينى فى هونج كونج يعمل كالنحلة فى كل الحرف ويتقن فى كل صناعة .. والبلد لحرية التجارة فى رخاء مذهل .. وتفتح ذراعيها لكل سائح ..

وقالت الفتاة بنعومة لوالدها :

– السـيـد «مـراد» يريد أن يسـتـريح الآن يا والدى .. ولا يجب الحديث عن الحرب والسياسة .. فهيا .. ليأخذ حظه من النوم ..

* * *

وحياه الشيخ وخرج مع ابنته .. بعد أن أغلقت الفتاة وراءها الباب ..

ولكن مـراد لم ينم – رغم شعـوره بالدفء والسكون .. ظل سـاهراً يفكر فى هذه الفـتـاة .. ظل سـاهراً يفكر فى «ليـانج شـان» التى عـرف اسمها أخيراً .. ظل يفكر فى كرمها مع فقرها .. فقد أعدت له بيتها الصـغـير .. تركت له الكوخ .. وذهبت إلى الجيـران .. ولولا التـقـاليـد والعادات المتأصلة فيـهم .. لضموه إلى أحضـانهم .. وناموا مـعه وهو الغريب تحت سقف واحد ..

لماذا بقى فى هونج كونج كل هذه الأيام .. لأنها فتحت له ذراعيها وهو يهبط من الطائرة .. وخـرج من المطار بعد دقيقـة .. لم يشعـر بأى قيد .. شعـر بالحرية التى يحبها كل إنسـان .. حتى الإنجليـزية المكلفة بالاطلاع على ورقة التطعيم الدولية .. استقبلته بابتسامة ومرح .. كأنها تعرفه من قبل وكأنها تحبه .. ترك الجميلة .. وخرج إلى الشـارع .. فوجد الجمـال والنظام والعـمل .. والعـمل بجنون .. وهذه هى الأشـيـاء التى يحبها .. وجد حركة المرور كلها تقف للأطفال الصـغـار عندما يعبرون الطريق .. هذه هى الحـضـارة .. حـضـارة الصين العظيـمـة منذ آلاف السنين .. برزت .. من وراء القرون ..

* * *

أى خبل لماذا لا ينام ؟ هل يترك عمله ويبقى فى هذه المدينة لأنه يحبها .. ولأن فيها فتاة أحبها .. أى جنون .. كيف يترك وطنه الذى رعاه

وأطعمه وسقاه وشرب من مائه وتغذى من طينه .. ؟ كيف يتركه .. أبداً .. أبداً سيعود إليه .. سيعود .. وسينام .. وفى رأسه الحب والجمال .. والسلام .. قنبلة النيترون .. لا .. هيروشيما أخرى لا .. إرهاب .. لا .. اختطاف طائرات .. لا .. ماذا جرى للشباب فى هذا العصر .. عصابات المافيا .. مارلون براندو .. أعظم الممثلين فى هذا العصر .. المافيا .. لا .. ولكنه مثل أعظم أدواره .. وهل بقيت المافيا بعد التمثيل أم ذهبت .. ؟ لا يدرى .. هل سكر من النبيذ وأصبح يخرف ..

أين ذهبت «ليانج شان» وتركته وحده .. فى الليل والبرد .. والظلام .

* * *

وقبل أن ينبلج الصبح شعر بأنفاسها .. ورضاب شفتيها على شفتيه .. وشدها إليه .. وشعر بأنه يغوص فى ظلام هذا الوجود الذى لا يعرف ولا يدرك معناه .. ولا يدرى لماذا وجد فيه ..

قصة فريدة

كان اسمه «أنطون» وكنا نسميه أنطون تشيكوف .. وإن لم تكن له صفات ذلك الكاتب العظيم .. لأن اسمه أنطون ولأنه كان يعشق القصة بحماس لا حدود له ..

وكان قد كتب قصة وحيدة ، عن رجل مثالى تطحنه الحياة ، ويلازمه سوء الحظ فى كل خطوة ، ومع ذلك لم ييأس الرجل قط ، وظل يكافح بصبر وأناة ، رافعًا هامته ، متحديًا كل ضروب النحس وصروف الحياة ، إلى أن وصل إلى بغيته ..

ولم يكن أنطون فى سن تسمح له بكل هذه التجارب الحية التى تدور فى القصة ، فقد كان فى رونق شبابه لم يتعد الخامسة والعشرين من عمره ، وأنهى دراسته الجامعية حديثًا ، ولم يكن قد مضى عليه فى وظيفته أكثر من سنة واحدة .

وكان يعمل فى إدارة لها علاقة بالمكتبات والكتب ، وتتبع وزارة التعليم فى ذلك الوقت ، ويعيش عيشة راضية فى المكتب والبيت .

وترى علامات الرضى على وجهه ، وكل جارحة فيه . وتكوينه الجسمانى واضح وضوح الشمس . فهو نحيف ، طويل العود ، متناسق التركيب ، يطالعك بوجه ضاحك ، وعينين سوداوين براقتين دومًا .

ولم يكن يحمل على كاهله شيئًا يذكر من هموم الحياة .. وكانت البساطة والطيبة هما أول ما تكتشفهما فيه بعد أول تجربة ، واحتكاك به .

وكان يتصور أن الناس جميعًا لهم مثل صفاته ويمثل هذا التصور كان يمضى ، ويعيش ، ويتعامل مع الناس .

* * *

وكان قد عرض على هذه القصة الحافلة بالتجارب الحية ، بعد أن فرغ من كتابتها .. وسألنى عن رأيى فيها :

فقلت له :

– إنها جيدة للغاية .. وأين تنشرها ؟

– لقد أعطيتها فعلاً للأستاذ صلاح .. ووعد بنشرها الأسبوع القادم فى مجلته ..

– جميل .. وأهنئك ..

وكنت أزوره فى مقر عمله ، مع أنى لا أحب التردد على مكاتب الحكومة .. لأن مكتبه يقع فى وسط المدينة ، وأذهب إليه ماشيًا .. والمكان هادىء ، وليس فيه الزحام الذى نجده فى المكاتب الأخرى . وكنت أجد عنده فى كل زيارة الجديد فى الأدب والفكر ..

* * *

وذهبت إليه مرة فلم أجده .. وعلمت أنه حدث سوء تفاهم بينه وبين رئيسه بسبب العمل وتطور النقاش إلى سباب . وفوجىء الرئيس بذلك الوديع كالحمل ، يثور فى وجهه كالعاصفة . وكان لرئيسه حظوة ونفوذ ، فسعى إلى نقله وإبعاده عن القاهرة كلية .

وبمجرد سماع «أنطون» بخبر النقل ثارت أعصابه وانقطع عن العمل .. ولم أكن أعرف بيته .. وظللت أبحث عنه فى كل مكان ، واسأل من يعرفه حتى رأيته مصادفة فى شارع «طلعت حرب» وكان يمضى فى وسط الشارع شارداً منفوش الشعر .. وقد تغير تماماً حتى كدت أنكره .. فقد شحب لونه ، وذهبت البشاشة عن وجهه ، وزاغت نظرته .. وبدا عليه القلق ،

والإحساس بالظلم .. ولم يكن له حول ولا طول .. وكان للآخر كل الحول والطول . ولم يسمع له صوت يجأر بالشكوى ، لأنه لا يعرف أحداً . ولم تكن له أية وساطة ..

ولقد رأيت المظلوم كيف تتمزق روحه ، وتتخرب نفسه من داخله .

قال لي أنهم نقلوه إلى «كفر الدوار» سكرتيراً لمدرسة .. وهو يعيش هنا مع خالته ، وكيف يتركها وحدها .. لقد تحطمت نفسه ..

* * *

ولم يكن له من نصير أو مغيث فخضع للنقل .. وسافر إلى هناك . ولما كان من العسير عليه أن يجد مسكناً في هذه المدينة فقد نصحه بعضهم بالسكن في الإسكندرية ، والذهاب إلى كفر الدوار بالقطار في الصباح المبكر كما يفعل معظم الموظفين .. وفعل ذلك فعلاً .. وسكن عند أرملة في الشاطبي .. ولأنه يحب البلد النظيف الهادىء ، فقد استراح إلى الإسكندرية . وكان يرجع إلى القاهرة كل خميس ليزور خالته التي ربته واحتضنته . وهي كل من بقي على الحياة من أهله .. وفي مساء الجمعة يتركها وفي نفسه لوعة .

وقد أراح الله الخالة العجوز من متاعب الوحدة ، فماتت بعد أشهر أربعة من إبعاد أنطون عنها .. وحزن عليها كثيراً .. ولكن الأيام كفيلة بمسح الأحزان ..

ووجد في الأرملة ، وعنايتها به ، وحدبها عليها العوض ..

وحدث أن سافرت الأرملة إلى اليونان على أن تعود . ولكن لم تعد .. وتركت له الشقة .. فأحس بالوحدة الرهيبة وبالحاجة لمن يقدم له الطعام ، ويقوم بشئون البيت . فلم يكن قد عاش وحده أبداً ..

وكانت له جارة مصرية تتردد على الشقة قبل سفر الأرملة الأجنبية .. فلما سافرت أشفقت هذه الجارة على وحدته المرة . فكانت تعد له الطعام وتغسل وتكوى ملابسه فى الفترة التى يكون فيها فى المدرسة .

وعاد ذات يوم مبكراً عن ميعاد عودته .. فوجد ابنتها تساعدها فى تنظيف الشقة ، وإعداد الطعام .. وكان قد رآها قبل ذلك ، ولكن ليس عن قرب كهذه المرة .. فأحبها وتزوجها .. وكانت موظفة فأبقاها فى وظيفتها ..

* * *

وفى عطلة الأجازة الصيفية للمدارس .. كنت أقابل أنطون كل صباح فى مقهى بشارع صفية زغلول بعيداً عن الزحمة التى فى مقاهى الكورنيش .. وكنا نقرأ ونتحدث . وكان الحديث كله عن «دستويفسكى» ، كأعظم روائى أنجبته البشرية ..

وكنت أسترجع فى ذاكرتى صورة اليوشا بصفاته . وأنا أنظر إلى أنطون وهو يتحدث وأعجب للتشابه الكبير بينهما ..

وسألته وأنا أرى فى يده المجلة التى سينشر فيها قصته ..

– أنشرت القصة ؟

– وعدنى الأستاذ «صلاح» أنها ستنشر فى العدد الممتاز .

ولم أكن أعرف صلاح هذا ، ولا أعرف طباعه على كثرة ما أعرف من المحررين فى الصحف .. ولكنه كان يثق فيه ثقة مطلقة .

* * *

ومضت سنة وسنوات على القصة .. ولم أعد أسأل أنطون عنها .. لأنى لاحظت أن وجهه يكتسى بالأسى عند السؤال .. ويعتريه ما يشبه الغم على شىء لم يتحقق له .. وحلم عاش ليحققه ، ولكنه لم يعرف السبب فى عدم تحقيقه ..

وقلت له ذات مرة ونحن فى المقهى :

- هات القصة وأنا أعطيها للأستاذ محمد عيسى لينشرها لك فى جريدة الشعب ..

فقال دون أن يفكر طويلاً ..

- إن هذا يغضب صلاحًا .. وأنا لا أحب أن أغضبه .. وقد أخذ القصة لينشرها .. وسينشرها ..

- اكتب غيرها .. وأنا أعطيها لمن ينشرها لك ..

- تعجبنى هذه القصة .. وأحب أن تكون بدايتى طيبة ..

- اعتبرها نشرت .. واكتب غيرها ..

- أبدًا .. إنها البداية الطيبة .. وستنشر ..

وكان يترقب اليوم الذى تصدر فيه هذه المجلة الأسبوعية . ويفتح صفحاتها بلهفة .. فإذا لم تقع عيناه على قصته امتقع وجهه ، وأخذ العرق يتفصد على جبينه . كان يصاب بخيبة أمل مرة ..

ولكنه بعد ساعة واحدة يعود لإشراقه . ولفرط ما كنت ألاحظ عليه من آلام ، وهو يترقب المجلة ، ثم يخذل فى كل مرة .. كنت أود لو تنقطع هذه المجلة عن الصدور كلية .. وبذلك يستريح من هذا العذاب .

* * *

ودعانى إلى الغداء فى منزله .. وكنا نتمشى على سيف البحر قبل الغداء بساعة .. فقبلت الدعوة لأجد السبيل إلى التحدث عن هذه القصة أمام زوجته ولعلها تقنعه أكثر منى ..

ووجدت السبيل إلى التحدث عن القصة ونحن نقلب فى رف الكتب ، بعد أن تغدينا ، وشربنا القهوة ..

وقلت للزوجة :

– ألا ترين أنه آن الأوان لينشر القصة فى مكان آخر ؟

– ولكنه أعطاها للأستاذ لينشرها ..

ووجدتها أكثر طيبة منه .

وكنت أود أن أقول لهما أن العالم ملىء بالأفاقين والأشرار ، وعليهما أن يغيرا سلوكهما فى النظر إلى الناس . وإلا سحقتهما الحياة سحقًا .. سحقتهما هذه التروس الضارية .. ولكنى أشفقت عليه أن يصدم صدمة شديدة ، وتركته يعيش فى أمله .

وآثرت بعدها ألا أحدثه عن هذا الأمر أبداً ..

والأيام كفيلة له بأن ينسى .

ولم يفاتحنى هو بشأن هذه القصة قط .. ولكن شغفه بالأدب استمر ، وكان فى كل يوم يزداد توهجاً ..

وكان كلما استمر فى الخدمة .. ومضت سنوات .. يحسب المكافأة والمعاش .. ليستريح .. ويتفرغ للأدب كلية .

* * *

وتركت أنطون فى الإسكندرية .. وسافرت إلى القاهرة لبعض شئونى .. ولما عدت إلى الإسكندرية قصدت بيت أنطون .. ولكن لم أجده ..

وقالت لى زوجته :

– إنه فى مطبعة حليم ..

– المطبعة التى فى شارع النبى دانيال ؟

– أجل .. ولكن استرح أولاً .. واشرب القهوة .. وقد يعود .. وأنت تشرب القهوة .. لأنه خرج منذ ساعة ..

– شكراً .. سألحقه قبل أن يغادر المطبعة .. ويزوغ منى ..

وأسرعت إلى المطبعة متلهفًا على لقائه ، وفى رأسى مئات الخواطر ..

وهبطت إلى المطبعة الصغيرة فى الشارع الضيق .. ولم أجد أنطون .. وقال لى صبى المطبعة ، وكان يعرفنى لأنى طبعت عندهم بطاقات معايدة أكثر من مرة ..

قال الصبى وهو واقف على صندوق الرصاص الذى يجمع منه الحروف :

– الأستاذ أنطون .. كان هنا منذ دقيقتين .. وخرج ..

– هل جاء ليطبع بطاقة ؟

– أبداً .. جاء بقصة لنجمعها له .. وقد جمعت العنوان فعلاً .. وها هو .. ولكنه عاد بعد لحظات واسترد القصة .. وقال لى أنها ستنشر فى مجلته .. ولا داعى لجمعها .. وأخذها وخرج ..

ورأيت عنوان القصة .. فى صف بالحروف الكبيرة .. وشعرت بشىء ثقيل يضغط على قلبى .. وخرجت أبحث عن أنطون .. فى دنيا عجيبة .

الهلب

كانت ريح الخريف تهب من جانب النهر ومياه الفيضان تغمر الحقول . وكانت الطيور ترتفع عن الأرض ذاهبة إلى أوكارها والشمس ترسل آخر شعاع لها على البرية .

وكان الدكتور مختار منطلقًا بسيارته إلى بيته فى المركز .. وبجانبه زوجته وكانت راجعة من الإسكندرية بعد غياب شهر قضته فى المصيف وبين أهلها .

وكان زوجها يود أن تقضى أسبوعين آخرين هناك .. مادام الجو لطيفًا . ولكنها أشفقت عليه من وحدته فى الريف ورجعت تحمل لواعج شوق متأجج .

وكان الزوجان فى الواقع يعيشان كعاشقين ولم تخب نار الحب المشتعلة فى قلبيهما لحظة وزاد من ضرامها أنهما انتقلا من القاهرة إلى الريف فجأة وأحسا بالمرارة معًا وبالأسف على ما حصل .

وكان الدكتور مختار يشفق على زوجته بحنان لأنها لم تشعر منذ زواجهما بعاطفة الأمومة .

كانت تتمنى أن تنجب طفلاً .. طفلاً واحداً .. ولكن هذه الأمنية لم تتحقق لها .

وظلت فى ضنى داخلى مدة عشر سنوات .. وكان يحس به ويقرأ فى عينيها الأسى لذلك ويحاول أن يخفف عنها وقع الأمر بكل الوسائل ولقد جعل لها فى البيت كل ما يسلى الأنثى ويشغل فراغها .. ولكن رغم هذا كان يحس بأنه لا شيء يملأ فراغ صياح الطفل فى البيت ، ويعوض الإحساس بالأمومة .

وكان ينشغل بعمله كطبيب للمراكز وبزيارة زملائه من الموظفين فى مكاتبهم وبيوتهم .. أما الحياة بالنسبة لزوجته سميرة فكانت قاسية فى الريف وكان يخشى أن يتسرب الملال إلى حياتها الرتيبة ولذا صحبها إلى الإسكندرية وتركها هناك . فلما عادت شعر بأنه جدد حياته وحياتها .

وكان بيتهما لا بأس به ويطل على المزارع .. ودخلته سميرة بشوق وهى تتفقد الحجرات ووجدت كل شىء فى مكانه .. وكانت هذه أول مرة تغيب فيها عن بيتها بمثل هذه المدة التى كانت تعتبرها طويلة .

وعندما حمل الخادم الأشياء من السيارة .. ونظرت سميرة إلى زوجها كانت تود أن تغلق عليهما الباب .. وتروح فى أحضانه .. وهى بملابس السفر ، وقبل أن تفك حقائبها .. أو تسرح حتى شعرها.

وأخذت تحدثه عن عائلتها .. وكيف لم تنزل إلى البحر قط رغم جمال الجو فى خلال شهر سبتمبر .. وأنها كانت تذهب إلى السينما كثيرًا مع أختها مديحة .

وتحركت فى غرفة النوم لتغيير ثوبها ..وخلعت الصدار الخارجى .. وكانت فى البلوزة أكثر جمالاً . وبدت خطوط صدرها واستدارة كتفيها .. وبدا بياض ذراعيها العاريتين .. وانحنت لتخلع الجورب فاقترب منها زوجها .. وضمها إلى صدره وأخذ يقبلها بحرارة . وسرها هذا .. وكانت أكثر شوقًا منه فأعطته شفتيها ونسيا كل شىء فى لذات القبل .. وأحست بأن عواطفها قد اشتعلت ..

وكانت تحس بحنين إلى زوجها . وهى فى المصيف وبعيدة عنه .. وتخجل من نفسها .. ولكنها الآن وهو بجوارها فلا معنى للخجل ..ويجب أن تطلق عواطف صدرها .

وفى غمرة العناق .. سمعا رنين التليفون فى الصالة وتركه مختار يرن ولكن الخادمة رفعت السماعة .. وسمعها تتكلم ثم أحس بها تنقر على الباب وتقول :

– حادثة يا سيدى .. المركز بيتكلم . وبقى فى مكانه لحظات وهو ينظر إلى زوجته بابتسامة فيها لوعة وتحرك فى تثاقل نحو الباب وفتحه وخرج إلى التليفون .. وأمسك بالسماعة ثم رجع بوجه جامد .. إلى زوجته وكانت ترقبه فى لهفة .

– فيه إيه ؟

– حادثة فى بلدة سلامة . غلام سقط .. على هلب ..

– ومات ؟

– لا .. حالته خطرة .

– وحتروح تشوفه .. !

– ضرورى .

وكان واقفًا فى وسط الحجرة ينظر إليها وهى تخلع الجورب .. والجونلة .. وعجب أن النار التى كانت مشتعلة فيه منذ لحظات قد خمدت فجأة .. وغير سلك التليفون كل شىء فى نفسه .. فقد أخذ رأسه يشغل بالليل .. والظلام والبعوض والذباب .. والفلاحين والخفراء بلبدهم الحمراء والعمدة والمشايخ والدوار والسراج البترولى والفانوس المهشم زجاجه . ثم الطاولة القذرة .. والدكة .. والحرام .. وكراسى الجوت الممزقة .. عادت هذه الصورة الكئيبة إلى ذهنه فأظلم وجهه .. وارتدى سترته وحمل حقيبته الصغيرة فى يده .. ولكنه أسرع وقبل زوجته وخرج ..

وكانت هى تعرف طباعه عندما ينطلق إلى واجبه وعمله فوقفت تودعه على السلم حتى غاب عنها .

وبعد نصف ساعة كان ينطلق بالسيارة على الجسر مع معاون البوليس واثنين من الشرطة .

* * *

وكانت الأرض غير ممهدة .. والغبار يتطاير فى وجوههم . والظلام يخيم على القرى التى مروا بها كأنها تلفظ أنفاسها .. وقبل أن يدخلوا القرية كان شيخ الخفراء فى انتظارهم على الجسر ومشى أمامهم إلى دوار العمدة .. ثم خرجوا جميعاً إلى «الموردة» حيث وقع الحادث .

ورأى الدكتور مختار .. صفًا من المراكب الكبيرة مسحوبة بالحبال والجنازير إلى الشاطىء الطينى .. وكان التيار يسحبها عن الشاطىء ثم تردها الجنازير فى حركة رتيبة .

وكانت المراكب محملة بالغلال .. وأكياس القطن والبلاليص .. وفى سارية منها .. مصباح تهتز ذبالته فى الليل ..

ورأى الهلب الذى تسبب فى الحادث . وفحصه جيداً .

ورأى شيئًا .. مغطى بالسواد فى وابور الطحين القريب من المكان . وحوله النسوة جالسات على الأرض فى سكون .. ولم يسمع صياحًا ولا بكاء ولم يكن هناك من ينوح .

وعندما اقترب منه ورفع عنه الغطاء سمع بكاء مكتومًا من امرأة كانت تغطى وجهها ثم أسفرت وهى تنظر إلى وجه الطبيب .. فأدرك أنها والدة الغلام ..

ورأى الطبيب وهو يكشف على الجرح أن الغلام أصيب برصاصة .. ولا تزال فى جسمه .. فحول وجهه يبحث عن المعاون ليريه مكان الرصاصة .. وفى أثناء هذه الحركة .. رأى أحد الفلاحين يمد إليه .. خفية بورقتين بعشرين جنيهًا فألقاهما الطبيب على الأرض وصفع الفلاح فى حمى غضبه ومر هذا سريعًا .. وفى أثناء هذه الحركة سمع الطبيب نواح المرأة التى كانت جالسة صامتة بجوار المصاب .

واهتز الجو كله .. وتكهرب . واعترفت الأم بالحقيقة وأن ابنها لم يسقط على الهلب .. كما أرادوا أن تقول أولاً وإنما أصيب من رصاصة حسن ابن الشيخ عبد الرحمن . وهو يصطاد البط . وأنهم اسكتوها بالفلوس . لتغير الحقيقة .

وترك الطبيب المعاون يحقق .. وطلب سيارة الإسعاف من المركز بسرعة .. ولما تأخرت حمل الغلام الجريح .. فى بوكس البوليس وأسرع إلى المستشفى .. وفى نفس الليلة . أجرى له العملية وأخرج الرصاصة وبذل جهداً جباراً فى ذلك .

* * *

ولما عاد الدكتور مختار إلى زوجته مع الفجر وجدها ساهرة فى انتظاره .. ولم تقرأ على وجهه التعب كما كانت تراه فى المرات السابقة عندما يعود من حوادث القرى .. بل وجدته فرحاً .. وسعيداً .. وسألته عن السبب فقص عليها حادث الغلام وكيف أنقذ روحه البريئة .

فسرت زوجته .. واحتضنته أكثر وأكثر .. وفى غمرة عواطفها توقعت حدثًا جديداً يحدث لهما هذه الليلة .. وكان مختار يتوقع الشىء .. وهو على يقين من حدوثه .. أكثر منها ..

ومع خيوط الشمس .. سمعا صياح الأطفال فى الشارع وهم ذاهبون إلى المدرسة فى مرح وبساطة .. فسرا ونهضا ينظران من النافذة .

الغفران

دخلت فتحية هانم السينما بعد أن بدأ العرض بنصف الساعة .. وكانت خائفة كعادتها فى كل مرة تقابل فيها عشيقها فى الخفاء .. وعلى الرغم من أن علاقتها به قد استمرت طوال سنة كاملة دون أن يكشفها أحد . فإنها أحست فى الأيام الأخيرة بأن هذا التخفى قد مزق أعصابها وأنها لو استمرت على هذا المنوال فستكون عرضة لفضيحة مدوية .

ومع أنها كانت تحرص على أن تدخل السينما فى الظلام وحدها .. وتخرج منها وحدها قبل أن تضاء الأنوار .. ولكنها كانت تشعر بالفزع فى كل مرة .. وتتصور أن العيون كلها مركزة عليها وتعرف فعلتها وتظل فى هلع وقلق ولا تسترد أنفاسها إلا بعد أن تجلس فى سيارتها .

فى خلال شهر سبتمبر كانت هى التى اختارت المكان ورأت أن تلتقى بأحمد فى السينما وفى حفلات الساعة العاشرة صباحًا على الأخص .. لأن زوجها فى ذلك الوقت يكون فى عمله .. ولأن ظلام السينما يحجب الرؤية ولكن برغم هذا التخفى فإن فتحية هانم أحست بأنها تخجل من نفسها ، ومن أطفالها فى البيت .. وكبرت المسألة فى نفسها وتضخمت وشعرت بالخوف الذى يمزق روحها وبالعذاب الأكبر . وقررت أن تضع لعذابها حدًا .

وكان الإثم فى أول الأمر يجرفها فى دوامته ويلفها .. فلم تدرك حقيقة المسألة .. وقابلت شفتى الرجل الغريب بلذة وشغف .. ثم تحولت القبل إلى طعم العلقم وكان يحزنها أنها لا تعرف السبب .

وكانت فتحية هانم .. سيدة متألقة الجمال وغنية .. ومتزوجة من رجل واسع الثراء . كثير الأعمال والمشاغل .

وكان بين يديها كل ما تحتاج إليه المرأة .. ولكنها كانت تحس بأنه ينقصها شيء ما .. شيء لا تعرفه . شيء يستقر في أعماقها .. ولا تستطيع أن تتبينه على التعيين .. إحساس الزوجة المنعمة التي تشعر برغم كل مظاهر النعيم بأنه يوجد شيء ينقصها ، شيء هام ولكنها لا تدركه ..

ولمسته وأدركته عندما التقت بأحمد لأول مرة في حفلة خاصة .. وكان لطيفًا مهذبًا وأخذ يصب في أذنيها كلمات الغزل .. فانتفضت وعرفت ما كانت تحن إليه واستجابت له وخضعت لرغباته وأصبحت لا تستطيع الفكاك من أساره .

ولكنها الآن ستقطع هذه الصلة إلى الأبد بعزيمة قوية ..

* * *

ولما جاء أحمد ودخل في الظلام ، وجلس بجوارها ليغازلها كعادته لم تستجب لغزله في هذه المرة وأفهمته أنها جاءت لتودعه .. ولتقضي معه الساعات الأخيرة ..

وذهل وتصور أنها حالة عصبية عارضة ستزول تحت كلماته الساحرة ولكنها ظلت جامدة .. تقاومه على طول الخط .. وأخيراً طلب منها قبلة الوداع .

فمدت له شفتيها وأطال القبلة حتى نسيت نفسها .. ولما رفع شفتيه منها تلفتت بغريزتها النسوية إلى الخلف فوجدت سائق سيارتها .. يقف وراءها .. واسود وجهها ، وصعقت .

وكان السائق المسكين بعد أن أدخلها السينما قد رجع بالسيارة إلى البيت على أن يعود إليها قبل ميعاد الخروج .. ولكن الوصيفة أفهمته أن أخت الست تحدثت بالتليفون من الإسكندرية وأنها قادمة إلى القاهرة في قطار الظهر .. وعليه أن ينتظرها بالسيارة على المحطة .. فاحتار ماذا يفعل . وسيدته ستخرج من السينما فى نفس الميعاد ، وعليه أن ينتظرها أيضًا . وأخيرًا رأى أن يذهب إليها فى داخل السينما وهى التى ستحل الموقف ..

وكان يعرف مكانها لأنه قطع لها تذكرة اللوج ..

ولما دخل فى الظلام .. واقترب منها شاهد منظر القبلة ..

فوقف سادرًا ثم وجد نفسه يعود وهبط السلم فى الظلام دون أن يحادثها وكان ذهوله أشد من ذهولها .. فلم يكن يتصور أبدًا أن هذه السيدة التى كانت فى صفاء البللور .. يمكن أن تتخذ لها عشيقًا .. وانتابه شعور قاتل .. شعور الخوف شعور الكآبة والمرارة معًا .. شعور الحظ العاثر الذى أدخله السينما فى هذه اللحظة ليرى هذا المنظر .. فاسودت الحياة فى نظره وهو يتصور قطع العيش والجوع فقد لاقى كل صنوف العذاب والمشقة ليصل إلى هذه الوظيفة .

وبقى لحظات مضطربًا فى داخل السينما شاردًا موزع النفس .. ثم خرج إلى الشارع فى تثاقل وهو لا يدرى كيف حملته قدماه .

ووقف بجوار العربة كالمذهول ..

ولم يفتح السيدة الباب كعادته لما خرجت من السينما ولم يحادثها عن أختها القادمة من الإسكندرية .. كان قد شل عن الحركة وعن الكلام ورأى أن يتجاهل أنه دخل السينما عليها إذ ربما لم تكن قد تيقنت من شخصه

فى الظلام .. ولكنه رأى فى عينيها نظرة روعته .. نظرة كراهية تجل عن الوصف فأدرك أنها عرفته لما دخل السينما منذ لحظات ووقف وراءها .

وحرك العربة وسار مسرعًا إلى البيت وكان يتمنى أن يحدث له حادث فى الطريق .

* * *

وظل يعيش فى قصرها فى خوف شديد وكان يروعه صمتها والنظرات الساكنة التى تقابله بها وكان يود أن تطرده ليستريح من هذا العذاب ولكنها فى الواقع كانت تخافه كما كان هو يخافها .

وكانت إذا رأته واقفًا مع الجناينى فى الحديقة أو مع إحدى الوصيفات بمدخل القصر تتصور أنه يتحدث عن المنظر الذى رآه فى السينما .. فكان وجه فتحية هانم يصفر ويرتجف وهى تتصور الفضيحة وهى تنشر وتنتشر حتى تصبح حديث مدينة القاهرة كلها ويقول الناس هاهى سيدة المجتمع مبتذلة ورخيصة كإحدى بنات الهوى .

ومنذ حادث السينما وفتحية هانم تفكر فى وسيلة لطرد هذا السائق ، والتخلص منه ولكن كيف تفعل هذا وكيف تأمن شر انتقامه . كانت تعيش فى دوامة حطمتها تمامًا .

وكانت أحيانًا تطمئن نفسها وتقول : إنه صمت وسيظل صامتًا إذ لا يعقل أن يتحدث عن الذى رآه فى الظلام .. ولكن هذه اللحظات المطمئنة كانت تمر سريعًا بمجرد أن يقع نظرها عليه وتعود إلى خوفها وتوجسها .

وكان هو أشد خوفًا وكلما طلبه سيده فى مكتبه يتصور أن ذلك لطرده حتى تلفت أعصابه وظهر أثر ذلك على يديه ورجليه وهو يقود السيارة .

وكان السائق المسكين يعول زوجته وأمه وخمسة أطفال صغار وأفواههم مفتوحة للطعام والشراب فى النهار ، والليل فكيف يتعطل عن العمل شهراً وشهرين وثلاثة ويعود إلى الجوع ، والتشرد من جديد .

* * *

وذات ليلة وكان راجعًا بإسماعيل بك زوج فتحية هانم من الإسكندرية ، ويسرع كعادته انقلبت بهماالسيارة ودارت حول نفسها ثلاث مرات وأصيب هو إصابة بالغة فى قفص صدره ولم يصب إسماعيل بك بأى شىء على الإطلاق .

ونقل السائق إلى المستشفى وهو فى حالة سيئة .

ولما استطاع الكلام زارته فتحية هانم وأحست لما شاهدته وهو مربوط بالضمادات ومحبوس فى الجبس أن الحادث قد مسح من كراهيتها له ، وتعجبت لإصابته البالغة ونجاة زوجها مع أنهما فى عربة واحدة .

وسألته :

– هل هذا أول حادث لك يا أسطى خليل ؟

– فنظر إليها طويلاً ثم قال بتؤدة :

– أجل .. ومنذ خمسة عشر عامًا وأنا أسوق ولكن لم يحدث لى مثل هذا .. والحمد لله أن البيه نجا وأصبت أنا ..

– هل كنت خائفًا واضطربت ؟

– ربما يكون ذلك هو السبب ، ولكن كان لابد أن يحدث لى هذا لأشعر بالغفران .

– ولماذا تطلب الغفران ؟ هل فعلت شيئًا ؟

– أجل قد صدمت رجلاً فى شارع القصر العينى منذ سنوات وأحسب أن الإصابة كانت فى صدره وفى نفس الموضع .

وتعجبت وسألته :

– ولم تتوقف ؟

– أبداً صدمته وجريت فى الظلام .. ولكننى كنت فى الواقع أحمل الوزر وأدور به طوال هذه السنين .. وإذ كفرت عن ذنبى الآن أشعر بأن الله سامحنى .

– أنت رجل طيب يا خليل أفندى فلا تفكر فيما فات .. وأمس تحدثت مع البيه واتفقنا على أن تصرف لك شهريتك كما هى حتى لو عجزت عن العمل .

فابتسم وشكرها وكانت لا تزال تنظر إليه بعد هذه الكلمات ورأى فى عينيها نظرة صفاء فأدرك أنها نزعت الكراهية من قلبها .

وفكر فى أنها ربما تكفر بهذا الصنيع عن ذنبها .. وربما تود أن تحس مثله بالغفران .

ليلة فى بانكوك

إن الطريق من بومباى إلى هونج كونج طويل وساحر .. لا تشبع العين من مفاتنه .. إن المسافر فى هذا الخط يشاهد أجمل المدن .. يشاهد كالكوتا .. ودلهى .. وسنغافورة .. وكراتشى .. ورانجون .

ولكن أجمل المدن على الإطلاق هى بانكوك .. إن جمالها مثير .. إنها تستقبلك كالعروس المجلوة بالأزهار .. والأمطار .. والحرارة الدافقة .

وهبطنا إليها فى ليلة صيفية والأمطار تغسل وجه الأرض .. وكان بالطائرة سبعة عشر راكبًا من مختلف الأجناس وزعتهم الشركة على فنادق المدينة .

ونزل معى فى نفس الفندق رفقائى الثلاثة فى المقاعد الخلفية من الطائرة .. السيدة جاكلين ورفيقها شارل ومسيو فوجى المهندس اليابانى .

وجاكلين ورفيقها أوروبيان مرحان يتكلمان أربع لغات بطلاقة .. ويجيدان كل أنواع الرقص .

ومسيو فوجى رجل تجاوز الأربعين يبدو عليه الثراء . والنشاط .. ويحب شيئين أثناء سفره .. النساء والخمر .

ولذلك بمجرد أن استرحنا قليلاً فى بهو الفندق اقترح علينا أن نخرج بعد وجبة العشاء مباشرة .. إلى مراقص المدينة .

واخترنا مرقصًا قريبًا من الفندق وكان فيه من الحسان ومن مشاهد الرقص ما يغرينا بالبقاء فيه الليل كله .. ولكن مسيو فوجى رأى أن نعود إلى الفندق لنسهر فى «البار» .

ودخلنا البار وشاركتهم الشراب بكأس واحدة .. ثم تركتهم يعبون من الخمر .

وكانت جاكلين تبدو فى هذه الليلة .. أكثر مرحاً مما رأيتها من قبل .. وكانت قد شربت كثيراً .. وأخذت تداعب المهندس اليابانى وتضاحكه وتشرب من كأسه . [illegible] شوجى كأنه يخصها من دون العالم بكل عواطف قلبه .

وكان فى الواقع يتبع هذه السيدة ورفيقها كظلهما منذ أن رآهما فى بومباى وركب معهما الطائرة .

وكان الشاب شارل يشبه جاكلين شبهًا قويًا ويكبرها قليلاً فى السن فكل من يراهما يوقن بأنهما شقيقان .. انطلقا فى رحلة طويلة .

وكانت جاكلين شقراء طويلة العود .. بيضاء البشرة ضاحكة الوجه .. وكان الطقس الحار قد جعلها تتخفف من ملابسها أكثر مما يجب حتى بدت فى الفندق كالمتجردة .

وكنا قد ألفنا هذه المناظر العارية من الأوربيات والأمريكيات فى فنادق .. كالكوتا .. ونيودلهى .. وسنغافورة . ولذلك لم نعجب ونحن نرى جاكلين مرتدية هذه الملابس المكشوفة فى بانكوك .

وكنت أعرف أنها ترتدى هذا الثوب لتغرى المهندس اليابانى وتثيره ليزداد قربًا منها والتصاقًا بها .

وكان الرجل فى الواقع منذ تحركنا من كالكوتا وهو يصرف عليها عن سعة ويغرقها بالهدايا وكنت أراه يدور فى الأسواق ليختار لها أجمل الجواهر وأغلاها . كان غارقًا فى حبها .. وكانت لا تفارقه فى كل جولاته .. وكان شارل ثالثهما دائمًا ويبدو أنه راض كل الرضى عن هذا التصرف .

وكان فوجي في الواقع يحاول في كل مدينة أن ينزل معهما في نفس الفندق .. ولكن هذه الفرصة لم تتح له إلا في بانكوك ولذلك سر كثيراً .

وانطلق يضحك في البار بقلب طروب .. وأخذ يرقص مع جاكلين على موسيقى الجرامفون .. وشارل يرقبهما ضاحكاً والكأس تتمايل في يده .

ثم فرغا من الرقص .. وجلست جاكلين على الكنبة تدخن بعد أن خلعت حذاءها ..

وتقدم إلى المسيو فوجي .. يحييني بكأس من الفرموت .. فتناولته منه شاكراً .. وعاد إلى مكانه بجانب جاكلين .

ولاحظت أنه سيد الموقف وأن شارل المرافق للفتاة ناعم الخد أكثر منها .. وأشد منها خجلاً .. وأنه قد غرق في الشراب من الكأس الثالثة ولم يعد يدري ما هو فاعل .

* * *

واستأذنت منهم وانصرفت إلى غرفتي .. وتنادى إلى ضحك جاكلين حتى بعد أن خلفت «البار» ورائي .

وخلعت سترتي .. وجذبني جمال الطبيعة المحيط بالفندق .. فجلست أدخن في الشرفة .. وكانت الحديقة مزهرة والأنوار تتلألأ كحبات الدر المنثور في غير نظام ولا ترتيب .

وكنت ألمح من حين إلى حين في الشارع المجاور الفتيات الوطنيات خارجات من المراقص وعلى رءوسهن القبعات العريضة يتقين بها المطر . وكان ضحكهن يمزق سكون الليل .

وجعلني الجمال المحيط بي أستغرق فيه .. وأنسى نفسي .. حتى تنبهت على صوت جاكلين بعد أن أضاءت نور غرفتها .. فأدركت أنهم بارحوا البار ليناموا ..

وكنا في جناح واحد وصف واحد .. وللغرف الثلاث شرفة طويلة بالفندق . فخشيت أن يخرجوا إلى الشرفة ويرونى فيأتوا إلى ونقضى الليل فى الحديث .. فانسحبت سريعًا لأنام ..

* * *

وتنبهت وأنا فى الفراش .. على نقر على باب شرفتى الزجاجى .. ولما نظرت وجدت جاكلين واقفة وراء الزجاج ويدها تتحرك بسرعة وكانت بادية الاضطراب .. وتستنجد بى فأسرعت إليها ولما فتحت باب الشرفة .. رأيت شخصًا هناك فى الظلام لا يزال فى الشرفة .. ولما رآنى أخرج وأقف بجوار جاكلين اختفى بسرعة .

وكانت جاكلين ممزقة الثوب .. فأدخلتها غرفتى ووضعت على جسمها العارى «الروب» .

وجلست تبكى على الكرسى ونظرها على باب الشرفة المفتوح .. كأنها تخاف أن يدخل عليها الرجل .. فتحركت وأغلقت الباب لتستريح . وتركت الغرفة فى الظلام لتهدأ أعصابها ولكيلا يشعر أحد من النزلاء بما حدث .

وقدمت لها سيجارة فتناولتها فى الحال وأشعلتها لها ..

وقالت وهى تنفث الدخان .

- أرأيته .. ؟

- من .. ؟

- مسيو فوجى .

وتجاهلت أنى رأيته منذ لحظات وهو يطاردها فى الشرفة .. وقلت :

- أبدًا .. لم أر شيئًا .

- لقد حاول اغتصابى .. دخل على غرفتى .. ولما قاومته ..
ضربنى ومزق ثوبى ..

- وأخوك .. شارل .. أين كان فى ذلك الوقت ؟

- كان نائماً .

- ولم يشعر بما حدث ؟

- أبداً .. لقد شرب .. كما تعرف .. وهو عندما ينام .. لا يحس بما يجرى حوله .. ! هكذا طبيعته ..

- على أى حال .. أنا أعذر مسيو فوجى ..

- لماذا ؟

- لأنك .. أثرته .. بهذا الثوب .

- كل الفتيات تلبس مثل هذا الآن .. وأنا كنت أتصور أنه جنتلمان .

- بالطبع .. !

وتناولت سيجارة أخرى .. وظلت فى مكانها .. ثم لمحت دورق الماء فانتصبت . لتشرب وقدمت لها الكوب .. وسألتها :

- ولماذا اخترت أن تأتى إلى ؟

- لأنك صديقنا .. ولأنك قبل كل شىء جنتلمان .. !

- كان الأحسن أن توقظى شارل .

- هل أزعجتك ؟

- أبداً .. وإنما أخشى .. أن يحدث مثل هذا .. فى مكان آخر .. يجب أن تجعليه أكثر حساسية بالنسبة لك ..

وابتسمت وقالت :

– هذا صحيح . ويجب أن نختار أصدقاءنا .. فى السفر . !

– والآن يجب أن تستريحى .. فى الفراش ..

– وأنت ؟

– سأظل فى مكانى .. على هذا الكرسى ..

ونظرت إلىّ فى الظلام .. ولم أر تعابير وجهها فى هذه اللحظة .. ولكننى رأيت البريق لا يزال متألقًا فى عينيها .. ولم أكن أدرى أهو من تأثير الخمر .. أم من تأثير انفعالها لما حدث لها مع الرجل الذى كان يطاردها منذ ساعة .

وراحت ثم جاءت فى الغرفة .. وتركت الروب ينزلق عن جسمها ودخلت فى الفراش .

* * *

وبعد الشروق أيقظتها .. لتذهب إلى غرفتها .. وكان شارل لا يزال نائمًا .

* * *

ولما جاءت ساعة الإفطار .. ودخلت صالة الطعام .. وجدت الثلاثة يجلسون إلى مائدة واحدة . وجاكلين بجوار فوجى .. وكأنه ما حدث شىء ..

ولما رأتنى استقبلتنى بالضحك .. وسألتنى :

– لماذا .. تأخرت فى النوم .. هل أكثرت من الشراب .. مثل شارل ؟

ونظرت إليها مأخوذاً .. ولكننى لما رأيت العينين تبرقان مرة أخرى . ذلك البريق الذى رأيته فى الليل .. ويشع منهما كل دهاء الأنثى .. لم أعجب لهذا السؤال .

وجلست معهم ..

وقالت .. باسمة :

– اشرب عصير التفاح .. أولا ..

وتناولت الكوب .. وأنا أنظر إلى عينيها ..

* * *

ولما أخذنا الطريق إلى المطار بعد ساعة .. ودخلنا فى دائرة الجمرك . رأيت جواز سفر شارل مفتوحًا على الطاولة أمام الموظف المختص .

ورأيت صورة جاكلين بجوار صورته فى الخانة المعدة للزوجة .. !

وأخفيت الاحمرار الذى ظهر على وجهى فى هذه اللحظة بأن أسرعت ودخلت فى جوف الطائرة .

القفل

أقمت فى عمارات الشركة العامة للتأمين بحى عابدين فترة طيبة من حياتى وكنت أسكن فى الطابق الرابع من العمارة الثانية فى الشارع . وأشعر براحة تامة فى هذا المسكن فقد كان قريباً من المستشفى الذى أعمل فيه ومن عيادتى الخارجية ومن كل ما يتطلبه الطبيب الذى يعيش ويعمل فى قلب العاصمة .

وكنت لكثرة مشاغلى قليل الاختلاط بالسكان ونذر ما أميز وجوههم . وكان معى خادم واحد فى البيت وهو فى الوقت نفسه تمرجى فى العيادة .. فلم تكن حاجتى إليه فى البيت ملحة لأنى كنت أتناول معظم الوجبات فى الخارج .

وحدث بعد ظهر يوم من أيام الخميس وكنا فى شهر أغسطس والقاهرة تتلظى وتخرج أنفاسها اللاهثة تحت الشمس الحامية .. فأغلقنا النوافذ الخارجية وفتحنا المناور البحرية وأحسسنا بوطأة السكون .. فقد شلت الحرارة حركة الناس فى البيوت والشوارع .. وعلى حين غرة سمعت صرخة من داخل العمارة وكثر بعدها الصياح والهرج .

وجريت إلى الخارج ونظرت من بسطة السلم فرأيت سيدة ولم أكن قد شاهدتها من قبل أبداً تصرخ وهى واقفة فى شرفة المطبخ .. وراء الباب الصغير المغلق .. وكان صوتها يمزق القلب والسكان يطلون عليها من السلم والمناور ووجوههم صامتة .

ورأيت البواب يتسلق عمد الأسانسير ليصل إليها وهى ما زالت تدفع الباب .. بقبضتها وتولول .

وعلمت أن ابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات كان واقفًا معها فى شرفة المطبخ وغفلت عنه لحظات فى بعض شئونها فدخل المطبخ وأغلق وراءه باب الشرفة الأوتوماتيكى وأصبح وحده فى المطبخ وفى داخل الشقة وكان البوتاجاز فى المطبخ مشتعلاً وتركت الأم المفاتيح كلها فى داخل الشقة .. ووقفت مرتاعة تضع أنفها على الباب كأنها تشم رائحة النار فى لحمها .

وحاول البواب فتح باب البلكونة بالقوة فلم يفلح وحاول تحطيمه بكل الوسائل التى لديه فعجز .. فاتجهنا إلى باب الشقة الرئيسى وجربنا فيه كل المفاتيح التى قدمها من حضر من السكان فلم ينفتح .. وهززناه بكل الأشياء الثقيلة فلم يرتج القفل وأدركنا التعب واليأس .

وكنا كلما سمعنا صراخ السيدة فى الناحية الأخرى نعود إلى العمل .. وأرسلنا من يأتى بنجار سريعًا .. ولكن الرسول أبطأ فى العودة فعدنا إلى معالجة الباب بقوة .. وأخيراً انفتح ودخلت سريعًا وكنت أول من فتح لها باب الشرفة ووضع لها ابنها على صدرها فرمقتنى والدمع يبلل خديها ثم دفنت رأسها فى صدره .

وكنت أعرف أنها فى حاجة إلى الوحدة لتطلق العنان لعواطفها فقد تمزقت أعصابها فى ساعة من ساعات الهول كما تعرضت وهى فى ثوب البيت الخفيف لنظرات الناس الوقحة فأخذت البواب معى إلى الخارج وسحبنا وراءنا الباب .

وأصبحت أرى هذه السيدة بعد الحادث وهى نازلة وطالعة فى المصعد وكنا نتبادل النظرات الصامتة .

وكانت فى الثانية والثلاثين من عمرها طويلة ورشيقة سوداء الشعر جميلة العينين وكان ثوب الحداد يزيد من سنها ولكنه جعل وجهها أكثر تألقًا وأشد فتنة .

والظاهر أن الحادث الذى كنا نتصور جميعًا أنه مر بسلام قد ترك أثره فى نفس الطفل فقد رأتنى ذات صباح وأنا فى الطريق إلى المستشفى وسألتنى عن مكان العيادة لتعرض على الطفل فقلت لها :

– تفضلى يا سيدتى بعد الظهر من السادسة إلى الثامنة مساء ..

شارع بهلر ..

ووصفت الموقع بدقة وواصلت طريقى .

وفى الساعة السابعة من اليوم التالى دخلت على حجرة الكشف .. وهى ممسكة بطفلها وكانت ترتدى ثوبًا من الحرير الأسمر طويل الأكمام طويل الذيل وفى معصمها الأيسر ساعة ذهبية وفى أذنيها قرط إسبانى جميل الشكل .. والعنق والأصابع عارية من الزينة .

فأجلستها وسألتها عما يشكو منه الغلام فقالت لى أنه يقوم فى الليل مفزوعًا ويصرخ كأنه يرى حلمًا مروعًا وأنها تعانى من هذه الحالة وتتألم وقد ذهبت به إلى كثير من الأطباء دون جدوى ولم تكن تعرف أنى طبيب .. ثم طبيب أطفال على الأخص إلا أخيرًا بعد أن عرفت ذلك عرضًا من خادمى .

وكنت أود أن أعرف بعض ما يهمنى كطبيب عن أسرة الطفل فعلمت أن والده مات من سنتين وكان موظفًا فى الحكومة وأنه لم يخلف سواه وأن حالة الأسرة ميسورة والطفل لا ينقصه أى شىء مادى .

وسألتها :

– أليس للطفل أعمام ؟

– له عمة واحدة ..

– ألا تزوره ؟

– لا .. رأيتها مرة واحدة فى الجنازة .. وأظنها تعيش فى دسوق .. ومنذ وفاة زوجى منقطعة كلية عن أسرته .

وفحصت الطفل فحصاً دقيقاً فلم أجد به أى عوج .. أو أية ظاهرة مرضية ..

– ليس بابنك أى مرضَ على الإطلاق ..

– كيف .. أنظر حاله ؟

وفتحت فمها مدهوشة !

– الظاهر أنه مدلل .. وأنه لا يأكل .. وسأعطيه دواء فاتحاً للشهية .

ولاحظتها تمسك بيده وهى جالسة وتمنعه من الحركة .

فقلت لها :

– اتركى يده .. دعيه يلعب ..

– أخشى أن يحطم بعض الأشياء التى على المكتب .

– دعيه يحطمها .. ولا تمسكى به هكذا وتضايقيه بالقيود .

– إنه وحيد !! واعذرنى .

وكانت خجلى وبدت فى خجلها أكثر نضارة وأكثر رقة .

وأعطيتها تذكرة الدواء ودفعت الغلام أمامها .. وقبل أن تبلغ الباب أمسكت بيده ..

وأصبحت السيدة زبيدة من زبائنى .. كانت تجىء إلى عيادتى مرتين فى الشهر وأشفقت عليها من كثرة المصاريف .. ولم يتحسن الغلام ولم أستطع رغم كل جهودى أن أعرف العلة . وكان الغلام عصبياً كثير العويل تنتابه حالة تشنج .. ولم أستطع أن أفعل شيئًا أكثر من أن أهدىء أعصابه وأعطيه مقويات . وكان أشق الأشياء على نفسى أن أعالج صغيراً لا يستطيع أن يوضح مشاعره ويحدد آلامه .. وكنت أتصور أن العلة اتته من حادث الشرفة القريب . ولكننى علمت منها أن حالته العصبية قديمة لازمته منذ ولادته .. ولم أستطع أن أوجه إلى السيدة أكثر مما وجهت من أسئلة .. إذ كان فى ذلك حرج .

وقلت لها بعد أن يئست من الدواء :

– خذيه وسافرى به عند أهلك .. ولولا الخريف لقلت لك اذهبى به إلى البحر ..

– سأحاول .

ولكننى وجدتها تحمله على صدرها فى مدخل العمارة بعد ذلك بأسبوع .. فأدركت أنها لم تسافر .

وفى ضحى يوم من أيام الجمعة وكان المصعد معطلاً .. رأيتها جالسة على السلم وبجانبها الطفل .. وكان يبدو عليه أنه فرغ من بكاء طويل .

وقالت لما رأتنى لتوضح الموقف .

– مش عاوز لا يطلع ولا ينزل .

وبدت لى فى جلستها هذه وفى عتمة السلم .. كالغزال الذى استراح بعد مطاردة الصياد له واطمأن قلبه .. بدت جميلة مشرقة ولولا خوفى من صعود السكان ونزولهم لجلست بجانبها .

ولاعبت الغلام وكنت أود أن أحمله فنفر مني . ورضى أخيراً بأن تصعد به إلى شقتها .. وحييتها وانصرفت .

وأحسست وأنا فى الطريق أن شيئًا قويًا يتولد فى داخل نفسى على مر الأيام كلما التقيت بهذه السيدة .. ولم أكن فى مقابلاتى الأولى أستطيع أن أتبينه بوضوح .. ولكنه وضح أمامى الآن . وتحددت مشاعرى .

ولقد أدركت أننى عطفت عليها ثم تطور الأمر إلى هيام .. ولم أستطع أن أحدد الغرض من هذه الصبابة أو أعرف نهايتها .. وكانت مشاعرى كل يوم تتوقد وتزداد اشتعالاً .

ولم أشأ أن أطفىء النار لأنى كنت أشعر بالسعادة .

ولقد أبعدتنى فى فترة حية من حياتى عن الدنس وعن القمار وعن كل ما يتردى وينغمس فيه الشاب الذى يجد لديه المال الوفير .

وكانت صورتها فى مخيلتى فى النهار والليل .. ولم أكن أفصل الغلام عنها أبداً وغدوت أكثر إنسانية ورحمة فى معاملتى للمرضى .. وللأطفال الفقراء وخصصت يوم راحتى فى المستشفى لمعالجتهم مجانًا فى عيادتى .

ورغم الجانب المشرق من هذه العواطف الإنسانية .. كنت أحيانًا أسائل نفسى عن الغرض من هذا السعار الذى أزيد من ناره طواعية .. أنا لا أستطيع حتى أن أصحبها فى نزهة بريئة على النيل .. فكلانا يخضع لتقاليد صارمة .. وأية حركة طائشة من جانبى ستعرضنا للدمار .

وبدا لى الزواج منها نهاية طبيعية لهذا الإعصار .. ولكننى لم أكن قد فكرت فيه جديًا .. ولم أكن قد تبينت عواطفها نحوى أو بدت لى منها إشارة أشتم منها روائح الحب .

كانت عواطفها عواطف الأنثى المهذبة نحو رجل تلقاه فى البيت .. صحيح أننى كنت ألاحظ عليها السرور وفيض الدم على وجهها كلما رأتنى .. ولكننى كنت أرجح ذلك إلى معاملتى الطيبة لها وعنايتى الزائدة بطفلها .

وحدث شيء جعلنى أعيش كالمجنون عشرة أيام كاملة .. فقد اختفت عن بصرى ولم أعد أراها فى البيت أو فى العيادة .. وقدرت أنها عملت بمشورتى وسافرت ولعنت نفسى وأحسست بالفراغ وانتابتنى حالة عصبية وساءت معاملتى للناس .. وأصبحت أعيش فى دوامة من الأسى .

ثم استيقظت فى ساعة متأخرة من الليل على من يقرع بابى بعنف فقمت فزعًا ولما فتحت الباب وجدتها .. وطفلها على صدرها .. وكان شبه ميت .

ووجدت درجة حرارة الغلام مرتفعة وحالته خطيرة .. ولكن خادمى قد روح .. وأحتاج إلى ماء ساخن وبعض الأشياء الضرورية للإسعاف السريع .. فرأيت أن نعيد الغلام إلى شقتها لأحقنه فى فراشه لأنه سيعرق وأحب ألا نعرضه للتيار .

ودثرناه فى بطانية أخرى وهبطنا به إلى شقتها وقمت بإسعافه وساعدتنى هى كممرضة بارعة .. ثم جلست على الكرسى تمسح عبراتها بعد أن رأته يعود إلى الحياة .

وكان باب الغرفة الموجود فيه فراش المريض مفتوحًا فأغلقته لأمنع التيار ولأجعله يعرق سريعًا .

ورأيت وجهها يظهر عليه الاضطراب وأنا أغلق الباب .. فأسفت لأنى كنت أتصور أنها تعلو بتهذيبها وعقلها عن هذا التفكير المسف .

والظاهر أنها قرأت خواطرى وأرادت أن تنفيها فى الحال .

فقالت وهى تبتسم فى مرارة :

– كان والد يحيى .. يغلق على الباب بالمفتاح .. فأرجو معذرتى أن اضطربت لكل باب يوصد أمامى .

ولم أفهم المسألة بوضوح وسألتها فى استغراب .

– ماذا ؟

– كان زوجى .. يغلق على الباب بالمفتاح .. وهو ذاهب إلى عمله .. وتصور حال امرأة تعيش مع مثل هذا الرجل المخبول خمس سنوات كاملة .

وأخذ وجهها ينضح بالعرق .. ونحن فى صميم الشتاء .

– ولماذا لم تطلبى الطلاق .

– ومتى يتم لو طلبته .. ومن يعيننى عليه .. لقد استغل بنذالته موت أبى وأمى ولما لم يجد رجلاً أمامه من أسرتى .. يوقف نزواته عذبنى وأهدر كرامتى كأنثى .. وكإنسانة .. ولطخ هذا الشرير وجهى بالسواد .. ورمانى بالوحل .. فمزق أعصابى وفى خلال هذه الأعصاب الممزقة حملت بيحيى .. فجاء كما ترى .. حمل جناية أبيه فى دمه .

وأخذت تفيض بالكلام .. وهى تمسح عبراتها .. أطلقت كل عواطفها المكبوتة .. والواقع أن هذا الاعتراف الأخير أفادنى كطبيب وجعلنى أمسك الخيط .. وأدركت علة الغلام .

وقلت لها بعد أن جسست نبضه .

– ثقى أنه سيشفى .. وستكون هذه الليلة نقطة التحول ولن ترينه مريضًا بعد الآن .

فسالت عبراتها وفاضت مشاعرها .

ودقت الساعة فى الصالة معلنة نصف الليل .. وهزتنى نغماتها الحلوة .. وعرضت على زبيدة الزواج وأحسست بالدفء فى ليلة الشتاء المقرورة .. وأحسست بعطر زبيدة وبأنفاسها الحارة تملأ جو الغرفة .. ونسيت متاعبى من مهنتي الشاقة .. ونسيت وحدتى فى بيتى وجفاف حياتى .

وقلت لها وأنا أنهض إلى الصالة لأدخن سيجارة :

- عندك كبريت ... ؟

وناولتنى العلبة بسرعة .. وأشعلت السيجارة وقلت وأنا أنظر إلى وجهها الساكن :

- ربما عوضك الله .. عن هذا الرجل .. وتأخذى فكرة طيبة عن الرجال .

- لا .. لا .. كفى تجربة .. أنا سعيدة بحياتى .

- ألا تفكرين فى الزواج ؟

- أبداً ولو بنى قصراً من الذهب .

وأسود وجهى فقد كانت كلماتها قاطعة .

وقالت بعذوبة .. وهي لا تدرى الخنجر الذى صوبته إلى قلبى !

- تسمح .. أعمل شاى ..

- الواقع أننا فى حاجة إليه .. لأنى سأعطى الحقنة الثانية ليحيى بعد أربع ساعات .

وسأصعد إلى شقتى لأستريح قليلاً . وعندما أنزل ثانية أرجو أن تكونى متيقظة .. وإلا سأحطم الباب .. !

وضحكت ومشت رشيقة إلى المطبخ .

وشربنا الشاى معًا .. وأحسست بالدفء .. أحسست بدفء أكثر من نظراتها الناعمة وأنوثتها الدافقة .

- إوعى .. تنامى ..

فابتسمت فى وداعة .

* * *

وعدت إليها فى ميعاد الحقنة فوجدتها قد غيرت ثوبها .. وبدت فى أبدع زينة .. ورأيت فى عينيها الدعجاوين .. أثر النعاس .. ولاشك أنها أغفت وهى جالسة ولم تأخذ كفايتها من النوم .. وخيل لى أنها تود أن تنام على صدرى .

وبهذه المشاعر الحالمة حقنت الغلام .. وأسرعت صاعداً إلى شقتى .. لأدعها تستريح .. ولأكمل سلسلة أحلامى .

* * *

وشفى الطفل .. وبعد شهرين اثنين انقطعت عنه النوبات العصبية وحالات التشنج .. وفرحت زبيدة وظهرت السعادة على وجهها .

* * *

ورأيتها ظهر يوم وأنا عائد من الخارج .. واقفة فى المدخل تنتظر المصعد .. ومعها طفلها .. فسلمت عليها .. ولما هبط فتحت لها الباب .. ورأيت تأدبًا منى أن أركب فى المرة التالية .

فقالت :

- اتفضل .. احنا خفاف ..

- الأسانسير .. قديم .. أحسن يتعطل فى السكة ..

- اتفضل .. أنا بخاف أطلع فيه لوحدى ..

وسرنى كلامها .. فدخلت .. وأغلقت الباب وضغطت على الزر .. وأصبحنا ثلاثتنا محصورين فى متر مربع .. وكان المصعد قديماً ويتحرك بمشقة .. يلفظ أنفاسه بعد كل متر صاعد .

وتمنيت وأنا أحس بأنفاسها وعطرها يملأ هذا المكان الصغير .. أن يتعطل بنا ونحن معلقين فى الفضاء بين السماء والأرض ولا أدرى لم راودتنى هذه الأمنية السخيفة ولكنها ظلت مسيطرة على .. حتى منعتنى من الحديث معها .. واكتفيت بأن أستمع إلى صوت المصعد .

وكانت زبيدة قد أرخت أهدابها .. وزمت شفتيها وأمسكت بيمناها غلامها .. وبدت لى فى هذه اللحظة أجمل وأنضر ما وقعت عليه عيناى فى النساء .

وأطلقت العنان لأحلامى .. وفجأة سمعنا طقطقة ..

فقالت خائفة :

- فيه .. إيه .. ؟

وضمت بيدها ابنها إليها وهى واقفة كأنها تحميه من السقوط .

فانحنيت ورفعته سريعاً إلى صدرى فشكرتنى بصوت خافت .

وبعد هذا بقليل .. أحسسنا بهزة فارتمت على الغلام مذعورة .

ووجدت ذراعى التى لا تطوق الغلام .. تشدها إلى صدرى .. وإلى ظهر الغلام أيضاً .. لتحس بالأمان .

ووقف المصعد .. فخرجنا مسرعين وحملت عنى الطفل .. واستأنفنا الطريق صعداً على السلم .

وعلى بابها اعطتنى المفتاح .. لأن الغلام كان يعوقها عن فتح الباب .

ولما دخلت أمسكت بيدها .. فتركتها فى يدى ولم نتبادل أى كلام .

* * *

وأردت أن أشعرها أن المصعد رسم طريق حياتنا الجديدة .. وأنه ضمنا لحظات ليجعلنا نفكر فى أننا خلقنا لنعيش معاً إلى نهاية حياتنا .

وظهر الخجل على وجهها وهى تقول :

– عندى نفس الشعور ..

* * *

وتم زواجنا ببساطة .. وانتقلنا إلى بيتنا الجديد فى شقة عالية فى الروضة .. واخترت الروضة .. لنرى النهر .. من الشرفة .. ولنجلس تحت السماء المرصعة بالنجوم ..

وفى صباح يوم وأنا ذاهب إلى عملى خرجت زبيدة لتودعنى على الباب الخارجى كعادتها ..

ولما هبطت السلم .. تذكرت أننى نسيت علبة السجائر فى الداخل .. فصعدت أفتح الباب ..

وأحست زبيدة بحركة المفتاح فى القفل ففتحت الباب قبلى وسألتنى مضطربة :

– أحمد .. أنت عاوز تقفل الباب ؟

- أيوه .. وكان هو معذوراً في حبس هذه الفتنة عن الناس ..

- صحيح ؟

- صحيح .. !

وضحكت .. فتورد وجهها .. واطمأنت لما أدركت سبب عودتي .

وقالت وأنا أضع السجائر في جيبي .. وأعود إلى الخارج .

- أحمد ..

- نعم ..

- صحيح .. مش حتقفل الباب .. أبداً ..

- أبداً ..

- احلف .. !

فوضعت يدي في جيبي وأعطيتها المفتاح .

وعانقتني على السلم ..

المفتاح

كان قطار الليل يتجه إلى القاهرة فى ليلة ضريرة النجم من ليالى الشتاء ، وكان معظم الركاب قد استسلموا للنوم بعد العشاء لأن الغالبية منهم كانت تقصد العاصمة والقطار يبلغها فى الصباح . تجمعوا على أنفسهم وتغطوا بمعاطفهم وبطاطينهم وتوسدوا أكفهم .

وكان القطار من القطارات السريعة الفاخرة فى خط الصعيد وليس فيه عربات للدرجة الثالثة .. وأخذ يشق قلب الليل كالسهم المشتعل وهو يرسل الشرر .. ويبدو للمسافرين المنتظرين فى المحطات أنه يمضى بأقصى سرعته حتى لم يعد هناك من زيادة لمستزيد .

وكلما وقف فى محطة من المحطات زفر غيظًا وقذف بمارجه كالثعبان الأسود الهائج .

وكانت الإضاءة فى العربات شاحبة والمقاعد الجديدة يعلوها التراب .. والريح تصفر فى النوافذ .. وتزوم من الخارج .. وأعمدة التلغراف والتليفون التى على جانب الشريط تهتز وتصفر من سرعة القطار وسرعة الريح ..

ولم يكن القطار هذه الليلة مزدحم بالركاب لأنه لا يحمل بوستة السودان .. وما وراء الشلال ..

وكان يجلس فى أحد الدواوين الخلفية وفى آخر عربة من عربات الدرجة الثانية مسافران فوق الأربعين أخذا يدخنان فى صمت .. وعيونهما على لوحة فوتوغرافية لمعبد الكرنك .. موضوعة فى صدر الديوان .. وفى هذه اللحظة فتح باب الديوان بعنف ودخل منه شاب

يرتدى معطفًا ثقيلاً فوق بدلة كحلية ووراءه جندى مدجج بالسلاح .. وجلس الشاب في الزاوية اليسرى وأمامه الجندى الذى أراح البندقية على الأرض واعتمد عليها بساعده .

ولاحظ المسافران أن الشاب كان يغطى يديه المضمومتين بمنديل أبيض فلما انزاح هذا ظهر قيد حديدى فى يديه .. كما بدت بسمة شاحية على وجهه عندما رأى عيون المسافرين تحدق فيه .. واتخذ الحارس مكانه وجلس جامداً وعيناه تتفحصان الراكبين المرافقين له فى هدوء ليطمئن قلبه .. وخيم الوجوم على الديوان أول الأمر لمدة دقيقة كاملة ولما تبادلوا السجائر وتصاعد الدخان الأزرق وهو يتلوى فى سقف العربة حلت عقدة اللسان ... وأخذوا يتحدثون فى مختلف الشئون .. ولكن أحداً من المسافرين لم يرض أن يسأل عن ذنب الشاب الذى وضع فى يده القيد ، أسدلا على هذا الستار ..

وكان القطار يطوى القرى والنجوع ويمضى فى الليل كالثعبان الكبير الأسود وهو يصفر ويثير فى المحطات الصغيرة التى يقف فيها زوبعة من الغبار . وكانت هزاته الرتيبة تجلب النعاس حتى لمن لم ينعس من الركاب .. وبدا الحارس نفسه يهوم ، ثم أخذ القطار يحبس أنفاسه ويتمهل وهو داخل فى محطة أسيوط .. وانعكس نور المحطة القوى على العربات .. وتيقظ بعض الركاب فقد عضهم الجوع وأطلوا من النوافذ يشترون الطعام من باعة الرصيف .

* * *

ونزل فى هذه المحطة أحد الراكبين من الديوان وبقى الحارس وسجينه وراكب واحد . وكان الحارس يود لو ينزل هذا الراكب أيضًا فى أى محطة قادمة .. إذ لم يكن يحب أن يشاركه أحد فى الديوان لتكون

الحراسة محكمة وفى مأمن من كل طارئ . ولكنه عندما طالت المسافة .. وتحدث أكثر مع الراكب .. أحس بالألفة معه وأدرك أنه رجل طيب فاطمأن له تماماً حتى كان ينعس لفترات متقطعة .

وبين أسيوط والمنيا لم يكن هذا القطار يقف فى أية محطة متوسطة .. فلما تهادى وهو يدخل مشارف المدينة كان المطر يتساقط والريح تصفر وأرض المحطة مبتلة .. وكانت المصابيح تلتمع وتتموج على الرصيف الذى ازداد بريقاً .

وكان المطر قد حجز الركاب عن الرصيف فبدا خالياً فى ليلة كادت الريح أن تتحول فيها إلى عاصفة .. وكانت فروع الأشجار فى خارج المحطة تهتز كأنها ستتقصف .. والهواء البارد يدوم ويلسع الوجوه .

* * *

ولما تحرك القطار فى طريقه ظهرت المسكنة على وجه الشاب المقيد وهو يرى الراكب الآخر يحرك يديه فى حرية وينزل حقيبته الصغيرة من فوق الرف ويخرج منها شيئاً .. ثم يعود فيغلق الحقيبة بالمفتاح .. ويعيدها إلى مكانها .. وأبقى حاملة المفاتيح فى يده فترة طويلة ثم وضعها فى جيبه .. والشاب المقيد ينظر إليها جيداً بعينين لا تطرفان ..

وكان الراكب قد لاحظ نظرة الشاب الذليلة فود بجدع الأنف لو يعرف جريمته .. فلم يكن مظهره يدل على أنه مجرم أو ممن يخرجون على القانون ... وكان يؤلمه أن يوضع القيد فى يد شاب له مثل هذه الدماثة .

وكلما ود أن يهمس فى أذن الحارس ليعرف حقيقة المسألة استحيا من هذه الحركة وعدها ليست من آداب اللياقة .. وأنها ستجرح شعور الشاب .. وستزيد المسألة تعقيداً ..

ثم راح يفكر فى الجريمة التى يمكن أن يرتكبها شاب له هذا المظهر المتألق وأخذ يدير الأمور فى رأسه من كل الوجوه حتى اهتدى أخيراً بأنه فى الأغلب مزيف أو مختلس .. ورجح الحالة الأخيرة .

وبعد هذا الخاطر وجد نفسه يقف فى صف الحارس .. كانا فى داخل إطار المجتمع أما الثالث فهو خارجه لأنه مخرب .

كان الاثنان هما خط الأمان أما الثالث الذى فى يده القيد فهو العضو الفاسد الذى يجب بتره .

ووضحت وتكونت الصورة تماماً على حقيقتها ..

* * *

ونهض الحارس يحمل بندقيته ليذهب إلى دورة المياه وهو مطمئن تماماً .. إلى الراكب الموجود فى الديوان .. وقال له بعينيه :

– حاذر من هذا المجرم ..

فرد عليه هذا بعينيه أيضاً :

– اطمئن .. تماماً .. وسأراقبه حتى تعود ..

وما غابت خطوات الحارس فى الممر الشاحب الضوء .. حتى نظر الشاب إلى الراكب بدماثة .. وحاول بيديه المضمومتين أن يخرج شيئاً من جيبه .

فسأله الراكب :

– أى شىء تطلب ؟

– علبة السجاير ..

– خذ سيجارة من عندى ..

وأخرج علبة سجائره ومعها حاملة المفاتيح ..

– شكرًا .. إننى متعود على صنف معين .. ولا أستطيب سواه ..

فوضع الراكب حاملة المفاتيح بجانبه فى المقعد ..

وأخرج للشاب علبة سجائره من جيب معطفه ..

وناوله سيجارة بعد أن أشعلها ... له ...

وقال له الشاب :

– خذ واحدة ، إنه صنف جيد ..

– لا شكرًا .. هذا واجبى ..

وقال الشاب للراكب فى صوت رقيق :

– هل تسمح ترينى حاملة المفاتيح هذه ؟

– تفضل ..

فتناول الشاب حاملة المفاتيح ... وأمسك بمفتاح صغير منها .

وقال فى استعطاف :

– هل نجرب ؟

– ماذا .. ؟

– هذا المفتاح فى القيد ..

– قطعًا لا يفتحه .. فلهذه القيود مفاتيح خاصة ..

– إنه ما استعصى على شيء أبداً .. كل ما أرجوه هو أن تسمح لى بأن نجرب ..

– مجرد تجربة .. ؟

– مجرد تجربة ..

– وإذا انفتح ؟

– سنعيد إغلاقه .. لإنه لا نفع من فتح القيد فى قطار سريع .. هذا وبيننا وبين بنى سويف .. ساعة كاملة ..

– وإذا حدث العكس .. وانتهزت هذه الفرصة وصعدت إلى سطح العربة مثلاً .. ؟

– تكون قمت بأعظم عمل إنسانى فى حياتك .. !

– لماذا .. ؟

– لأنك عاونت مظلوماً على أن ينجو بجلده ..

– ومن يدرى أنك مظلوم .. ؟

– الله أعلم . جرب المفتاح قبل أن يعود الحارس أرجوك ..

وتردد الراكب طويلاً وتحت نظرات الشاب المستعطفة الذليلة .. ادخل المفتاح فى القفل وحركه بهدوء .. ولما أحس بأنه ينفتح فعلاً .. أعاد إغلاقه بسرعة ..

فسأله الشاب بغيظ :

– لماذا لم تفتحه .. ؟

– لم ينفتح ..

- لقد أحسست بحركة القفل وهو ينفرج ..

ونظر الشاب إلى الراكب الذى خانه بغيظ مسعور .. ثم تمالك نفسه وقال بهدوء :

- إن كنت تريد أجراً .. أطلب ما تشاء قبل أن يعود الحارس ..

- أمعك نقود .. ألم يفتشوك .. ؟

وأحس الشاب بأن الرجل نذل وأنه يطلب الأجر فعلاً ..

- ضع يدك .. خلف الجيب الأيسر .. هناك جيب سحرى وسترى الأوراق المالية .. وخذ كفايتك ..

ومال الراكب بجذعه على الشاب ليدخل يده فى الجيب السحرى الذى حدثه عنه . وهنا نهض الشاب بسرعة وضرب الراكب على رأسه بقبضة الحديد .

وسقط الراكب على أرض الديوان فاقد الوعى ..

وفى هذه اللحظة أطل الحارس من الباب .

فى البحار

أقلعت «هرقل» من ميناء «بيريه» فى جو ينذر بالعواصف .. ولكنها كانت سفينة ضخمة لا تعبأ بالأنواء .. تصارع الأمواج وتغلبها .. وتشق الماء كأنها المحراث .. وهى ثابتة شامخة كالطود .

ركبتها من الإسكندرية وصحبتها فى كل جولاتها فى موانىء البحر الأبيض .. ورأيت الركاب من كل الأجناس .. يتركونها ليصعد غيرهم .. وبقيت أنا .. «على الظهر» كأننى بحار فيها .. لأنزل فى آخر جولة .. وكانت وجهتى كونستنزا .. لأركب للدانوب ..

ولما خرجت السفينة من البوغاز .. وانطلقت تتهادى .. فى عرض البحر متجهة إلى الشمال .. كنا نقترب من الظهر .. فدخلت على «صوفيا» بالشاى وهى تبتسم وقالت :

– لقد وجدت لك عروساً .. جميلة .. وهى مصرية مثلك ..

– خرجت من البحر .. !

– لا .. ركبت من بيريه .. وهى ذاهبة بصحبة والدها .. إلى فينا مثلك فستجد خير رفيق .. كم هى جميلة ..

– مثلك .. لا أظن .. !!

– دعك من هذا الإطراء .. إنها ككواكب السينما .. تعال فوق لتراها .

ولما كنت لم أركب البحر لأبحث عن عروس فإننى لم أعر المسألة أى اهتمام .. وأخذت أشرب الشاى وبقيت صوفيا فى مكانها على الباب معتمدة بيدها على العضد .. ثانية رجلها .. كأنها تتهيأ لقفزة عالية ..

وبدت لى أكثر فتنة مما رأيتها أول ما نزلت السفينة .. أحببتها .. وكنت أود أن تظل السفينة تدور فى البحار وتذرعها طولاً وعرضًا .. دون أن ترسو على بر .. وأن تبقى صوفيا بجانبى .

وتحت تأثير هذه المشاعر الحالمة عشت فترة من حياتى .. وكانت صوفيا .. فتاة فقيرة .. يعيش أخوها فى البحر .. مثلها .. وكلما التقى بها عرضاً فى ميناء من الموانىء أو فى بيتهم .. يعطيها كل ما حمله من أسفاره .. وأخذت تقدم لى الأشياء الصغيرة لأشتريها ..

ولقد ملأت حقيبتى بأشياء لم أكن أفكر فى شرائها على الإطلاق .. أرضاء لنزواتها ..

وكانت فتاة حالمة .. وتتحدث أكثر من لغة .. وأمنيتها أن تعثر بين ركاب «الكمرات» من يقدمها إلى الشاشة !!

وكانت كلما فرغت من عملها تأتى إلى فنجلس فى كانتين الدرجة الثالثة .

وحدث قبل الغروب وكنت صاعداً إلى السطح .. لأرقب قرص الشمس وهو يتدلى فى جوف البحر .. وكان هذا المنظر الساحر لا يفوتنى قط .. أن رأيت شيخًا .. يصعد السلم أمامى .. وكان يعتمد على كتف فتاة .. وزلفت رجلاه .. وكاد يهوى على السلم .. فتلقيته وسندته مع الفتاة وشكرنى الرجل .. بالفرنسية .. وهو يحسبنى أجنبيًا ، فلما عرف أننى مصرى .. كاد يطير من الفرح .. فقد كان يبحث عن هذا الشخص ليأتنس به ويتحدث بحرية وطلاقة .. وجلسنا فى الصالون نستمع إلى الموسيقى الهادئة .. وكانت الفتاة قد جلست ناحية .. وأخذت تكتب بعض البطاقات المصورة .. لترسلها كتذكار إلى أهلها ..

وعلمت من الرجل أنه من رجال الأعمال فى الإسكندرية .. وأنه ذاهب إلى فينا ليستشفى عند طبيب مشهور .. واختار هذا الطريق ليركب الدانوب .. ويرى البسفور .. فيجمع بين العلاج ومتعة السفر ..

وكان المرض قد نال منه وهده وجعل منه هيكلاً عظمياً .. حتى بدا أمامي وليس فيه سوى عينين .. تدوران فى قلق .. كأنهما تبحثان عن الملجأ والخلاص .

وفرغت الفتاة من كتابة الرسائل .. وجلست معنا .. ولاحظت أنها قليلة الكلام وحزينة .. وأعصابها تبدو مرهقة .. من عملية التمريض .. التى لا تستريح منها أبداً ..

وكان الرجل يحس بالفراغ .. والحاجة إلى التسلية .. فاقترح أن نلعب الورق .

وجلسنا نحن الثلاثة نلعب .. وكانت «زبيدة» لا تجيد أية لعبة .. ومع ذلك جعلتها تربح .. أكثر من ثلاثين قرشاً .. فضحكت وقالت :

– إيه الغش دا .. !!

وضحكنا فى جذل .. ولما اقترب موعد العشاء .. رافقت إبراهيم بك إلى غرفته .. ثم صعدت إلى «الظهر» وأخذت أتمشى .. وكان كثير من الركاب قد ذهبوا إلى فراشهم وأخذت أتمتع بما حولى من جمال حتى شعرت بالنوم فنزلت إلى تحت .. واستلقيت على فراشى وأنا أنظر من نافذة «الكمرة» الصغيرة إلى البحر .. والموج وهو يلطم السفينة .. وكانت السفينة تمخر العباب الواسع .. وهى تتمايل ومحركاتها تدوى .. ورأيت فجأة صورة زبيدة ترفع أمام نظرى .. وكأننى وضعتها فى إطار .. وخيل إلى أننى أسمع صوتها يتهادى مع موج البحر .. ويصل إلى أحلى من الأنغام .

وفى الصباح رأيتهما قد نهضا قبلى .. وجلسنا مع بعض الركاب فى صفوف على الجسر .. وحييتهما .. وجلست بجانبهما .. وكانت زبيدة متأنقة ولابسة أجمل ملابسها .. وعلمت منها أنها ركبت البحر كثيراً .. وترى فى ركوبه أمتع الرحلات .. لأن الإنسان فى البحر تنقطع صلته بالعالم ..

وأخذ إبراهيم بك يتحدث عن كل شىء فى حياته .. وكده .. والثروة التى جمعها .. وهى الآن فى نظره .. لا تساوى أى شىء .. ماذا يفعل بها ما دام لا يحس بالحياة .. ويرى كل شىء ذاهبًا .. وأخذت أطمئنه وأقول له إنه سيذهب إلى أشهر الأطباء .. وأن معظم الذين يذهبون إلى هناك يشفون تماماً ..

وأحس فجأة باضطراب واصفر وجهه .. وانتابته نوبة إغماء .. وحملناه أنا وأحد البحارة ..

وجاء الطبيب .. فحقنه حقنة منومة .. ونام .. وجلست مع زبيدة .. قليلاً فى «الكمرة» .. ولما وجدتها متعبة أشرت عليها بأن تخرج لتتمشى قليلا ومشت معى صامتة ثم تفتحت نفسها للحديث .. فانطلقت تتحدث ورأيت عينيها يعود إليهما البريق والصفاء .. وشربت معى الشاى .. وأكلت من كانتين الدرجة الثالثة .. وهى مسرورة .

ولما عدنا لإبراهيم بك كان لا يزال نائماً .. وتركنا صوفيا بجانبه .. وخرجنا نطوف بالسفينة .. وأمسكت يدها أصعد بها الدرجات حتى بلغنا البرج .. ولم يكن هناك أحد .. فوقفنا وهواء البحر يداعب شعرها .. ويحرك ثوبها .. وشعرت لأول مرة فى حياتى .. بالجمال وقيمة الحياة .. وشعرت بيدها تلامس يدى فضغطت عليها . وتبادلنا النظرات الصامتة .. وسألتنى :

– متى نصل .. استامبول .. ؟

– غداً .. فى العصر .. أو المساء .. وإذا تأخرت السفينة إلى الليل .. سنبيت فى عرض البحر .. !

– إذن هذه آخر ليلة ..

– ربما .. !!

– أود لو أبقى فى هذا المكان .. أنظر .. إلى البحر .. والموج .. وأسمع هزيم الريح .. ثم تأخذنى سنة من النوم .. فأسقط فى البحر !!

– ولماذا تتمنين هذه النهاية .. ؟

– لأننى أحسست بالحياة فقط .. منذ لحظات .. وأعرف أنها ستفلت منى سريعًا .. وتذهب .. فلماذا نطيل العذاب .. مادمنا نستطيع أن نتخلص منه على أى وجه من الوجوه ..

– إن كل ما حولك .. جميل .. حتى البحر يضحك .. فلماذا لا تضحكين ؟! .

– أضحك .. وقلبى يبكى ؟

ونظرت إليها ولم أفهم .. فإن والدها فى سعة من العيش .. وهى ما زالت شابة وجميلة .. وأمامها المستقبل لتتزوج فلماذا الصراخ ..

وهبطنا البرج والسطح .. وعاد إليها مرحها حتى كادت تقفز الدرجات وتجرنى وراءها ..

ولما فتحنا الباب على إبراهيم بك .. وجدناه يدخن وجلسنا معه نتحدث حتى قرب العصر ..

وتركتهما وذهبت إلى غرفتى لاستريح ساعة . ولما عدت وجدت النوبة قد عادت إليه .. وحالته بدت سيئة ..

وجاء الطبيب وأعطاه حقنة .. مرة أخرى .. فأغلق عينيه ..

وجلست زبيدة تبكي .. ولقد تفطر قلبى وأنا أرى دموعها ..

ويقيت بجوار المريض حتى الساعة .. الواحدة .. وشعرت بالتعب الشديد .. فتسللت إلى غرفتي .. وبعد ساعة استيقظت على نقر خفيف على بابى .. ولما فتحته .. وجدت زبيدة .. وكانت تبكي وتقول :

– إنه .. يموت أخاف أن يموت .. وأنا أخاف .. فى السفينة ..

– لا تقولى .. هذا ..

وجريت إليه .. فوجدته نائمًا .. كما تركته .. ولا جديد على حاله .. فأدركت أن الفزع حطم أعصابها .. وتلفت فلم أجدها ورائى .. فأغلقت باب المريض بهدوء .. وعدت إلى غرفتى .. فوجدتها هناك ترتعش ..

– مالك .. إنه بخير .. اذهبى إليه .. ربما استيقظ فجأة .. فلا يجد أحداً .. وصوفيا .. نامت من مدة ..

– إننى أخاف .. والكمرة صغيرة .. أخاف من الموت .. فى هذا المكان الصغير .. وأخذ جسمها يرتعش .. فأمسكت بيدها .. وكان جسمها ينتفض كله .. فجذبتها إلى وطوقتها لأحميها .. من الخوف .. ومن العذاب .. ووجدت يدى تغلق الباب ..

* * *

وفى عصر اليوم التالى .. بدت قباب استامبول .. ومآذنها من بعيد .. وتحرك الركاب إلى الظهر .. كعادتهم .. كلما اقتربوا من الميناء .. ورأيت زبيدة واقفة هناك .. والمريض مستريحاً على كرسى طويل .. ووجهه قد عادت إليه الحياة .. !!

وذهبت إلى ربان السفينة لأقول له إننى أود أن أشاهد المدينة وليس معى تأشيرة نزول .. فماذا أفعل .. ؟

فأخرج الرجل .. جوازات الركاب من درج مكتبه .. وأخذ يقلب فيها ليعثر على جواز سفرى .. وكان يفتح كل جواز وينظر إلى الصورة .. ورأيت صورة زبيدة فى جواز مشترك ..

فخطفته بيد عصبية من يد الرجل .. وحدقت فيه .. وقلبى ينتفض .. إبراهيم بك وزوجته .. !!

– ماذا .. ؟! سينزل معك أيضًا إبراهيم بك وزوجته .. !! ؟

وأعدت إليه الجواز صامتًا .. بعد أن رأيت ما هو مكتوب .. دون أن أقوى على النطق بحرف .. وأخذ عرقى يتفصد على جبينى .

ولما دخلت أيا صوفيا فى صباح اليوم التالى .. رأيتهما هناك .. ولكنهما لم يريانى .. كنت جالسًا فى ركن .. ووجهى إلى المحراب .. وكان كل من يرانى يتصور أننى قتلت نفسًا وجئت أطلب الغفران ..

الطبيب

دق جرس التليفون في منزل الدكتور نديم ذات ليلة من ليالي أغسطس .. فلم يحس به أحد فقد هربت زوجته من الحرارة الخانقة ونامت في الفراندة .. وعاد الطبيب متعبًا من الخارج ووضع رأسه في الحال على المخدة .. حالمًا بالراحة إلى الصباح كغيره من البشر .. ولكن الجرس عاد يدق بشكل مفزع فتحرك الطبيب ورفع السماعة .. ثم وضعها وأخذ يرتدي ملابسه على عجل .

وكان الرنين المتصل قد أيقظ كل من في البيت .. فسألته زوجته :

– إلى أين .. في الليل ؟

– والدة .. الشيخ عثمان .. حالتها خطرة ..

– تروح الحواتكة .. في هذا الوقت .. ؟

– ضروري ..

– انتظر .. قطر الصبح ..

– لازم أروح .. حالاً .. بالسيارة ..

فزمت عفاف هانم شفتيها .. وكانت تعرف طباع زوجها وتعرف أنه لا شيء يثنيه عن عمله .. وأخذ نديم بعد أن لبس البدلة يضع في حقيبته الصغيرة الأشياء التي تلزمه .. مقياس الضغط .. والسماعة .. وبعض الحقن والأدوية المسعفة .. ثم أغلق الحقيبة .. وخرج إلى البهو .. وهو يقول لزوجته :

– راجع بكره .. الصبح .. حوالي عشرة ..

وقبل أن يبلغ الباب الخارجى .. وجد ابن أخته .. بليغ وراءه ..

فأدار رأسه إليه :

– بليغ .. ! أنت صاحى ! ؟

– رايح معاك .. لغاية الحواتكة .. والصبح آخذ أول أتوبيس للبلد ..

– مش ممكن .. تروح .. لا النهاردة .. ولا بكرة ..

– الدراسة .. قربت .. وشبعت فسحة ..

– مش ممكن .. لما تاخد معاك .. حتى شوية رمان لأخواتك .. عبد الجليل متكلمش .. ؟

وأدار رأسه إلى زوجته ..

– أبداً .. متكلمش .. لازم يبعت الرمان .. بكره ..

فنظر الطبيب إلى بليغ وقال :

– خلاص.. سافر بكرة الظهر ..

– اعمل معروف .. خلينى أروح .. معاك ..

– وليه .. تلح كده .. غريبة .. أنت متضايق من حاجة .. ؟

– أبداً .. بس لازم أروح من الآن .. علشان أجهز أمورى ..

– لسه بدرى على الجامعة .. باقى شهر .. خليك حتى مونس عفاف .. فى غيابى ..

واحمر وجه الغلام وأغلق فمه .. وهبط خاله الدرج مسرعاً وفى يده الحقيبة ..

* * *

وكانت الليلة شديدة الحرارة .. والجو خانقًا .. وبدا كأن الأرض تخرج من جوفها كل حرارة الشمس التى اكتوت بها فى النهار .. وكان الطبيب يمضى بسيارته بجوار ترعة الإبراهيمية وعلى يمينه الشريط الحديدى وعلى يساره الحقول الغارقة فى ماء الفيضان .. وبدت اللجة ضاحكة فى ضوء القمر .. والأشجار صامتة على الترعة .. ولكن كل هذا الجمال لم يستطع أن يشيع البهجة فى نفسه ..

فمنذ ربع قرن وهو يعمل طبيبًا فى الريف .. ويضع السماعة على قلوب الفلاحين .. ويمسح بيده على صدورهم .. ويرفع وجوههم وعيونهم للشمس .. ولكن هذا كله لم ينفع .. لم يأت بنتيجة.. وسيظل كالثور يدور ثم يدور فى الساقية ..

وأمام مزلقان السكة الحديد توقف حتى يمر قطار البضاعة ..

وراعه أن زوجة الخفير .. صاحية بجانب زوجها فى هذه الساعة من الليل ..

ولما دخل القرية كان الشيخ عثمان فى انتظاره على الجسر .. وفحص المريضة وأسعفها بحقنة كورامين .. ولما اطمأن على حالتها خرج من البيت .

ولمح وهو يركب السيارة .. امرأة فلاحة .. تهمس فى أذن شيخ الخفراء وتنظر إليه ..

فسأل :

– فيه حاجة ؟

فرد الشيخ عثمان :

– دى جميلة .. جارتنا .. ولدها تعبان شوية ..

– امشى قدامى يا ست ورينا السكة ودخل بيت الفلاحة فطالعه .. الفقر .. والظلام .. وكان الغلام نائمًا على لحاف قديم .. وفوقه علقت ملابس بالية .. ومتسخة .. على عصا من «الجريد» نكتت فى الحائط .

ووجد الغلام جلداً على العظم .. فأعطاه حقنة مقوية .. وترك له بعض الدواء .. وقال لوالدته .. أنه سيأتى بعد أسبوع .. ليراه مرة أخرى ..

ولما أخرجت المرأة من منديلها .. ورقة مطوية بخمسين قرشًا .. وقدمتها وهى تضم الطرحة على فمها إلى الشيخ عثمان ليعطيها للطبيب .. رفض هذا أن يأخذ شيئًا .. وأصر على الرفض ..

فرفعت المرأة يدها إلى السماء ..

وخرج الطبيب من القرية والليل فى أخرياته ..

* * *

ولما وصل إلى مزلقان السكة الحديد وأخذ يعبره إلى الجهة الغربية وجد امرأة الخفير .. لا تزال صاحية .. وقد وضعت بجانبها قفة صغيرة .. فسألها :

– لسه .. صاحية يا جليلة ؟

– عبد اللطيف عاوزنى أركب قطر ثلاثة .. علشان ألحق السوق بدرى ..

– تعالى معايا أوصلك ..

– مش ممكن .. أوسخلك العربية !

فضحك ..

– اركبى ..

فتحركت لتركب من الخلف ..

– اركبى .. هنا ..

ووضعت القفة ين الخلف .. وركبت بجواره .. وحرك السيارة .. وهو يشعر بهزة .. منذ سنين وهو يراها جالسة على البوابة .. كلما مر من المزلقان .. وكانت تحمل له الزبد والبيض والطيور وتشترى له كل ما يحتاج إليه من السوق .. كانت خفيفة الحركة .. حلوة وخدها يرف كالعناب .. والآن هي بجواره صامتة ملفوفة فى طرحتها السوداء .. تنظر إلى الأمام فى خط مستقيم .. ومن يراها يتصور أن جسمها قد تخشب .. من الخجل ..

وبادلها بضع كلمات ليزيح عنها الخجل .. وشعر بالندى على قلبه ..

كانت صغيرة وحلوة وفى سن ابنته لو كانت له بنات .. وأحس بشىء ينفض قلبه نفضاً .. ويزيح عن صدره كل التعب .. وكل المخاوف . وكل آلام المرضى والبشر .. التى يحس بها الطبيب ..

* * *

وعند المدينة .. أنزلها .. وبلغ منزله قبل الفجر .. وفتح الباب بهدوء وسكون حابساً صوت أقدامه حتى لا يوقظ النائمين .. ولكنه فوجىء بالنور مضاء فى غرفة بليغ وسمع صوت زوجته فى داخل الغرفة .. سمعها تهمس .. واقترب على أطراف نعله .. كاتماً أنفاسه .. فوجدها تطوق الغلام .. وتدفعه إلى الفراش .. والغلام يحاول التخلص منها بكل قوته .. وأفلت منها فأمسكت بثوبه .. تمنعه من الخروج ..

ونظر الطبيب إلى هذا .. وصعق وخشى أن تشاهده زوجته من مكانه فى الصالة .. فمشى على مهل إلى الباب الخارجي .. وفتحه .. وخرج وأغلق الباب وراءه بهدوء .. ووقف فى الخارج قليلاً .. ثم ضغط على الجرس ..

* * *

وبعد دقيقة فتحت زوجته الباب وهى تتصنع النوم ..

– نسيت المفتاح ؟

– آه .. !

قال هذا بهدوء .. ودخل ..

وجلس فى غرفته .. على أول كرسى صادفه .. وشعر بثقل جسمه .. وبالضباب الكثيف يحجب عينيه .

شعر بشىء حاد يمزقه تمزيقًا ..

كانت اللطمة حادة ومباغتة فشلته .. لم يفكر قط وهو منصرف إلى عمله .. بكليته أن زوجته تخونه .. لم يفكر قط فى هذا .. كانت هناك غشاوة على عينيه من هذه الناحية .. وكان يثق فيها ثقة مطلقة .. فهى متعلمة .. وتعرف واجباتها .. وتعرف معنى الرباط الذى يربط الزوجين .. وكانت حياتهما الزوجية فى العشر سنوات الماضية .. هادئة حالمة .. حتى أنه لم يفكر فى أن فى الوجود من هو أسعد منهما .. فهل كانت هذه الحياة الهادئة الحالمة هى التى حركتها ودفعتها إلى أن تطلب التغيير .. !!

وسمعها تقول :

– مالك يا نديم .. الست ماتت .. !!

– لا .. تعبت من السواقة .. المشوار طويل ..

ونظر إليها وإلى الفم الذى يوجه إليه السؤال .. وإلى جسمها وإلى الثوب الذى تلبسه .. فلم يلاحظ أى شىء يدل على ما كانت فيه من لحظات وعجب لبراعة المرأة فى الخداع ..

ووجـد نفسـه أخـرس أمامها .. وأخيراً بحث عن شيء يقوله حتى لا يشعرها بحاله ..

– عبد الجليل .. اتكلم .. !

– بعت الرمان .. بعد أنت ما نزلت على طول ..

ودار بعينيه .. ووجد أقفاص الرمان .. بجوار الباب .. وقد تساقط منها الحشو .. وبجانبها مقطف كبير .. وبصر بزوجته تطيل النظر إليه في سكون .. ثم سألته :

– تشرب شاى ؟

– لا .. حنام .. !!

ورآها تخلع الروب .. وتبدو فى قميصها .. وهى تتحرك أمام المرآة .. ثم أخذت تمشط شعرها .. نفس القميص الذى كانت تلبسه وهى تحاول أن تطوق بليغ .. وأغمض عينيه .. وهو يشعر بمثل النار .. تحرق جسمه .. ويغشى دخانها عينيه ..

ثم رآها فى مثل نعومة الحرير ورقته تنساب إلى الفراش ..

وجلس يدخن وينظر إليـها تحت ضـوء المصـبـاح الأزرق .. وإلى جسمها وكل مفاتن بشرتها .. وود لو يحمل سكيناً ويمزق كل ما يراه ..

وأرخى أهدابه .. واسترخى .. وهو جالس على الكرسى .. ثم أغلق عينيه ولما فتحهما .. كانت عفاف .. قد ثنت فخذها اليمنى .. وتحركت بجسمها تدفع القميص عن بشرتها بعد أن شعرت بشدة الحرارة .. وكأنها تود أن تخلع حتى القميص ..

* * *

وفتح عينيه فجأة .. وحدق فى شىء وجده يزحف بطيئًا على فراش زوجته . واستمر ينظر إليه لحظات وهو يكاد يحبس أنفاسه .. كانت العقرب تزحف ببطء وسكون .. ونظر إليها وعجب لكبرها .. جاءت فى المقطف مع الرمان .. أو جاءت من البيت .. ولكنها اختارت سرير زوجته .. واختارت جسمها .. لتلدغه .. وتنفث فيه سمها .. وتريحه هو من حمل السكين .. وضرب الرصاص .. فما أعجب تصاريف الحياة .. جاء الانتقام سريعًا ولم يكن فى الحسبان ..

وتنفس الصعداء .. وابتسم لما أصبحت العقرب على بعد شبر واحد من فخذ زوجته ..

ثم وجد نفسه .. يقف فجأة ويقتل العقرب .. قبل أن تلدغ .. وسال سمها على الفراش ..

* * *

واستيقظت زوجته على صوت الضربة .. مذعورة .. ونظرت إلى العقرب المقتولة .. وسمها الكثير .. على الفراش .. وإلى زوجها .. وقد ألقى ما فى يده .. بهدوء .. وعاد يجلس صامتًا ..

وأخذت تبكى بحرارة ..

وتركها حتى كفكفت عبراتها ..

وقال .. بعد أن رآها تنهض وتغير فراش السرير ..

- نسيت أن أقول لك أن بليغ .. مريض بالأعصاب .. وقضى فى مستشفى الدكتور بهمن ثلاث سنوات ..

واستدارت زوجته .. تنظر إليه وكأنها تواجه العاصفة .. واستطرد الطبيب :

– وهذا المرض .. عنده من أيام الطفولة .. ولهذا أشير عليه دائمًا بأن يسافر ويتنزه ..

– ولماذا تقول لى هذا الكلام ؟

– لأعرفك بأنه مريض .. ولولا المرض ما رفض لك طلبًا .. !!

ورآها تترنح وتدور .. وتسقط بما فى يدها على الأرض ..

وجلس يدخن .. ويفكر بعقل الطبيب فى علاج للمسألة .

النور

حدث فى ليلة من ليالى نوفمبر .. والحرب دائرة بيننا وبين الإنجليز فى القنال .. والغارات على القاهرة وضواحيها .. لا تنقطع لحظة .. أن قفلت عائداً إلى دارى بحلمية الزيتون .. وسط الظلام والقنابل .. وصعدت السلم مستعيناً ببطارية صغيرة .. وكان البيت شاهقاً من سبعة طوابق .. وكنت أسكن فى الطابق الأخير منه .

ولما وقفت على الباب ووجهت نور البطارية إلى القفل وأخذت أدير المفتاح سمعت صوتاً قريباً يقول :

– من فضلك .. تسمح .. بالبطارية دقيقة ..

وتلفت نحو مصدر الصوت فلم أر شيئاً .. فقد كان الظلام شديداً .. وتقدمت محركاً النور الذى فى يدى إلى الناحية التى سمعت منها الصوت .. فوجدت على باب الشقة رقم ٢١ سيدة نَصَفاً .. تلبس السواد .. ولم أكن قد شاهدتها من قبل فى هذا الطابق .. ونظرت إلى وجهها لحظة ثم وجهت البطارية إلى بابها .. وأدارت المفتاح ودخلت ..

فأنرت لها المدخل حتى تتبين طريقها .. وبعد أن أصبحت فى البهو .. استدارت وخرجت من دائرة الضوء الخافت .. وسألتنى وهى تشكرنى على تعبى :

– حضرتك .. ساكن .. هنا ؟

– فى الشقة رقم ١٩

– لم أرك من قبل .

– جئت فى أول هذا الشهر .. مع الغارات ..

فضحكت .. وهز ضحكها السكون المخيم .. وهنا سمعت من يقول في الداخل :

- يا سعدية .. أنت جئت .. أوقدى النور ..

- الغارة لا تزال .. !!

وارتفع صوتها وهى ترد على المتكلم وبدت على فمها نصف ابتسامة .. وبقيت نظرتها ثابتة على وجهى ..

والواقع أننى لم أكن أقدر إطلاقًا أن أحداً فى داخل بيتها .. ولذا فوجئت بالصوت وظهر على وجهى الارتباك .

ونظرت إلى احمرار وجهى وقالت برقة .. وهى تدير المصراع :

- تصبح على خير ..

وأغلقت بابها .. وعدت إلى شقتى ..

* * *

وفى خلال اليومين التاليين .. رأيتها أكثر من مرة فى الردهة الخارجية وفى نافذة المنور ..

وشاهدتها مرة فى قطار المطرية وكانت جالسة فى الدرجة الثانية وفى فمها سيجارة وبدت لى فى ضوء العربة الخافت .. ومن خلال السواد الذى يلف جسمها .. كأرملة فقدت بعلها وهى عروس شابة دون أن تتمتع بأطايب الحياة .. فقد كانت بادية الشحوب .. وكأن يداً قاسية اعتصرت الدم الذى فى وجهها . ولم تكن سنها تزيد على الأربعين ولكن شعرها كان قد أبيض كله وصبغ بالسواد القاحم .. وبدا منطفىء البريق .. ولمحتنى وأنا جالس معها فى نفس العربة فحيتنى بابتسامة لطيفة .

ولكن عندما هبطت من القطار .. وخرجت من باب المحطة .. تركتها تسير وحدها مع أنها كانت متسوقة أشياء كثيرة من القاهرة وتنوء بحملها ولما اقتربت من البيت .. ودخلت فى ظلام المدخل .. لمحتها تتلفت كأنها تبحث عنى وكنت أنا فى تلك اللحظة أبتاع علبة سجائر من بدال على الناصية .

* * *

واشتد الضرب ذات مساء ودوت المدافع والقنابل حتى خيل إلينا أن جميع المنازل التى حولنا تندك .. وكانت عمارتنا تهتز جدرانها .. وتصفر نوافذها .. فهبط جميع السكان إلى «البدرون» .. حتى ضاق بهم على سعته .. وبحثت فى الضوء الكابى عن جارتى فلم أجدها ..

ولما انتهت الغارة وصعدت إلى فوق .. رأيتها من نافذة المطبخ تتحرك فى شقتها .. فأدركت أنها لا تنزل مهما اشتد الضرب ..

والواقع أن حالتها كانت أحسن بكثير من حالنا فيما يبدو لى .. فإنها تشغل نفسها فى بيتها بأى شىء .. وتحرك يديها ورجليها .. أما نحن فكنا نجلس فى البدرون فى سكون وكأننا ننتظر حكم الإعدام .. نصمت صمت الموتى ساعة كاملة دون أن تتحرك لنا جارحة ثم نتحدث ثلاثة .. ثلاثة .. فى نفس واحد ..

وكنت أسمع الأحاديث المعادة والأخبار التى سمعتها بحذافيرها فى الصباح .

وفى سبع حالات من تسع يظهر شخص عبقرى فيحدثك وأنت محشور وسط هذه الكتل البشرية عن خطر الغارات والقنابل المباشرة التى لا تبقى ولا تذر .. وخطر التدخين على الأخص والتطلع من باب المخبأ ..

فإن هؤلاء العباقرة لازمة لصفارات الإنذار .. ويظهرون كمراقبى الرقابة المدنية بمجرد حدوث الغارة وجل هؤلاء من الذين انخلعت قلوبهم .. والذين تحطمت أعصابهم ودمرت فى تصور حالات الموت البشع بكل صوره الشنيعة .. فلماذا لا يحطم أعصاب الباقين .. ومنهم من يسرح به الخيال ويذهب بعيداً جداً فيترك حرب سنة ١٩٣٩ بكل فظاعتها وهولها .. ويحدثك عن حرب ١٩١٤ .. وعن أستاذ فى جامعة هامبرج .. دمر الجامعة بأسرها لأنه اشتاق أن يدخن سيجارة فى اللحظة التى مرت فيها الطائرات البريطانية فى سماء المدينة ..

الواقع أن السيدة سعدية قد أراحت نفسها من سماع كل هذه الأحاديث المدمرة .. وكنت أحسدها على سكينتها وهدوء أعصابها ..

ولكن هذا الحسد لم يطل أمده .. فقد سمعت صرختها فى الليلة التالية وأنا ذاهب لأنام .. صرخة حادة مروعة حتى تصورت أن هناك من يذبحها.. وجريت إلى شقتها .. ووجدت باب المطبخ مفتوحاً .. فنفذت إلى الصالة .. وهناك وجدتها ملقاة على الأرض ممزقة الثوب .. ورجل يضربها وهو يلهث ..

ولقد خجلت فى الواقع لأننى أدخل الشقة لأول مرة فأرى هذا المنظر ..

ورآنى الرجل .. كما رأتنى هى .. فكتمت أنفاسها ونحيبها .. وأمسكت بالرجل أبعده عنها وكان متهالكًا .. فدفعته بسهولة إلى الخارج لأبتعد عن منظرها وهى ممزقة الثوب وقد بدا بياض جسمها فى أكثر من موضع .. ولأعطيها الفرصة لتجمع شتات نفسها ..

ومازلت أدفع الرجل وألح عليه حتى أخذته إلى شقتى .. وبعد أن شرب القهوة وأشعل سيجارة هدأت أعصابه .. وأخذ يحدثنى والدمع فى عينيه كيف أنه يضرب سعدية فى ساعة جنون ويثور عليها دون سبب معقول .. وعلمت أنه أخوها وليس زوجها كما قدرت .. وأنهما يعيشان معًا

متلازمين فى بيت واحد منذ أكثر من عشرين عاماً .. وأنها لم تتزوج من أجله .. كما أنه لم يتزوج من أجلها كل منهما حامى للآخر .

رفض أن يتزوج هو حتى تتزوج هى أولاً .. ولما تقدم إليها بعض الرجال وطلب يدها .. كان هو قد أصبح شيخًا أو هرمًا .. ولا خير يرجى منه .. فرفضت أن تتركه وحده .. وعاشت له .

والواقع أن التضحية من الجانبين كانت قاسية .. وعلى حساب أعصابهما .

وكان يحدثنى وهو يشعر بالخجل .. ويصف كيف يضربها وهو مخمور مع أنها ضحت بكل شىء من أجله .. تركت له كل شىء .. حتى حصة فى وقف .. ليسكر بها .. بعد أن فصل من عمله .. وأصبح عاجزاً عن الكسب .. كان يقول لى هذا وهو يبكى ..

والواقع أن حالته كانت محزنة .. وآثار الإدمان بادية فى يده المرتعشة وأسنانه الصفراء .. وعينيه المتورمتين .. ولما علم أننى أقيم وحدى بعد أن أرسلت والدتى وأخوتى إلى الريف .. بسبب الغارات .. رجانى أن أزوره .. كلما فرغت من عملى ووجدت الفراغ .. لأنه مريض .. ولا يستطيع أن يترك الفراش وينزل إلى القهوة ليتسلى مع أصحابه .

والواقع أننى أشفقت على مرسى أفندى وكنت أذهب إليه كثيراً .. وأراه مدثراً فى الفراش .. وبجانبه زجاجة الخمر .. والكاس .. وأعقاب السجائر .. وكان يسكر فى كل وقت ..

ولقد أدركت بعد الزيارة الثالثة أن الخمر حطمت أعصابه وحياته .. ولم يعد قادراً على أداء أى عمل على الإطلاق .. وكنت أساعده فأصرف له من البنوك الشيكات التى ترد باسمه .. من ريع للأوقاف .. وحصة فى منزلين فى المدينة ومن هذا الإيراد كان يعيش ويسكر .

وكان فى أثناء الغارة يحدثنى عن وطنيته فى سنة ١٩١٩ .. وكيف أنه زحف مع الثوار وقطع شريط السكة الحديد .. وقاتل الإنجليز .. وكان أحسن من يضرب النار ..

وكانت زياراتى له فى أثناء الغارات وبعدها قد هدأت من أعصابه .. ولم أعد أسمعه يتشاجر مع سعدية .. أو يضربها .. وكنت أراها كلما ذهبت إلى بيتها فى نفس الثوب الأسود .. وكانت عيشتهما متوسطة بسيطة .. وأقرب إلى عيشة الفقراء .. ويبدو لى أن الخمر كانت تستهلك معظم الإيراد .

ورغم هذه البساطة والفقر .. وشدة العوز .. فإنها كانت تسر جداً وهى تقدم لى أى شىء تصنعه بيدها .. وكنت أرى السرور فى عينيها .. والدم يجرى فى وجنتيها .. وكنت إذا تخلفت يوماً عن زيارتهما لكثرة مشاغلى .. كانت تنظر إلى صامتة .. ويقول لى مرسى أفندى ..

– لماذا لم تحضر أمس .. يا صبرى .. يا ابنى .. إننا فى حرب .. ساعدنا على أن نتحمل ويلاتها .. يمكن نموت ولا نجد من يدفنا ..

وكنت أعتذر له وأنا شاعر بالخجل .. والواقع أننى وجدت نفسى بين يوم وليلة مرتبطاً بهذه الأسرة الصغيرة .. وملتصقاً بها .. وقد ساعدتنى الوحدة .. وسفر أسرتى على ذلك .. وكانت سعدية تقابلنى بالترحاب والمودة .. وأشعر بأنها تسر للقائى .. وتنتفض فرحة دافئة .. كما ينتفض الزهر المندى إذا سقطت عليه أشعة الشمس الدافئة ..

ولم أكن أطيق الجلوس فى حجرة أخيها مرسى إذا بقى .. وبجانب فراشه طويلاً لأنه كان يغلق النوافذ ويدخن ويسعل .. فكنت أجلس فى الردهة ثم أتركه لينام .. وكان متشائماً ويخاف من الحرب .. ولكننى كنت أحدثه بروح الشباب وقوته .. أحدثه بلسان مصر الحديثة التى لا يعرف عنها شيئاً .. أحدثه بروح الشعب الذى لا يقهر ولا توجد فى الأرض قوة تسحقه .

وكانت سعدية فى جانبى وتقول له وعيناها تلمعان :

– سننتصر .. وسترى النصر .. سترى .. فكان يصمت ولا ينبس .. ببنت شفه .

* * *

وذات ليلة .. وكنت فى بيتهم .. وسمعنا صفارة الإنذار .. وكانت سعدية جالسة على كرسى قريب منى .. وكان هو فى الفراش .. وكنت أحدثه عن الأخبار المطمئنة .. والعالم الذى معنا .. والمتطوعين للحرب معنا .. وكانت سعدية مسرورة مثلى .. وتركتهما بعد ساعة .. ودخلت بيتى لأنام .. وبعد أن تمددت فى فراشى .. عادت صفارة الإنذار تمزق السكون .. ودوت المدافع المضادة .. وزلزلت الأرض .. واهتزت جدران البيت ومادت .. وسمعت صرخة فجريت .. إلى شقة سعدية .. ووجدتها فى الممر تجرى مفزوعة .. وارتمت على صدرى وهى ترتجف فى عنف .. ثم أدارت ذراعها اليمنى على ظهرى وظلت لاصقة به .. وبقينا على ذلك مدة ..

وتحرك هواء من نافذة المنور .. فأطفأ السراج «السهارى» الوحيد فى البيت .. وبعدها أحسست بشفتى سعدية تبحثان عن شفتى ..

وكانت القنابل فى الخارج والظلام والهول ..

* * *

وفى كل ليلة كانت تنقر على باب المطبخ فأخرج إليها فى الظلام وتتلاقى الشفاه بالقبل وتتشابك الأيدى ونتعانق ..

وحدث عصر يوم الثلاثاء .. وكنت راجعًا إلى البيت كعادتى .. أن دوّت صفارة الإنذار .. ونزلت من الأتوبيس والطائرات المغيرة تضرب المارة فى الشوارع وتحلق على ارتفاع منخفض ..

ولما بلغت البيت كانت الطائرات تسير فوق العمارة مباشرة ..وتنزل إلى الفضاء بين البيوت .. وسمعت رصاصاً ينطلق بعنف من نوافذ بيتنا ويسدد ببراعة إلى الطائرات فتصورت أن العساكر صعدوا إلى السطح وإلى الشرفات ليتمكنوا من إصابة الطائرات ..

ولما دخلت من الباب حذرني الناس من الصعود إلى فوق لأن الرصاص يتساقط كالمطر فوقفت معهم فى المدخل .. وهنا أصيبت طائرة وأخذت تهوى وهى مشتعلة ورأى الناس الذى أصابها وكان فى الطابق السابع من بيتنا .. وسمعت اسم مرسى أفندى ولكننى لم أصدق .. وصفق الناس وهللوا له .. ولما صعدت إلى شقته وجدته واقفاً يبتسم بجانب النافذة وبيده البندقية .. وقد رجع من الفرحة بالانتصار شاباً ..

ولما بحثت عن الشىء الذى كان يأسره ويحطم حياته لم أجده ولم أجد حتى الكأس التى كان يشرب فيها .. فأدركت سر صحوة الرجل وانتفاضته .

ولما نقرت سعدية على بابى فى الليل .. لم أفتح لها .. شعرت أنه من العار أن أخون رجلاً وقف على قدميه فى الصف .. ليعود النور إلى المدينة الكبيرة ..

حوار فى الطريق

عصر يوم السبت .. كان حسن يسير على الرصيف المواجه لجمعية الإسعاف فى قلب القاهرة .. فاستوقفته سيدة وسألته..فى رقة :

– أتتكلم الفرنسية ؟

– قليلاً .

– هل يمكن أن تدلنى على الطريق إلى المتحف المصرى ؟

– فرفع عينيه إلى وجهها وقال مشيراً إلى سيارات الأجرة التى تعبر الطريق :

– يمكنك أن تركبى تاكسى من هذه .. والمتحف فى نفس الشارع .

– بعيد ؟

– ثلاث دقائق بالسيارة .

– وبالقدم ؟

ربع ساعة .

– إذن سأمشى .

فعبر بها تقاطع المرور .. أمام مركز الإسعاف .. وعلى الرصيف الأيسر مد يده وهو يتجه إلى قرص الشمس الساقط هناك وراء المنازل .

– سيرى فى هذا الشارع إلى النهاية .. والمتحف هناك .

– مرسى .

وحيته بعينيها تحية ندية .. ثم مضت مسرعة وكانت السيارات فى هذا المعبر تنطلق فى جنون .. كأنها فى سباق مع الزمن .. كانت قادمة من ضواحى وأطراف المدينة الكبيرة .. لتصب فيها روافدها .. ثم تخرج منها دائرة فى خطوط الشبكة الواسعة ..

وكان حسن قبل أن يلتقى بهذه السيدة جالسًا فى الأمريكين بشارع سليمان باشا .. ثم أحس بضرسه يزعق فى فمه للمرة العاشرة .. فأسرع إلى طبيب يعرفه فى عمارة الشواربى .. ولما التقى بالسائحة أمام العمارة وتحدث معها أحس بالألم قد زايله تمامًا .. حتى فكر فى العودة إلى البيت دون أن يعرض نفسه على الطبيب .

* * *

ولكنه دخل على الطبيب .. وخلع الضرس .. وخرج وهو يحس بأثر البنج والورم ولم ينقطع الدم كما كان يقدر .. فتألم لأنه سيؤذى شعور الناس ويبصق فى الطريق ولما كان بيته بعيداً .. فى الهرم .. فقد فكر فى أن يدخل السينما فى حفلة الساعة السادسة .. حتى ينقطع النزيف ويشعر بالراحة ولكنه عدل عن هذه الفكرة .. وركب الأتوبيس رقم ٨ إلى بيته .. ركبت بجواره ، سيدة مكتنزة .. وكانت متعطرة وفى حفل من الزينة كأنها ذاهبة إلى فرح .. وكانت تنظر إلى خده المتورم .. بفضول أثاره .

وعندما نزل من الأتوبيس وسار بين حقول القمح والبرسيم شعر براحة مستكنة وكان القمر لم يطلع بعد ولفه الظلام .. فقد كانت الفيلات متناثرة ومتباعدة .. ونورها لا يصل إلى الشارع الصغير الموصل إلى بيته ..

واستراح حسن أكثر إلى الجمال المحيط والسكون الشامل .. ومنذ عشر سنوات وهو يقطع هذا الطريق .. فى الذهاب والإياب .. ويسير على نفس الأرض المتربة .. ويرى نفس المنازل والمزارع .. فقد بقيت هذه الرقعة من الأرض فراغا .. ونضرة .. وأزهاراً .. ورياحين .

وامتد العمران إلى الأرض المجاورة للشارع الكبير .. وبقى بيته كأنه وسط حديقة فى الجنة .

وزرع حسن فى الأرض المجاورة له «الخضار» .. والبرسيم .. وكان فى أول عهده يربى الدواجن ولكنها تعبته كثيراً فتركها آسفًا .. لم يشعر فى هذه المنطقة بأنه ترك قريته فى طلخا لأنه كان يعيش فى نفس المناخ .

* * *

وكان وهو يسير متمهلاً فى الطريق .. متأملاً حالمًا .. يود لو يستريح ساعة زمانية على العشب المطلول .. ولكن كلب عبد الرؤوف كان يزعجه ويقطع عليه السبيل إلى كل أمنية عزيزة أو حلم من الأحلام .. كان كلما عاد من سفر أو رجع من المدينة وسار فى هذه الطريق .. يود لو يستريح هناك على العشب الندى .. بجوار قصر عبد الرؤوف .. تحت شجرة الجميز .. بعيداً عن أنظار المارة وفضولهم وكان يتمنى لو أقام لنفسه قبراً تحت هذه الشجرة .. وتركه لنسمات الليل الحالمة ولأريج الزهور ..

وكانت الأمنية وليدة اعتبار ذاتى ليس إلى مقاومته من سبيل .. ونتيجة للفراغ والتعاسة اللذين يحس بهما ومنذ ماتت زوجته لم يشعر حسن ببهجة الحياة .. شعر بأنه فقد العنصر الطيب والشىء الذى كان من أجله يعيش .. وكانت الضربة قاصمة .. وبعد شهر كامل على وفاة المرحومة وكان حابساً نفسه فى البيت خرج ورفع وجهه إلى وجوه الناس وخيل إليه أنه استفاق من غاشية الحزن ولكنه فى الواقع .. كان يعيش فى غيبوبة متصلة ولا يدرى لها نهاية .

* * *

وفى يوم الثلاثاء .. رأى سائحة فى الترام الذاهب إلى الهرم .. تسدد نظرها إليه .. فلما تمعنها تذكرها .. فقد كانت السيدة التى سألته عن طريق المتحف .

رأى عينيها الخضراوين تبتسمان له .. وكانت ممسكة بكاميرا .. ووجهها الأبيض قد لوحته الشمس . وسألها .. بعد أن تبين أنها عرفته :

– أعجبك المتحف ؟

– رائع .. كل شىء رائع .

– وذاهبة إلى الهرم ؟

– أجل .

– وحيدة ؟

وضحكت .. ضحكة قصيرة وقالت وهى تصوب إليه نظرة مباشرة :

– معى كل هؤلاء الناس .

– هل كل هؤلاء أصدقاء لك .. ؟

– أجل .

وضحكت .

– فرنسية ؟

–لماذا خمنت هذا ؟

– لأنك ذاهبة إلى الهرم بالترام .. وقبل ذلك سعيت على قدميك إلى المتحف ..

– وهل الفرنسيون بخلاء ؟

– جداً .. وقد عشت هناك ثلاث سنوات فتعلمت منهم البخل ..

– لست فرنسية ..

– سويسرية ؟

– هل من الضرورى أن تعرف جنسيتى ؟

– لا .. وآسف لهذا السؤال ..

وتبادلا النظرات ..

أخذ كل منهما يديم النظر إلى الآخر ليطبع صورته فى عينيه ..

وكانت السائحة فى الثامنة والثلاثين وتحتفظ بنضارة الشباب كبنت العشرين وكانت رشيقة القوام منسجمة الملبس تلبس جونلة سنجابية وبلوزة بيضاء مفتوحة عند العنق .. وكان شعرها أسود قصيراً ويلمع كالحرير .. وكانت خصلة منه .. متدلية على جبينها فى نصف دائرة صغيرة كالهلال ..

أما حسن .. فكان فى الخامسة والثلاثين من عمره طويلاً نحيف القوام وكان وجهه أسمر .. وعيناه فيهما ضيق وصفاء .. ويطل منهما الحزن الدفين .. وسألته مارلين :

– أذاهب إلى الهرم مثلى ؟

فسدد بصره إليها .. قبل أن يجيب .

– أجل ..

ولم يكن يتخذ هذه الوجهة وإنما كان سينزل فى المحطة القادمة إلى بيته .. ولكنه وجد نفسه يأتلف مع هذه السيدة ويستريح .. ورأى أن الرحلة إلى الأهرام فى هذا الوقت ممتعة .. وليس وراءه عمل بعينه يمنعه من الذهاب ..

ونزلا من الترام وصعدا فى طريق الهرم .

وجلسا بعد زيارة الهرم الأكبر على صخرة يتحدثان .. وعرف من حديثها أنها جاءت على الباخرة إسبيريا مع جماعة من السائحين .. وأن بعضهم سافر إلى أسوان والأقصر أمس .. وستبقي هى فى القاهرة إلى يوم الجمعة .. لأن المدينة سحرتها .. وستزور غداً خان الخليلى .. والقلعة .. والمساجد التى حولها ..

وسألته :

أتستطيع أن ترافقنى غداً .. إلى القلعة ؟

– لأوفر لك أجر الدليل ؟

– ما زلت تصر على أنى بخيلة ..

– كل الإصرار ..

– طيب .. هات سيجارة ..

وتناولتها منه ضاحكة .. وأشعلها لها وهو يرقب الدخان الأزرق الذى تنفخه من فمها الوردى ..

وبدت عيناها فى ضوء الشمس الغاربة أكثر عذوبة وفتنة ..

ورفعت رأسها ونظرت إلى عينيه وعجبت لأنه حزين ومكتئب فى هذا العمر .

وعجب لأنه يجلس مع سيدة لأول مرة بعد وفاة زوجته .. وشعر فى أعماقه برجفة .. ودارا حول أبى الهول وبقية الآثار .. وأحست بالبرد فقالت وهى تتطلع إلى الأفق !

- نذهب ..

ونزلا الطريق المرصوف وأمام حديقة مينا هاوس .. قال لها :

- هلا جلسنا هنا قليلاً لنشرب الشاى ..

- مرسى .. أنا ذاهبة إلى الفندق لآخذ حماماً ..

وانتفض وهو يسمع هذه الكلمة .. وخيمت سحابة على وجهه .. ولكنه غالب عواطفه .. حتى عاد إلى هدوئه .. وقال :

- سأرافقك إلى المدينة ..

وبلغا الفندق .. وشرب معها الشاى فى بهوه الكبير قبل أن تصعد إلى غرفتها ..

* * *

وفى الساعة الثالثة من يوم الأربعاء التقيا وزارا خان الخليلى .. والقلعة والمساجد المحيطة بها .. ثم صعدا الطريق إلى قصر الجوهرة ..

ووقفا فى شرفة القصر المطلة على المدينة ..

وسحرها المنظر .. سحرتها القباب والمآذن .. وبروج النواقيس .. وسحرها النيل وهو ينساب بين الخضرة .. وسحرتها المدينة الكبيرة .. وهى ترقد فى السفح صامدة .. وجبارة .. وقاهرة ..لكل الفاتحين ، سحرها هذا كله ، وكانت واقفة بجواره .. متألقة ورائعة .. وقد اكتسى خداها بلون الأرجوان .. وسألته ، وهى تسبل أجفانها ، وتتكىء على حافة السور :

- ألا تتمنى شيئاً فى هذه اللحظة وأنت تقف فى هذا المكان ؟

- أن أحمل على بساط الريح .. وأنطلق لأدمر كل المصانع التى تصنع الدمار والخراب للبشر ..

- تقصد القنبلة الذرية ؟

- وقنبلة الكوبالت .. والهيدروجين وكل ما يجىء بعدها .. وكل ما يحطم الحضارة ويشل عقل الإنسان .. كل ما يشوه الجمال والسكون ويمنع الحقيقة من أن تنطلق من الأفواه .. كل ما يقتل روح البشر ..

وكانت لا تحب حديث الحرب فارتجفت .. وكانت تود أن تقول له أنها خرجت من بلادها لتنسى كل هذا .. ولكنها صمتت ..

وسمعته يقول وهو يشير إلى المدينة :

- من هذا المكان .. ضرب نابليون هذه المدينة الكبيرة بمدافعه الضخمة .. وقد حطمت القذائف بعض البيوت والمساكن .. ولكنها لم تستطع أن تحطم روح الساكنين فيها .. وظلت المدينة كما هى شامخة وجبارة ومنذ مئات السنين .. وأنتم تصنعون الحروب وتثيرونها ونحن هنا نعيش فى سلام ولا نعتدى على أحد ..

وضحكت وهى تقول له :

- ولماذا تقول لى هذا الكلام ؟

- لا أدرى .

وضحك مثلها ..

وقالت .. وهى تمسك بعينيها خيط الشمس الراقص على قباب المساجد ..

– أتعرف .. إنى عندما قابلتك .. لأول مرة .. وسألتك عن طريق المتحف كنت متيقنة من أنى سألقاك مرة أخرى .. ولهذا بقيت .. ولم أسافر إلى أسوان ..

– ولماذا رغبت فى هذا اللقاء ؟

– لا أعرف بالضبط .. وإنما الشىء الواضح فى المسألة أنك ستوفر لى أجر الدليل .. !

– أهذه أول زيارة .. لمصر ..

– أجل .. وسأضع كتاباً عن هذه الرحلة .. لا تتصور أننى أرملة ثرية تعيش فى فراغ .. وتدور حول العالم لتقتل الملل والبطالة .. لا .. فأنا أعمل فى بلادى كل الوقت .. أدرس فى الصباح .. وأشترك فى أكثر من عشر جمعيات إنسانية .. أنهض بعمل كبير .

– أعرف ذلك ..

– كيف ؟

– هذا واضح من عينيك ..

وحولت إليه وجهها .. وكان فى عينيها وصوتها جمال ..

وسألته :

– ألا تستطيع أن تقابلنى فى الصباح ؟

... سأسافر مساء الجمعة إلى أسوان .. وأحب أن أقضى نهاراً بطوله .. معك ..

– إننى أعمل فى الصباح ..

– ماذا .. أحب أن أعرف كل شيء عنك ؟

– مدرس في مدرسة زراعية ..

– ومتزوج ؟

وواجهته بعينيها وأنفاسها بعد هذا السؤال .. ولم يستطع أن يخفى انفعاله .. وما ارتسم على وجهه من حزن .. ولم يجب على السؤال .

فقالت وهى تديم النظر .. أكثر وأكثر ..

– مادمت متزوجاً فأحب أن تدعونى لأرى زوجتك .. وأعرف البيت المصرى .

– بكل سرور .. وسيتم هذا بعد عودتك من أسوان .

وعندما نزلا فى الطريق وأمسكت بيده أحست بها باردة .. ومنداة بالعرق .. فحزنت ..

* * *

وفى بهو الفندق .. طلبت منه أن يريها قرية مصرية . وفكر فى الحال فى عزبة صغيرة لصديق له فى بلدة نكلة على خط المناشى .

وذهبا إليها فى الصباح .. وسرت بالعزبة ومشاهدته فيها .. وجلست معه على حافة الترعة .. ووراءها وأمامها حقول القمح والبرسيم .. وحولها أحواض اللفت الصغيرة والجزر .. والخس .وكانت الفلاحات ينظرن إليها فى مودة .. والفلاحون يعملون بالفؤوس فى الغيطان .. وتبدو أجسامهم الفارعة ورءوسهم النحاسية تلمع فى ضوء الشمس ..

وقالت مارلين ترقب أحدهم وهو يحمل عجلاً صغيراً على ظهره ويعبر به الترعة ..

– إنهم أقوياء ويبدو عليهم السعادة رغم ما أسمع عن فقرهم ..

– لأنهم يؤمنون بالحياة .. ولم يفقدوا هذا الإيمان .. قط .

– هذا طبع الفلاحين .. فى كل بقاع الأرض ..

– ولكنهم هنا يتميزون عن الجميع بقوة الإيمان .. والصبر .. إنهم يؤمنون إيمانًا بالأرض مع إنها تخدعهم .. فهم يزرعونها .. ويأكلها الدود .. ثم يزرعونها ويتلفها الندى «والصقيع» .. وتحرقها ريح الخماسين ومع ذلك يظلون يزرعون .. ولا يعبأون بالنكبات ولا يحفلون بها . وينتظرون أبدًا الخير من الأرض ومن السماء .. إنهم عامرون بالإيمان أقوياء ولذلك عاش الفلاح المصرى مستقلاً بشخصيته الفذة رغم الاستعمار .. واختلاطه بكل الشعوب ..

ونظرت إليه وهو يتدفق بالحديث صامتة معجبة ..

وحمل إليها أحد الفلاحين بعض الفول الأخضر .. والجزر .. واللفت فأكلت مبتهجة .. ثم دخلت مع حسن الفيلا الخالية .. لتستريح قليلاً وتمددت على كنبة .. وجلس أمامها .. يدخن . وكانت قد ضمت رجليها واستراحت برأسها على خدها .. فجلس يرقبها معجبًا .. وكانت تود لو يأتى إليها ويعانقها .. وفكت البلوزة .. وخلعت خفها . ثم هزت رأسها كالطاووس . تنتظر مقدمه .. ولكنه جلس لا يريم . ثم رأته من خلال أهدابها المسبلة يخرج ويترك الغرفة .. فدفنت رأسها فى الوسادة وضغطت عليها ..

وبعد ساعة رآها قد ازينت ووقفت على الباب .. وأبدت رغبتها فى العودة إلى القاهرة .. فمشى وراءها إلى السيارة صامتًا .

* * *

وفى صباح يوم الجمعة .. وهو يوم إجازته فى المدرسة .. التقى بمارلين فى الفندق .. وخرج بها إلى المدينة وزار معها كل الأماكن والقصور .. ثم رجعا إلى الفندق .

وكانت مسافرة فى قطار الساعة الثامنة مساء إلى أسوان .. وكان لا يحب أن تسافر فى هذا اليوم وقرر بينه وبين نفسه أن يعطلها متعمداً بحيث لا تلحظ ذلك ..

وسألها لما رآها واجمة تفكر ..

– ماذا بك ؟

– لا أدرى .. وربما يكون هذا شعور كل مسافر .. وأنا أسائل نفسى الآن لماذا التقيت بك .. ولماذا وضعك القدر فى طريقى ؟

– ستسافرين .. وترين بلاداً جميلة ووجوهاً أخرى وستنسين هذا اللقاء .

– إنك لا تفهم شعور المرأة .. ولا تقدر .. عواطفها .

وظهر على وجهه الألم .. وسألها :

– ولماذا تجعليننى هكذا مجرداً من كل شعور ؟

– لأنى خبرتك جيداً من خلال هذا الأسبوع ..

– ولكنك مخطئة .. وفى حكمك قسوة .. فأنا إما أن أكون قادراً على أن أعطى المرأة كل شىء .. أو لا أعطيها أى شىء على الإطلاق .

– ولماذا لا تعطيها كل شىء ؟

لأننى لا [illegible] .

وقال هذا فى صوت خافت .. كأن موسى قد جرت على عنقه وأغلق فمه .. وظهر الانفعال على وجهه فمشى إلى النافذة .. ونظر إلى الطريق .. وأخذت تخرج أشياءها من الدولاب وتضعها فى الحقيبة .. ولما حزمت كل شىء وأغلقت الحقيبة نظرت .. إليه . وكان واقفًا هناك وقد وضع يده على مصراع النافذة الزجاجى .. وبصره إلى الحياة الجارية فى الشارع .

واقتربت منه وقالت ..

– إنى ذاهبة ..

واستفاق واستدار إليها ..

فواجهته بعينيها الخضراوين ..

– هل اقترب ميعاد القطار ؟

– أجل .. وأنت الذى أخرتنى بجولاتك .. وكان يجب أن أكون الآن فى المحطة ..

ونظر إلى ساعته فوجدها الثامنة إلا ثلثًا .. واقتربت منه .. حتى التصقت به ورفعت وجهها إلى شفتيه وعينيه .. ولم تكن تعرف .. أنه طويل عنها بمثل هذا المقدار .. ووضع يده تحت ذقنها ولامسها برقة .. ثم ثنى بأنامله الذقن إلى أعلى .. ورأى لأول مرة جرحًا خفيفًا فى باطن الذقن .. شرط بمشرط الجراح وبقيت آثاره ..

وجعلها هذا الجرح أكثر جمالاً فى نظره وقال لها فى همس :

– ما أحلى عينيك ..

فأسبلتهما وشدته إلى صدرها .. فضغط على شفتيها .. وظل على ذلك مدة ولكنه أحس فى أعماقه بالموات .. فتركها .. بعد أن بلل شفتيها بالدموع .

* * *

وعندما وصلا إلى المحطة .. كان قطار الساعة الثامنة .. قد تحرك منذ دقيقة فاستاءت مارلين ..

وقالت له وهما خارجان من المحطة .

– لا أحب أن أرجع إلى هذا الفندق مرة أخرى .. اختر لى فندقًا آخر ..

– ولماذا الفنادق .. إنها ليلة ..

وركبت معه السيارة إلى بيته فى الهرم ..

* * *

ورأت مارلين في البيت فتاة في العشرين من عمرها .. فحسبتها زوجته وخادماً عجوزاً استقبل حسن على باب الحديقة وحمل الحقيبة ..

ولم تكن زينب تعرف لغة أجنبية .. فاكتفت بالابتسام لمارلين .. وظنتها من صديقات حسن أيام أن كان يدرس فى تولوز ..

وجلسوا إلى المائدة .. يتعشون .. ودخل عليهم فى أثناء الطعام عبد الله وهو صديق لحسن .. ويقيم فى شارع الهرم .. وكان دائمًا يزور حسن ليضحكه وينسيه أحزانه .. وجلس يأكل دون أن يعزم عليه أحد .. وكان مرحاً .. ويعيش ليضحك وكان مثل زينب لا يعرف لغة أجنبية ..

فأخذ يتحدث مع مارلين بالإشارة حتى أضحكها ..

وقال له حسن :

– إن السيدة مارلين .. اعتادت أن تشرب على الطعام النبيذ .. وليس فى بيتنا .. خمر .. فأرجوك أن تذهب .. إلى النفق لتشترى لها زجاجة .

وقالت زينب بعد أن خرج :

– هل تحسب أن عبد الله سيشترى نبيذاً حقًا .. سيجىء بزجاجة شربات أو خل أحمر ..

وضحك حسن .. وهو يتذكر نوادر عبد الله وأعماله ..

وسألته مارلين .. عن سبب ضحكه ..

فقال لها :

– كان عبد الله .. طوال سنوات الحرب الأخيرة يعيش من عمل واحد وقد ربح منه .. كان يبيع الماء الملون لأصحاب الحوانيت على اعتبار أنه ويسكى اسكتلندى ويبيعه بالصناديق .. المغلقة المختومة .. وأنا واحد من أصدقائه اشتريت منه صندوقًا .. به ست زجاجات ..

– وهل تعتقد أنه ذهب الآن ليغشنا ؟

– ربما خجل منك .

– على أى حال سأشرب أى شىء يجىء به ..

ودخل عليهم عبد الله بزجاجة من النبيذ على خلاف ما توقعوا .. وشربوا عدا زينب فإنها لم تكن تقرب الخمر ..

وقبل منتصف الليل .. خرج عبد الله إلى بيته .. وأعد حسن غرفة لمارلين ودخلت فيها لتخلع ملابسها .. وخرجت عليه بعد مدة لابسة الروب .. وقالت :

– إنى ذاهبة إلى الحمام ..

وغابت مدة طويلة .. ولما رجعت وجدته ساهراً فى مكانه ..

وسألته :

- هل نامت زوجتك .. إنها حلوة ؟

فابتسم ..

- زينب . إنها ليست زوجتى .. ففتحت مارلين فمها مستغربة .. وأوضح حسن :

- إنها قريبة لى ..

- وأين زوجتك ؟

- ماتت ..

- آسفة لحماقتى .. فقد أثرت أشجانك .. ولهذا تبدو حزينًا ..

وقال كأنه يحدث نفسه :

- ذهبت فى حادث مروع ..

واكتسى وجهه بالألم .. وصمت ..

- كان هذا منذ عشر سنوات .. دخلت الحمام فى ليلة كهذه مثلك .. وسمعت وأنا نائم فى الفراش صراخها ولما ذهبت إليها .. وجدت النار تأكلها .

فنظرت إليه مارلين مرتاعة .. واستطرد :

- كنا فى شهر العسل .. واحتضنتها فى تلك الليلة .. وأنا أحس بالرغبة .. فقالت لى .. وهى تبعدنى عنها برقة أن غداً نصف شعبان وهو يوم كبير عندنا نحن المسلمين ، وسأصبح صائمة فلا تضطرنى إلى الاستحمام فى الليل .. ولم أستمع إلى رجائها .. ولم أستطع أن أقوم رغبتى فيها .

وتركت الفراش .. وذهبت لتستحم .. وأخذت معها موقد الجاز .. ودخلت به الحمام وأغلقت عليها الباب .. ولا أدرى كيف اشتعلت فيها النار .. وقد عشت سنوات فى عذاب مستمر .. وكنت أتصور دائمًا أن الحادث المروع قد حدث منذ لحظة وأتمثله وأتصور النار قد أتت على البيت كله .. وكنت أصرخ فى الليل وأصيح .. النار .. النار ..

وأخيراً انتقلت من ذلك البيت المشئوم وجئت لأعيش هنا فى هذا الحى الهادىء وجاءت زينب لترعانى كأخ لها .. وهى يتيمة الأبوين ولم يبق من أهلها أحد سواى .

– إنها تحبك ..

– لم ألاحظ هذا .. وما فائدة الحب من طرف واحد .. لقد أخذت زوجتى معها روحى وجسمى .. والحادثة مازالت تسيطر على بكل بشاعتها ..

– ولماذا لا تحاول التخلص منها ؟

– حاولت ولم أستطع .. الحادثة مسيطرة تمامًا .. ولقد شلتنى .. ولم ألمس بعدها امرأة ..

فأدركت مارلين عذابه ..

وابتسمت له بحنان .. وكانت لاتزال تمشط شعرها أمامه .. وقد انفرج الروب الأزرق عن قميص نومها .. وبدا عنقها العاجى .. وصدرها المرمرى .. وكل جمالها الآسر ..

وكان ينظر إليها حائراً قلقًا ويشعر بضعفه أمام هذه الفتنة .

وقالت وهى تنظر إلى شبابه ..

– إنك مسكين .. ولماذا لا تسافر إلى أحد أطباء النفس فى فينا .. وستشفى حتماً وتتخلص من هذا العذاب ..

وابتسم فى يأس ..

وبعد أن مشطت شعرها وازينت .. ذهبت إلى فراشها ..

وسألها :

- ستنامين ؟

- لا .. وتعال لتجلس بجانبى ..

وأخذت تمسح على شعره وتناغيه حتى اقترب الفجر .. ورأته يدفن رأسه فى فراشها ويبكى ..

ولما خرج من غرفتها مع الفجر .. وجد زينب واقفة فى الصالة .. تنظر إليه نظرة غريبة ثم رآها تدخل غرفتها وتغلق الباب بعنف وبعد قليل سمع نشيجها .

* * *

وفى الصباح ، وكان يوم السبت ، تناول حسن جريدة الصباح كعادته .. ووقع نظره على عنوان ضخم فى الصفحة الأولى .. فانتفض وأمسك بالجريدة وجرى إلى غرفة مارلين وهو يدفع كل ما يجده فى طريقه ويصيح كالمجنون ..

ونهضت مذعورة فطوقها وهو ينشر الجريدة ويصيح .. اقرئى ..

ثم أدرك أنها لا تعرف العربية فترجم لها العنوان المثير .. وعرفت سقوط القطار الذى كانت ستسافر فيه أمس فى ترعة .. وما وقع من القتلى والجرحى ..

ونظرت إلى الحروف السوداء الكبيرة التى لا تفهم معناها وهزتها العاطفة وفرحة النجاة .. فسالت عبراتها ..

أما حسن فكان ينظر إليها فى نشوة .. كان فى حاجة لأن يحس بأنه قتل نفساً .. وأحيا مثلها فاهتز كيانه وغرته الفرحة ..

وعندما نهضت مارلين من السرير وعانقته شعر بأنه ولد من جديد ..

* * *

ودعها فى محطة الجيزة ولما رجع إلى البيت وجد زينب واقفة على الباب الخارجي تنتظره وفى عينيها آثار الدمع ..

ونظر إليها .. وكأنه يراها فى البيت لأول مرة .. تغيرت فى نظره الآن وأصبحت أنثى وفيها كل مفاتن الأنثى .. وعجب للغشاوة التى كانت على بصره طوال هذه السنين ..

وسألها وهو يربت على خدها :

– مالك يا زينب ؟

فلم ترد .. ورفعت عينيها إلى وجهه .. ومسح على شعرها وشدها إلى صدره .. وطبع على فمها أول قبلة ..

وفى نفس الأسبوع تزوجها ..

ولم تنس زينب فى ليلة الزفاف أن تضع صورة مارلين فى إطار جميل على مائدة الزينة ..

حب فى القرية

رجع الأولاد من الحقول وتجمعوا حول الميزان .. وأخذ سالم يزن أكياسهم الصغيرة والكبيرة وعبد العليم كاتب الأنفار يقيد لكل نفر حسابه .

وكان الخولى رضوان يفتش جيوبهم وصدورهم ويدفعهم إلى طرق القرية .

– طلعى القطن اللى فى صدرك .. أنت يا جميلة ..

– دا مش قطن ..

– أمال إيه دول ؟

– حاجة ما تطلعش ..

– طيب بعدى عن الميزان أنت وهى .

ورغم هذا التفتيش الدقيق فإن القطن كان يخرج من الجيوب السحرية إلى الباعة الجالسين على الجسر .. ويستبدله الصبيان بحلوى حمصية وسمسية وملبن .. ومناديل محلاوى .. وفانلات .. وجوارب ومحافظ ومزامير .. والكبار منهم كانوا يشترون السجائر وباكوات الشاى ..

وكان الغلمان يعبرون عن فرحهم وبهجتهم بالغناء .. ويلوحون بعصيهم ويرقصون على الجسر وهم راجعون إلى القرية . وكانت زراعات القطن فى تلك المنطقة واسعة والفيضان عالياً فخشى الفلاحون على زراعتهم واستعانوا بفرق الصعايدة لجنى المحصول قبل أن يغرق .

وكانت زراعة سالم «وخرية» والمياه «تكبس» عليه من كل جانب فكان يعمل فى حقله أكثر من ثلاثمائة صبى وفتاة وكان يفرغ القطن من زكائب الأنفار بعد وزنه .. ويفرشه فى شمال الحقل .. ليعرضه طوال الليل لطراوة الهواء وندى الفجر ..

وعلى نور الفجر يكبسه الرجال فى الجوالات .. ويرصونه فى صفوف منتظمة .. فى الأرض الفضاء المعدة لذلك .. وعندما ينتهى الجنى ينقلونه باللوريات إلى الشونة ..

ولهذا كان سالم يمضى أيام الجنى كلها فى الغيط .. ينام ويتناول الطعام فيه ويستريح فى القيلولة .. تحت شجرة من شجر الجميز .. على الطريق الزراعى ..

وكان الأنفار يركبون «السرايب» قبل الشروق ويظلون يعملون إلى مغرب الشمس ..

وكان سقاء القرية يمر عليهم بقربته الممتلئة كل ساعتين .. وكان يمر على الفتيات أولاً لأنهن فى المقدمة متناثرات فى شمال الحقل كالزهور .. وكانت أغانيهن العذبة تجذبه إليهن . فيتخطى المجراة ويقبل عليهن بدلوه وتتلقاه جميلة أكبر الفتيات .. بقولها :

– ميتك عكره زى وشك .. روح أملأ من ساقية موسى .. دى مية من الترعة يا منيل ..

– لسانك الزفر دا .. اللى خلا جوزك طفش .. تانى يوم الدخلة .. وسابك ..

– روح جاتك ضربة فى قلبك .. أنت وهو ..

وكان عبد الحميد يستقرب ويملأ من الترعة فعلاً فيشرب الأولاد ماء نصفه طين ..

ورغم الماء العكر .. والطعام الردىء والحراسة الشديدة .. فإن أزاهير القطن ولوزه الكبيرة التى تنشق .. فى أربع عن مثل الحرير الأبيض كانت تنسى العاملين فى الحقل كل المتاعب ..

وكان هذا الذهب الأبيض هو المحصول الوحيد الذى يشيع الحركة والبهجة فى كل مكان ويجعل النقود تتداول فى أيدى الناس فى القرية والمدينة .. وعندما ينتهى موسمه ويبدأ الشتاء تموت الحياة فى القرية .

وكان سالم عندما يفرغ من عمله ويتمدد على جوالات القطن الفارغة مسترخيًا شاعراً بلذة من يستريح بعد العمل والجهد يمسح عرقه ويتأمل السكون الذى حوله .

* * *

وكان الفلاحون يمرون على مجلسه ويشربون عنده الشاى ويتحدثون معه عن متاعهم وأمانيهم .. ويسألونه عن أحوال السوق وسعر القفل فى البورصة وعن أحسن وقت لبيع المحصول .. وكان سالم يضحك ويقول لهم :

– إن المرض الظاهر فى هذا الجيل من الفلاحين إن كل واحد منا .. يود أن يكون تاجراً من تجار القطن ومزارعًا فى الوقت نفسه .. وتلك استحالة لا يمكن حدوثها .. والفلاح الحقيقى هو الذى يبيع قطنه بمجرد أن يفرغ من الجنى ولا ينتظر ساعة واحدة . يبيعه .. بسعر السوق ويخلص نفسه من المرابين ومن بيع الأجل ومن بيع الكونتراتات .. ومن فوائد بنك التسليف فإن هذه حماقات التاجر .. ويجب ألا يعرفها المزارع .. على الإطلاق .

– وهل ستبيع أنت قطنك بعد الجنى مباشرة .

– بعد أن أخيط .. آخر كيس .. سأقبض الثمن .

– لكن الشيخ عبد الرحمن .. لا يبيع إلا في آخر الموسم .

– وأنت شايفه يعنى فالح ..

ومر رجل بحماره فحيا الجالسين من بعيد ..

– دا يعنى الشيخ بكر .. كان فين متأخر لغاية دلوقت ..

– كان في المركز .. النيابة طلبته تاني ..

– ماحدش شهد على رشوان غيره .. كلهم خافوا ..

– أنت اللى خليته شهد يا سالم أفندى كل الناس بتقول كده ..

– الراجل كان حيشهد أول ماجت النيابة البلد لكن الفلاحين خوفوه .. وقالوا له مافيش فايدة في الشهادة .. لا حد شاف الضارب .. ولا المضروب والدنيا كانت كحل .. فكش وسكت ولما رأيت دم القتيل المسكين سيذهب هدرا قلت له حرام عليك يا شيخ بكر وأنت حافظ كتاب الله تتستر على الجريمة روح قول اللى شفته .. ولا تخاف من مخلوق ..

– لكن إيه الفايدة .. رشوان هارب .

– لازم حيقع .. واحنا اللى سايبينه يجرى على كيفه .. يعنى الناس كلها مش عارفة إنه امبارح كان بايت مع سلمان خفير الوابور .. وأول امبارح كان مع خضره .. وكل الناس شافته .. والعمدة عارف .. لكن محدش بيتكلم .. لأننا كلنا جبناء ..

– الناس عاوزه تعيش في هدوان السر .. يا سالم أفندى .. وتتقى شر المجرمين دول ..

– تتقى شرهم إزاى واحنا بنستر عليهم ونخفيهم ..

– ما الحكومة بعد ما تمسكهم بتسيبهم تانى .. بيطلعوا بكفالة ..

– علشان مفيش دليل ملموس .. ماحدش بيشهد تمام .. ماحدش بيتكلم .

– يعنى حتقضى على الجريمة فى الريف فى يوم وليلة يا سالم أفندى .. دى حاجة قديمة ..

– نحاول .. واللى بيجى بعدنا لازم يحاول ..

* * *

ولكن الشيخ بكر .. لم تطلع عليه شمس اليوم التالى فقد قتل وهو خارج لصلاة الفجر .. وازداد خوف الفلاحين من رشوان وبطشه . ولم يستطع إنسان أن يفتح فمه . وعندما علم سالم بالخبر غضب غضبة الأسد وهو يرى أحد أشباله مقتولاً فى عرينه . ولكنه كتم عواطفه ولم ينبس بحرف .

وكان مهندس الزراعة فى المركز من أصدقاء سالم .. وكان يزور سالم فى غيطانه وبساتينه كلما خرج للمرور بسيارته الصغيرة .. وفى عصر يوم وكان فى المرور كعادته .. سقط بسيارته فى الترعة وجرى من أخبر سالم .. فأسرع إليه ووجد أن الفلاحين قد أخرجوه من الماء هو وسيدة ترافقه .. وبقيت السيارة غائصة .

وكانت حالة المهندس والسيدة محزنة إذ تلونت ملابسهما بالوحل وابتلت بالماء .

وقال المهندس حمدى .. عندما رأى سالم :

– جئت بماجدة لأول مرة لأريها الريف فى الصعيد .. وهذه هى النتيجة .

– احمد ربنا الذى نجاكم من الموت .

وكان الفلاحون الذين يمرون فى الطريق .. عندما يشاهدون سالم على الترعة يلقون فئوسهم وعصيهم ويتقدمون نحو العربة .. ولكن مضت ساعة دون أن يستطيعوا زحزحتها من مكانها .

فقال سالم لصديقه المهندس :

– نروح البلد .. تستريحوا لغاية ما نطلع العربية .. روح يا واد يا همام هات الركايب ..

– ماجدة لا تعرف تركب جمل ولا حمير .. حنسيبها هنا لغاية ما تفوت عربية ..

– طيب تعالوا نتمشى للغيط وحنطلب عربية من المركز أو البندر .. وجلسوا فى مكان مريح وحولهم الخضرة والماء يجرى .. وخلع حمدى ملابسه المبتلة ونظر سالم إلى ماجدة ورثى لحالها فقد كان حذاؤها وجوربها وثوبها ملوثة بالماء والوحل .. وهى لا تستطيع أن تفعل فى هذا العراء شيئًا .. وسرعان ما أقام لها خيمة صغيرة .. وجاء لها بالماء من الساقية .. ففكت أزار قميصها .. وخلعت الجونلة وغسلت ذيلها .. وغسلت الجورب ونشرته مع القميص .. وظلت فى داخل الخيمة شبه عارية .. وكانت أشجار القطن أمامها والفضاء الواسع وراءها . وهى مستلقية على ربطة من أكياس القطن الفارغة الجديدة فرشوها كمرتبة .. وساءلت نفسها أيراها أحد الفلاحين وهى على هذه الحالة .. وسرت لأن العشى زحف والنجوم كانت فى السماء .. وأسدل الليل أستاره على عريها .. وشعرت برغبة عنيفة فى أن تخرج عارية لتستحم فى جدول الماء .. ثم تنام على الحشائش وأوراق الأشجار تتساقط على جسمها ونسيم الليل الرخى يداعب شعرها ويملأ رئتيها ..

ثم قاومت هذه الرغبة وخجلت من نفسها ومن التفكير فى هذا العرى الفاضح ..

وسمعت صوت زوجها .. يتحدث مع سالم .. وكان الصوت بعيداً وسمعتهما يضحكان .. وفكرت فى أن زوجها يحدث سالم عنها .. وعن حبه لها وزواجه بها .. ثم رأت أن سالم أبعدها عن المجلس متعمداً كأنها ريفية مثله لا تجلس مع الرجال فاغتاظت .. ونهضت وارتدت ملابسها قبل أن تجف وخرجت عليهما حافية ..

فقال زوجها وهو يراها مقبلة :

– كنت بتكلم مع سالم علشان يشوفلك خدامة .. فقال بعد القطن علشان البنات يتجنى .. وميعرفش إنك مدرسة ومشغولة .. وأنا لازم آكل فى البيت .. ففهميه أنت يا ستى .

فقالت ماجدة وهى تجلس :

– حقه الخدامة عاوزينها ضرورى ..

فقال سالم بهدوء وهو يبتسم :

– حاضر ..

وكان العشاء قد جاء من القرية .. فأخذوا يتعشون .. وكانت السيارة لاتزال غائصة فى الوحل .. وقطع المهندس الأمل فى حضور أية سيارة أجرة واستقر رأيه على تمضية الليلة هو وزوجته فى هذا المكان ..

وسأل حمدى سالم وهو يشعل سيجارة .

– ما هو محصول فدان القطن .

– من ستة قناطير إلى سبعة ..

– وجيرانك الصغار ..

– بعضهم يأتى بعشرة ..

– ولماذا هذا الفارق الكبير ..

– لأنى استعمل الطرق الحديثة فى الزراعة ... !

وضحك الثلاثة ..

وقال حمدى :

– لقد عرفتُ أخيراً .. لماذا ينظر الفلاحون إلى بسخرية وأنا أشرح لهم الطرق الحديثة فى الزراعة ومقاومة الآفات .. كانوا يعرفون أننى أحشو رأسى بنظريات علمية ولا تجارب لى عملية على الإطلاق .

– عندما تجىء للفلاح فى الغيط .. وتقول له صب صفائح البترول فى القنوات لتقتل دودة الأرض .. تكون كالطبيب الجاهل الذى يقول للمريض الفقير كل التفاح على الريق الصبح ..

– إن أهم ما فى المسألة أن يفهم ضابط النقطة .. ومعاون الزراعة الحياة فى الريف المصرى .. يفهم حياة الفلاحين وإمكانياتهم قبل أن يخطو خطوة واحدة ..

– وهناك أشياء تخضع لنواميس الطبيعة وحدها ولا تخضع لأى نظام آخر فأنا أعطى الفدان ثلاثة أجولة من السماد ويجىء لى بأربعة قناطير .. وأعطيه جوالاً واحداً .. وينحل ثمانية قناطير ..

– هذا صحيح ..

وسأل سالم ماجدة وقد رآها صامتة والحديث عن الزراعة ثقيل على سمعها .

– مبسوطة من الصعيد ؟

– خالص .. وإذا كنا كل مرة نخرج فيها بالعربية نقع فى الترعة يبقى مافيش أحسن من كده ؟

– لماذا وقعت يا حمدى .. وأنت سائق ماهر ..

– لأننى أخاف ..

– تخاف ؟

– أجل والخوف هو عدوى الرهيب .. عندما كنت طالبًا كنت أخاف أن أرسب فى الامتحان .. وأنا الآن أخاف أن أفصل من الوظيفة .. وأن أمرض ولا أجد الدواء وأن أكون أسرة ولا أدرى كيف تعيش من بعدى .. وأن أنقل إلى أقصى الصعيد .. وأن أقتل إنسانًا بالعربية .. فأسجن وأن أتنزه بماجدة فى الليل فتخرج علينا الوحوش ..

– إن هذه خواطر عابرة تدور فى رأس كل إنسان .. فلماذا تبرزها مجسمة .

– لأنها تشل حركتى .. وترهبنى .. ألا تخاف أنت هنا وأنت تنام فى الغيط ؟

– إننى لست بقاتل ..

– ألا تخاف أن تقتل وأن يسطو عليك اللصوص ؟

– إن الذى يفكر هذا التفكير .. لا يعيش فى الريف .. ونحن هنا نتعاون على الحياة فجيرانى فى الزراعة .. ينامون الآن فى بيوتهم مطمئنين لأنهم يعرفون أننى أحرس الزراعات كلها .. قبل زراعتى ..

وظلوا يتحدثون حتى انتصف الليل .. وأحسوا بالحاجة إلى النوم .. وفرش سالم للزوجين فى الخيمة .. ونام هو بعيدًا فى العراء .

* * *

وعندما دخلت ماجدة الخيمة خففت من ثيابها ونامت بجانب زوجها والتصقت به وأحست بالرغبة فى أن يلتصق بها ويضمها إليه .. وهى بين أحضان الطبيعة .. لتمر بتجربة جديدة ولكنه كان متعبًا ومنصرفًا عنها .. فاستغرق فى النوم وظلت هى ساهرة مستلقية وعينها إلى النجوم وهى تتهادى فى السماء .. وكانت الكلاب تنبح بعيداً والضفادع تنقنق بانتظام .

وبعد أن لاح الفجر رأت من بعيد فلاحًا يغتسل فى الماء .. ثم رأت امرأة تأتى من بعده لتملأ جرة ..

وقدرت أنهما زوجان .. ولكنها تحيرت كثيراً وهى تبحث عن مكان خلوتهما فى هذا العراء .. وابتسمت بعد أن شعرت بأنها عاجزة عن فهم الحياة هنا .. وقبل أن تشرق الشمس نامت ..

وكان سالم فى الجانب الآخر من الحقل ساهراً ، وعندما مر أمام الخيمة فى الصباح .. رأى ماجدة نائمة وهى عارية الفخذين .. فأرسل إليها فلاحة غطتها ..

وبعد طلوع الشمس أخرج لهما العربة من الترعة .. وعاد حمدى بزوجته إلى المدينة ..

* * *

وفى الليلة التالية كان سالم متمدداً فى مكانه .. وأغفى قليلاً .. ولما استيقظ لم يجد الخفير قريبًا منه .. فأدرك أنه ذهب إلى مكان آخر .. وسمع حركة فدار حول أكياس القطن نصف دورة .. فلم يصادف أحداً ..

ورأى وهو يعود إلى مكانه .. ظلاً أسود يتحرك فى الغيط .. بين أشجار القطن العالية .. فدخل الحقل ووجد جميلة تجنى وتضع القطن فى عبها .. ولم تصرخ عندما رأته .. إنما نظرت إليه فى سكون .

- بتعملى إيه يا بنت ؟

- بحوش ثمن الدوا لأمى .. مريضة ومسكينة .. عبد الموجود سابنا وطفش .

ورفع يده ليضربها .. فجلست على الأرض تتقى ضرباته .. بكلتا يديها .. ولكنه خجل من نفسه بعد أول صفعة .. عندما رأى الدم يسيل على خدها .. ورأى ثيابها ممزقة عن بشرتها ..

وتأثر ووضع يده على عاتقها لينهضها فجفلت .. وسقط بجوارها .. وأخذت تلوذ به وتبكى فاقترب منها وأحس بيده تلمس لحمها من تحت الثوب الأسود الممزق وكانت أشجار القطن العالية تغطيهما .. وتحجبهما عن أنظار الليل الساكن ..

وعجب لنفسه وهو يضمها إلى صدره .. إذ خيل إليه أنه يضم ماجدة ببشرتها البيضاء الناعمة وجوربها الوردى .. !

* * *

وكان حمدى يزور سالم كثيراً ومعه زوجته .. وسرت ماجدة بما حول الحقول الشاسعة من بساتين .. وكانت تشعر بالراحة لأن الفلاحين يعاملونها باحترام وأدب .. برغم أنها تلبس ملابس غريبة عليهم وتجىء أحياناً وهى مرسلة شعرها ولابسة فستاناً قصيراً وكانت قد ازدادت الألفة بينها وبين سالم فأصبحت تناديه باسمه مجرداً .. وكانت لا تجد غضاضة فى أن تتمشى معه وحدها بين الأشجار ..

وكانت تعتمد على يده وكتفه وهى تتخطى القنوات الصغيرة .. وذات مرة حملها مضطراً .. وعبر بها منطقة من الوحل .. وعندما وضعها على الأرض الجافة لم تلاحظ على وجهه أى انفعال .. كان كأنه يحمل زكيبة لا حياة فيها .. !

وكانت تحب زوجها ومستريحة إلى الحياة معه .. وهو فى صباه مثلها ولكنها كانت لا تحب منه تلف أعصابه وشدة حساسيته وتضخيمه للأشياء الصغيرة حتى يجعلها مشاكل .. وخوفه من كل شىء .. خوفه المخجل .. حتى لا تحس بأنها فى حضرة رجل يحميها .. وحمدت الله لأن زوجها يعرف سالم .. وكان سالم يشعرها بالقوة والرجولة والأمان المطلق ..

ولهذا كانت توده .. وتود ألا يغيب عنها ساعة .. ولكن أعماله ومشاغل الحياة كانت تستغرق كل وقته .. وكان يذهب إلى بيتهم فى المدينة ويمكث مع زوجها قليلاً .

وكانت تسر عندما تسمع صوته .. ويرقص قلبها .. ولكنها لم تستطع تعليل هذه المشاعر ولا تفسيرها بوضوح .. أتحبه وهو الرجل الغريب عليها .. أتحب صديق زوجها .. وما جدوى هذا الحب .. وما العاقبة ..

وكانت تخجل من الهدايا التى يغمرهما بها .. فهو يرسل لهما السمن والفريك والعدس وكل أنواع الفواكه .. وكانت تسائل نفسها أيمكن أن تكون هذه الأشياء كلها دون مقابل فى هذا العصر المادى .. أيرسل هذه الهدايا لها أم لزوجها ..

وتشجعت مرة وسألت حمدى وهى تشعر بضربات قلبها كالمطرقة ..

– ليه ما ندعوش سالم ومراته علشان أعرفها .. ؟

– سالم مراته ماتت من سنتين ولم يتزوج بعدها .. كان يحبها ..

– ويعيش إزاى فى الفلاحين من غير امرأة ؟

– أمه وأخواته .. موجودين معاه .. بيتهم وسية .. سالم متعلم أحسن منى وبيروح مصر كتير .. متفكريش علشان بتشفيه لابس بلدى إنه فلاح .

– أنا عارفة ..

وكانت تعرف عن حياة سالم أكثر مما يعرف زوجها ..

* * *

وذات مساء .. أحس سالم بحنين إلى جميلة فقال لها وهى تتقدم إلى الميزان .

– ابقى روحى يا جميلة .. وهاتيلى العشا من الست الكبيرة .

حاضر ..

وجاءت له بالعشا وبعد أن تعشى وانصرف الفلاحون من حوله .. جذب جميلة إلى نفس المكان الأول ..

وسألته وهى فى حضنه :

– كنت حتوديني .. المركز صحيح يا سى سالم لما أخذت شوية القطن ؟

– أبداً ولو أخذت الغيط كله ..

– لكن أنت خوفتنى ..

– أحسن علشان متمديش أيدك تانى .. أنا بفكر فى حاجة كويسة علشانك يا جميلة علشان أمك المسكينة .. بفكر أوديك عند الست مرات المهندس اللى شفتيها هنا .. دول ناس كويسين .. وحتستريحى خالص .. وحتعاملك كأختك .. وتحوشى قرشين ليك ولأمك المسكينة ..

– ولكن لازم أروح أشوف أمي كل يوم خميس ..

– هو حيوصلك بعربيته لغاية البلد .. قبلت ؟

– أيوه .. وحضرتك بتروح بيتهم فى البندر ؟

– أيوه وحشوفك هناك ..

– وسرت جميلة .

ومرض حمدى .. ودخل المستشفى يعمل عملية الزائدة الدودية .. وكان سالم فى ذلك الوقت قد انتهى من جنى القطن .. وجاء إلى المدينة لبيع محصوله . ولما علم بمرض حمدى زاره وحضر العملية الجراحية .. وظل مع ماجدة ساهراً فى المستشفى حتى اطمأن على الحالة .. وكان حمدى قد رغب قبل العملية فى أن يكتم خبرها عن أهله وأهل زوجته حتى لا يزعجهم ويحملهم مشقات السفر وهم فقراء فوجدت ماجدة فى سالم خير عون لها فى وحدتها وتمريض زوجها .

وكان دائمًا يرافقها بعد أن تخرج من المستشفى إلى البيت .. ويودعها على العتبة ليذهب إلى الفندق .

وقالت له ذات ليلة :

– لماذا لا تدخل .. استرح قليلاً إنك فى غاية التعب ..

– إن زوجك غير موجود .. ولايمكن أن أدخل وهو غائب .

– هذه إهانة لى وأنا متعلمة كما تعرف .. ولا أحب أن تعاملنى كجارية ..

– لا يمكن أن تغيرى من طباعى الريفية المتأصلة بين يوم وليلة .. أرجوك .

– ادخل .. لتستريح قليلاً .. سأصحى جميلة .. وسأترك الباب مفتوحاً .. لقد جعلتنى أضحك ..

– لا يمكن ..

وذهب ..

* * *

وذات مساء فتحت لهما جميلة الباب .. وكان يريد أن يطمئن على حال الفتاة فدخل البيت وجلس فى الداخل .

وقالت ماجدة بعد أن ذهبت جميلة تصنع الشاى ..

– لا أدرى كيف يكون حالنا لو لم تكن موجوداً هنا ..

– كيف ؟

– لقد أنقذته .. ودفعت مصاريف علاجه .. لو لم تكن موجوداً لا أدر كيف كنا نواجه الحياة ..

– أرجوك .. هات الشاى .. أو امشى بدونه ..

– إنك تبتعد عنا .. ولكنك أصبحت جزءاً من حياتنا .. سواء اعترفت بهذا أو انكرته .. وأنا أفكر فى أن أزوجك بعد أن يخرج حمدى من المستشفى ..

– مصرية .. أو زميلة لك فى المدرسة ؟

– امرأة تحبك وتعاونك فى عملك الشاق .. وتضع رأسك على صدرها فى آخر النهار ..

– ومن يدريك .. ربما تكون هذه المرأة موجودة .. !

– أعرف أنك تعيش فى فراغ ..

– إن لذتى فى عملى .. وأنا مستريح لحياتى هكذا .

– إنك شديد القسوة على نفسك .. وعلى غيرك ..

– أرجوك .. تصبحى على خير ..

– ذاهب هكذا .. .

– أيوه ..

– دون أن تسلم على .. ومد يده فتناولتها .. ومرغتها على خدها .. فسحبها برفق . واقتربت منه .. وفى عينيها التمنى والرجاء .. فانسحب بهدوء .. ولما جاوز الباب الخارجى خرج يهرول فى الليل ..

وشفى حمدى وخرج من المستشفى إلى بيته .. ودعاه سالم بعد أن اجتاز فترة النقاهة إلى تمضية يوم عنده فى القرية .. فذهب مع ماجدة وجميلة وقضوا نهاراً جميلاً .. ولم يمانعا فى تمضية الليل فى بيته .. فأعد لهما الطابق الثانى من البيت ، وذهب كل إلى فراشه .. وحلمت ماجدة أن جميلة نائمة فى فراش سالم .. ولما صحت من نومها سمعت صوت جميلة وصوت سالم .. فهل أصبح الحلم حقيقة .. اغتاظت وأبعدت هذا الخاطر عن رأسها .. وتحركت فى الفراش فاستيقظ زوجها .. واقترب منها فدفعته عنها بخشونة .

وفى عصر اليوم التالى تناول بندقيته وركب مع ضيفيه حتى خرجا من القرية واقتربا من سكة المدينة ..

وقالت ماجدة :

– عمرى ماشفتك مسلح غير دلوقت .. خوفتنى ..

وطلب سالم من السائق أن يقف فسألته :

- مش رايح معانا .. !

- لا .. أنا ذاهب إلى مهمة خطيرة فلم تفهم ومع ذلك اصفر وجهها ..

- وجاى بكره .. ؟

- يمكن ..

وهمس :

- إن كان لنا عمر ..

وودعهما وهبط الجسر ..

* * *

وبعد أن اقترب من بستان الشيخ خليل وفى ظل نخيله .. رأى خضرة .. زوجة الحارس تحمل شيئًا على رأسها وتدفع باب البستان ..

فقال لها :

- يا خضرة .. أنا عارف إن رشوان جوا .. فخليه يطلع يكلمنى ..

- أنت .. تيجى علشان كده .. دا مجرم يقتلك .. !

- أنا كنت أقدر أضربه من غير ماأتكلم غيلة .. لكن أنا مش مجرم زيه .. خليه يطلع ..

- يا سى سالم .. يسمعك .. روح .

ودوت رصاصة انطلقت من الداخل .. وكادت أن تقتل سالم .. فتراجع واحتمى بجذع نخلة وأطلق النار ..

واستمر الصراع الرهيب بين الرجلين مدة طويلة .. حتى انقطع صوت النار من الداخل ..

وعندما جاء الفلاحون من القرية .. وجدوا رشوان مقتولاً .. وسالم على مدى قريب منه .. وقد جرح فى كتفه وسال الدم على قميصه .. وكانت جميلة هى الوحيدة من بين الحاضرين التى استطاعت أن تقترب منه وتمسح جرحه بمنديلها .. !!

المرأة التى أحببتها

زارنى صديقى خالد فى مكتبى قبل شهر رمضان .. وكان قد جاء على عجل من الغردقة فى زيارة قصيرة لوالدته المريضة .. وكنت لم أره من تسع سنوات مذ رحل عن القاهرة ليعمل فى حقول البترول فى تلك الأرض العذراء .. فاستقبلته بترحاب وشوق ودعوته إلى الغداء فى منزلى فاعتذر فلما وجدنى ألح قبل أن نتعشى فى أى مطعم بالخارج .. فلما أفهمته أننى أقصد بالدعوة أن أريه بيتى بعد الزواج مرت على وجهه سحابة وتجهم قليلاً ثم قال وهو يحاول أن يكون طبيعياً :

– أنا لا أحب أن آكل بين أربعة جدران .. وحياتى الجديدة فى الصحراء .. عودتنى على هذا ..

فلم ألح وجلسنا للعشاء فى كازينو على حدود الصحراء فى ضاحية مصر الجديدة .. وطلبت مع العشاء كأسين من الخمر . فأشار بسبابته إلى الساقى أن يأتى بكأس واحدة فقط .

فسألته :

– ولماذا ؟

– لأننى لا أشرب .

– لا تشرب .. وأنت تعمل فى الصحراء .. ألا تسلى نفسك ؟

– أبداً .. وأنا أعمل مع أجانب يشربون الخمر فى النهار والليل على الطعام .. ولمجرد الشراب .. ولكننى لن أشربها قط .. فقد شربتها مرة واحدة فى حياتى .. وكانت القاطعة .

وكان وجهه قد اكتسى بلون القرمز وغامت عيناه .. ورأيته يحاول بقوة أن يطرد شيئًا قفز فجأة من أعماق نفسه .. ولما كنا على الطعام فقد رأيت ألا أثيره بأى سؤال .. وتركته يرجع فى تؤدة إلى هدوئه .. ولما رفعت الصحاف .. واستقبلنا بوجهينا الصحراء وأشعل كل منا سيجارته سألته :

– هل أنت راض عن عملك هناك ؟

– كل الرضى .. ولو لم أكن مجبراً عليه .. لاخترته بمحض رغبتى فالصحراء تطلق النفس من عقالها وتفتح الآفاق .. وأنت تعيش هناك فى هدوء وسكينة وتتأمل فى الكون والحياة .. وتشعر بأنك تحررت حقًا من كل قيود المجتمع .. فأنا ألبس الصندل والشورت .. وأترك صدرى عاريًا .. وأنا فى وهج الشمس وتحت ظل صخرة .. وفى الليل أرى السماء والقمر .. وأسبح مع النجوم .. وأشعر بعظمة الكون وبالحرية الحقيقية للإنسان .. وبأن الإنسان عظيم .. والخالق أعظم منه ..

وعندما نستيقظ فى الصباح ونذهب إلى العمل .. أرى الذهب الأسود يتفجر من الأعماق .. وعلى مسافة قليلة منا بعض عمال المحاجر يفتتون الصخور بديناميت .. نوبل .. الذى حاول أن يكفر عن جريمته الكبرى بجائزة السلام ولكن ما من غفران ! وأرى العمال يغنون ويعملون فى حماسة تحت وهج الشمس ونارها وهم سعداء .. لأنهم يعملون فى أحضان أمهم الطبيعة .. التى تعطف على كل إنسان ..

– ألم تفكر فى الزواج .. إن الزوجة خير أنيس فى الصحراء .

– لقد تزوجت مرة .. وكفى .. وأعيش على هذه الذكرى ؟

– أنت .. متى .. لم يحدثنى أحد ؟

وشعرت بالخجل لتقصيرى فنظر إلىّ مبتسمًا وقال :

– لا تبتئس لقد كان ذلك منذ سنوات .. وما من إنسان يعرف هذه القصة ..

وصمت .. ولم أكن أعرف أن فى حياة خالد قصة ، ذلك الزميل المتكبر الذى ينفر من الحياة والمجتمع ويعيش منطويًا على نفسه بكبرياء عجيبة ..

وقال وفي صوته ذلك الجرس الأخرس الذى أعرفه فيه ..

– ما من مرة قابلتك .. إلا رغبت فى أن أحكى لك هذه القصة .. ثم يحول حائل فى آخر لحظة .. وسأرويها لك الآن .. لأنك ربما لا ترانى مرة أخرى .. من يدرى .. أشعر فى أعماقى بذلك ..

وشعرت بشىء يعصر قلبى وأقبل علىّ خالد بوجهه وهو ينفض الرماد .. وخيل إلىّ أن وجهه قد لمع فجأة بوهج أحمر ثم انطفأ .. وأن خيوط الزمن تجذبه عبر السنين إلى شىء بعيد هناك ثم ترده إلىّ وقال بصوته الأخرس المكتوم الرنين :

«كنت فى الخامسة عشرة من عمرى وفى المرحلة الأولى من الدراسة الثانوية . وكان والدى يسكننى مع خالى عبد القادر فى مدينة أسيوط .. وكان مهندسًا فى تفتيش الرى .. وحدث ، قبل شهرين من الامتحان أن نقل خالى إلى مدينة المنصورة فخشى والدى أن تضيع علىّ السنة إن انتقلت معه إلى المنصورة لأن لكل مدرسة منهاجها .. واحتار فيما يفعل .. ثم رأى أن يؤجر لى غرفة فى فندق لأقضى فيها الشهرين الباقيين وذهب إلى المحطة وأنا معه ليرى الفندق .. وقابل وهو صاعد

إلى الفندق صديقًا له من الأعيان يدعى عبد الفتاح أفندى وعرف لماذا نبحث عن غرفة .. فأقسم على والدى أن أقيم الشهرين فى بيته ولم يكن هناك سبيل للرفض أو الاختيار فقد أقسم الرجل يمينًا كبيرة وأصر .. ودخلت بيت عبد الفتاح أفندى لأول مرة وكان يسكن فى بيت أشبه بالقصر فى جهة الحمراء .

وكان من الأثرياء وله أملاك وأطيان فى المديرية .. وكنت لا أراه بالنهار قط وفى الليل يجىء إلى بيته ليسكر وينام .. هكذا كانت حياته .

وكان متزوجًا من سيدة شابة من أصل تركى أو مغربى وكانت فى الوقت الذى دخلت فيه البيت ترتدى السواد لموت والدها أو والدتها .. وتبدو حزينة تضم صدرها على لوعة تتوهج فى خفاء كجذوة تحت الرماد .. ولكنها استقبلتنى ببشاشة .. وخصصت لى أحسن غرفة فى البيت وحرصت على راحتى واستذكارى فى جو هادىء .

وكان فى البيت أربع أو خمس من الجوارى السود والبيض ولكن السيدة كانت تشرف بنفسها على الطعام .

وكان زوجها يأتى من الخارج فى الساعة التاسعة مساء ليتعشى وكنا نجلس نحن الثلاثة حول «طبلية» كبيرة ونأكل وكنا نفرغ من الطعام أنا ونعمات هانم .. ويكون هو لا يزال يشرب الزبيب .. ولم يبدأ فى الطعام بعد وكنت أتركهما وأذهب لأذاكر .. وأسمع صوته من غرفتى ... وكان فى معظم الحالات يثور لسبب لا أعرفه ويرتفع صوته بالزعيق .. مع أنه كان يحافظ على هدوئه عندما أكون جالسًا معه ويبدو فى أحسن حالاته .

وقد لاحظت جيدًا أن عبد الفتاح أفندى يكون فى ساعات العصر والغروب طيب المعشر وادعًا فإذا جاء الليل ثار .. وابتدأ عراكه مع زوجته .

وكانت هى تقابل زعيقه بالهدوء والصمت التام .. ويظل يصيح ويزعق حتى أصبح لا أسمع صوته . فأعرف أن الخمر ثقلت عليه فنام فى مكانه ثم أسمع حفيف ثوب الست وهى ذاهبة إلى غرفتها .. وأسمعها وهى تتحدث مع خادمتها التى تنام معها فى نفس الغرفة لتؤنسها .. وكانت الخادمة تحمل إلىّ فى كل ليلة وقبل أن ينتصف الليل بعض الشاي .. لأستعين به على السهر .. إذ كنت أذاكر إلى الساعة الثانية صباحاً .

* * *

وكانت نعمات هانم تعنى بى عناية الأم بولدها الوحيد ولقد شعرت بعد أسبوعين بأننى أعيش فى بيتى .. وبأننى لم أفقد أمى .. وأنا طفل وأصبحت لا أشتاق إلى البلد كل يوم خميس كما كنت أفعل .. وكنت كثيراً ما أصرف الخادم الذى يجيء بالحمار ليقلنى إلى بلدى ..

وكانت هى التى ترتب لى غرفتى وتعنى بثيابى وتنظم مكتبى وتسألنى فى آخر الليل وقبل أن تنام هذا السؤال الحبيب :

– أنت عاوز حاجة يا حبيبى ؟

ولم أكن فى حاجة إلى شيء أكثر من أن أسمع صوتها الحلو يرن رنين الفضة الخالصة فى كل حين .

وكانت ساعة العشاء هى أحب الساعات إلى نفسى .. لأنها كانت تجلس قبالتى على الطبلية .. وقد ارتدت رداء سابغاً أسود وعلى رأسها طرحة فى لون الثوب .. وكنت لا أرى إلا يدها البيضاء الصغيرة وهى تمتد إلى الصحاف .. ووجهها المنير .. والابتسامة العذبة على شفتيها الرقيقتين .. وكانت تتحدث فى صوت عذب وتقول لى أنها ستشترى لى

ساعة ذهبية إذا نجحت في الامتحان كما كان عبد الفتاح أفندى ذلك الرجل الطيب الذى كان مشغولاً عنا دائمًا بكأسه يقول لى أنه سيشترى لى عجلة لأذهب بها إلى المدرسة . والواقع أنه لم يكن هناك أى شىء يمنعنى من النجاح .

ولقد شعرت بالفارق الكبير بين الفوضى التى كنت عائشًا فيها فى بيت خالى عبد القادر الكثير العيال والمتزوج من ريفية جاهلة .. وبين هذا البيت الهادىء الذى ليس فيه أطفال إذ أن عبد الفتاح أفندى لم ينجب ويبدو أنه يئس من أن يجىء بوريث وانصرف بكليته إلى الكأس وكان فى حالة غيبوبة تامة حتى وهو فى أشد حالات الصحو .

وكرجل من الملاك كان ناجحًا فى حياته العملية ومن الطراز الأول .. ولم يكن للخمر أى تأثير فى أعماله فقد كانت تسير على نظام دقيق محكم وكانت إيراداته تتزايد ولا تنقص أبدًا ولم يكن يقامر أو يغشى المجتمعات وكانت لذته الوحيدة أن يجلس مع صديق على قهوة فى المحطة من الغروب إلى بعد صلاة العشاء . وقد ذكرت العشاء لأن هذا الرجل السكير كان يصلى ولا يفوته فرض .. ولم يكن يؤذى إلا نفسه فى الواقع. إذ كان سمحًا وكريمًا وقد أسقطت الخمر أسنانه وحنت ظهره .. ولكنه وهو الرجل الذى اقترب من الستين كان يسير على قدميه من بيته .. إلى المحطة .. وكان عنده «دوكار» ولكنه لم يكن يستعمله إلا نادرًا .

وكان يسافر إلى ديروط مرة ومرتين فى الأسبوع إذ كانت أملاكه كلها هناك وكان وهو السكير .. يصحو مبكرًا ويأخذ أول قطار .

وكنت أعجب وأسائل نفسى : لماذا لا يستريح الرجل وهو فى هذه السن ولمن يعمل ويكد .. حتى زوجته كانت تبدو لى وحيدة وليس لها أهل فى المدينة .

وكنت أقدر أنهما سيرحلان بعد سنة أو سنتين إلى القاهرة ويقيمان فيها نهائيًا إلى آخر الحياة .. ولا أدرى لماذا دار فى رأسى هذا الخاطر .. وكان بجوارهما بيت له حديقة جميلة مثل بيتهما ومن طرازه وكان يسكن فيه أحد الموظفين وكان له ثلاث بنات فى سن الصبا مثلى . وكن صديقات حميمات للهانم .. ويمضين معظم فراغهن معها .

وكانت رياضتهن المحببة أن يركبن حمارى الذى أجىء به من البلد فى يوم الجمعة وينطلقن به فى ذلك الشارع المهجور بجوار وابور المياه . وكن يضحكن فى سرور والغلام ممسك باللجام .. ويسير بهن مقبلاً مدبراً وهن خائفات حتى أخذن يضربن الحمار ويحثثنه على الإسراع ..

وكان بينى وبين هؤلاء الفتيات مودة وألفة .. وكن يعطلن الحمار عن العودة حتى يخيم الظلام فيعود به الغلام إلى البلدة خائفًا فى الليل . ولم أكن فى أى مرة أستطيع أن أرفض طلبهن .. فكنت أترك لهن الحمار والبردعة والغلام .. يفعلن ما يشأن . وذات مساء ركبته كبراهن وحدها .. وطلبت منى أن أركب خلفها لأمنعها من السقوط ولا أدرى كيف طاوعت نفسى وركبت .

وانطلقت تسوق الحمار وأنا أعاونها وأمسك معها اللجام .

وسألتنى وقد انطلقنا على مهل :

– مستريح كده .. ولا تيجى تركب من قدام ..

– لا .. مستريح ..

والواقع أننى كنت أشعر بلذة دافقة تهز كيانى وكنت أشم عطر شعرها وأشعر بجسمها يضغط علىّ ضغطًا كأنه يطلب الأمان .. ورأتنا الأختان الأخريان وطلبت كل واحدة منهن أن أعلمها الركوب مثل الكبرى وقد فعلت ذلك .

ولا أدرى كيف وصل الخبر إلى السيدة نعمات فأخذت تطرد الحمار بالغلام بمجرد وصولى .. وهكذا حرمت من النزهة البريئة .

وبعد هذا الحادث ازدادت عناية السيدة نعمات مراقبتها لى .. وأصبحت هى التى تشجعنى على المذاكرة كلما تعبت .. وتقدم لى الشاى بيدها .. بعد أن كانت تترك ذلك لخادماتها .. ثم تحمل لى طعام الإفطار بنفسها لأننى كنت أفطر وحدى مبكرًا قبل الذهاب إلى المدرسة وكنت أراها فى تلك الساعة من الصباح . وقد بدت فى أبدع زينة مضفرة شعرها .. فى ضفائر طويلة مرسلة وراء ظهرها ولابسة ثوبًا طويلاً .. لا يكشف شيئًا من جسمها ولكنه يبرزها فى أجمل صورة وكنت مفتونًا بصباحة وجهها وحلاوة صوتها .. ولكننى كنت هادئًا معها ولم أشعر فى أثناء انفرادى بها فى مكان واحد وغرفة مغلقة بأى انفعال عاطفى إذ كنت أنظر إليها كأم ولم تتغير هذه النظرة قط فى أى ساعة من النهار والليل .. وكانت هى حريصة كل الحرص على أن تبدو أمامى فى أثوابها السوداء الطويلة ولم أرها قط فى أى ثوب يشف عن جسمها .. ولم أنظر إلى هذا الجسم قط نظرة الغلام المراهق إلى شىء شهى قريب منه .. فقد كانت امرأة الرجل الذى أكرمنى وآوانى فى بيته وينظر إلىّ كأننى حفيده .. وإلى والدى كأعز صديق .

وهكذا كنت معها مفتونًا بسحر وجهها وسحر حديثها وأنظر إليها كشىء فاتن ولكنه محرم علىّ إلى الأبد .

وكنت أحب المذاكرة فى البيت أكثر من المدرسة .. فكنت أطير من المدرسة إلى البيت .. وكان أول شىء يقع عليه نظرى وجهها الذى يستقبلنى بحنان .

وكنت أحس بها وبوجودها معى أكثر مما أحس بأى إنسان آخر فى البيت وكان الرجل يكرم وفادتى ويحرص على راحتى ويشجعنى على المذاكرة بكل سبيل ، وقضيت أيام الامتحان ولم أشعر بوطأتها وثقلها .. فقد كانت نعمات هانم .. تودعنى كل صباح وتدعو لى .. وشعرت فى آخر يوم بشىء أشبه بالوحشة وبالفراغ والتيه الذى يعيش فيه اليتيم .. إذ إننى سأترك نعمات هانم .. وربما إلى الأبد .. شعرت بشىء يقبض على قلبى ويضغط بعنف .

وعندما جاء والدى ليأخذنى وسمعت عبد الفتاح أفندى يقول له : مش ممكن لازم يستنى أسبوع لغاية ما تظهر النتيجة ويروح ناجح ومبسوط .. سررت جداً ولا أدرى لماذا كان واثقًا من نجاحى .

وهكذا بقيت عند عبد الفتاح أفندى حتى تظهر النتيجة وأنا أشعر بسعادة غامرة ..

وفى كل يوم كنت أذهب إلى المدرسة لأسأل عن النتيجة وأعود إلى البيت فأجلس مع نعمات هانم أتحدث وكانت قد أخذت تعد لى طقماً كاملاً من الجلابيب والقمصان الحريرية .. جاء بها الرجل الكريم هدية منه لى قبل أن أتركهم .. وأخذت تفصلها بنفسها . وكنت أقضى معظم النهار جالساً بجوارها وهى تحوك الملابس على الماكينة .. وعندما شرعت فى أخذ المقاس نظرت إلىّ طويلاً .. كانت تود أن تقيس صدرى وذراعى .. وبسطت القماش لتتقدم إلىّ .. ولكن عندما وجدتنى كبيراً كالرجل ! ظهر على وجهها الخجل وقالت هامسة :

– نأخذ المقاس على قميصك اللى على الشماعة ؟

ولم يكن لى رأى فى هذه الحالة وأدركت وهى تنظر بفتور وسحر إلى أعماق عينى أنها خجلت أن تضع يدها على صدرى وجسمى ..

وفى تلك اللحظة نظرت إليها لأول مرة فى حياتى كأنثى ونكست رأسى إلى الأرض .. ولما رأيت عبلة الساق والقدم الصغيرة فى الخف الحريرى خرجت إلى الحديقة .. أتنسم الهواء .

وعندما علمت بنجاحى كادت تنسى نفسها وتضمنى إلى صدرها وسرت الفرحة فى البيت كله .. وأرسل عبد الفتاح أفندى برقية إلى والدى يبشره بنجاحى .. وأعد لى مائدة عشاء رائعة احتفاء بى وجلست أنا وزوجته إلى المائدة نتحدث ونضحك ونحن فى غاية السرور .

وكان يشرب «البراندى» من زجاجة كبيرة بجواره .. ويتحدث فى مرح .. وفجأة ملأ لى كأساً وأقسم علىّ أن أشرب احتفالاً بنجاحى ..

ونظرت إليه زوجته بغضب .. ولكن ليست هناك قوة كانت تمنعه من تنفيذ رغبته .. فرفعت الكأس إلى شفتى وشربتها وأحسست بمثل النار .. وكانت زوجته ترقبنى بأسف .. وفى أثناء هذه الفرحة وقبل أن نغادر المائدة جاءته برقية من ديروط بأن أخاه مريض ويطلبه فركب قطار الساعة الحادية عشرة إلى ديروط .

وكنت قد شعرت منذ شربت الكأس بتعب وبشعور من يود أن يتقيأ .. فجلست على كرسى فى غرفتى وأنا واضع رأسى على راحتى .. ورأتنى نعمات وهى مارة فجاءت وسألتنى :

– مالك يا حبيبى ؟

– مفيش حاجة .. بس تعبان شويه ..

– أوعى تكون اتوهمت من الشوية اللى شربتها ؟

ودارت بعينيها تبحث عن الزجاجة على البوفيه ، وكانت فيها بقية فملأت كأساً وشربت المقدار الذى شربته .

وقالت باسمة :

– شوف .. مفيش حاجة .. أنا ممتش ..

وهكذا شربت الخمر لتطمئنني لأول مرة فى حياتها .. فضحكت وأخذت عيناها فى الاحمرار .. وغابت قليلاً .. وكانت الخادمات قد ذهبن إلى فراشهن ولم يبق أحد فى البيت ساهراً سوانا .. وعادت تسألنى عن حالى .. وكنت أشد سوءاً من ذى قبل ، وقد تمددت بملابسى على السرير .

فقالت :

– سأعمل لك قهوة .

وجرت مسرعة إلى المطبخ .. ولكن عندما جاءت بالقهوة وأخذت تصبها ، انسكبت منها على الأرض .. فضحكت وكنت شبه محموم .. واقتربت منى ورأت رأسى يشتعل ، فوضعت راحتها على جبينى .. فأمسكت بيدها .. ولم ندر ما حدث .. ولم أشعر كيف قربت شفتى من شفتيها المحترقتين . وشددتها إلىّ وأنا أضمها بعنف .. وكنت أرتجف .. ثم رحنا فى غيبوبة وجرفنا مد الحياة الأكبر .. وكانت عذراء ..

* * *

وخرجت فى الصباح مبكراً دون أن أراها .. وكان يوم الثلاثاء .. وهو يوم السوق فى المدينة .. ووجدت أحد الفلاحين من قريتى فأركبنى حماره ، وعدت إلى البلد ..

* * *

وظللت طول الإجازة وأنا أعيش في قريتي في عذاب وسعر .. وكانوا يتصورون أنني تعب ومرهق من كثرة المذاكرة .. وكدت أجن من التفكير والعذاب لأنني خنت الرجل الذي أواني في بيته وجعلني كإبنه .. ولم أغفر لنفسي قط .. على رغم أن ما حدث لنا كان فوق طاقة البشر ..

* * *

ولم تطأ قدماي منطقة الحمراء منذ تلك اللحظة .. ولم أر الرجل أبدًا .. وجاءت الضربة الكبرى من القدر نفسه ، فقد حملت نعمات هانم وعاشت المسكينة في عذاب .. وانتقم منها عبد الفتاح أفندي ببطء ، بعد أن احتقرها ونبذها تسعة شهور كاملة عاشت فيها في جحيم .. وماتت في أثناء الوضع وهي تصرخ من الألم .. وكان هو في أثناء ذلك يسكر ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منه .. ولا أدري أين دفنها ، فليس لها أهل في المدينة ..

ولكنني في صيف كل عام .. أجد نفسي أذهب إلى الجبل حيث المقابر .. وأقف على قبر أتصوره قبرها . وأبكي .. وأطلب من الله أن يغفر لي ولها .. !

ولم أدخل بيت رجل متزوج بعدها .. ولم أشرب الخمر .. وقد مضى على الحادث أكثر من عشرين سنة ..

* * *

وصمت صاحبي وتحول عني إلى الصحراء .. وهو ينفث الدخان .. وكنت أفكر مثله في الحياة والمرأة .. وشقاء الإنسان .. وأنا أرفع الكأس الأخيرة إلى شفتي ..

فتاة من القرية

نزلت نفيسة من القطار إلى رصيف محطة القاهرة .. وضاعت فى زحمة المسافرين .. فقد كان قطار الظهر القادم من طنطا يحمل ضعف ركابه .. وكانت تعرف طريقها إلى مسكن ابنة خالتها منيرة فى حى شبرا فلم تشعر بالخوف والرهبة عندما خرجت إلى ميدان المحطة الكبير ورأت ما تغير فيه من معالم ، فقد بدا الميدان فى نظرها جديداً ورائعًا ويتوسطه تمثال كبير .. وركبت الأتوبيس إلى شبرا واستاعت من بعض الركاب ومن الكمسارى الذى أسمعها كلامًا موجعًا لأنها لا تسرع فى الصعود والنزول .

ولم تجد منيرة فى مصنع النسيج كما كانت تقدر .. بل وجدتها نائمة ودافنة وجهها فى الوسادة ويبدو عليها الشحوب والتعب .. ورأت بجانب الفراش منضدة بقى عليها أعقاب السجاير وفنجان من القهوة .. وكأس فارغة .. ووجدت أثاث البيت قد تغير وأصبح جميلاً أشبه بجهاز العروس .. فخطر لها أن منيرة تزوجت دون أن تعلمها .. وسرت لأنه أصبح لأبنة خالتها رجل يعولها بدلاً من حياتها الشاقة فى المصنع .. وفتحت منيرة عينيها فى تثاقل ورأت نفيسة فأسرعت وعانقتها منشرحة وإن كان فى عينيها الكسل والرغبة فى النوم من جديد ..

– مين فتحلك يا نفيسة ؟

– لقيت الباب مفتوح ..

– يا دى المصيبة .. نمت وسبت الباب مفتوح .. !

– نايمة وحدك ؟

– أيوه .. سنية فى المستشفى ..

– مالها ؟

– عيانه خالص .. مسكينة .. يوم الاثنين نزورها .. سوا ..

– وأنت يعنى نايمة .. لغاية دلوقت عندك راحة النهاردة ؟

– راحة على طول ..

– ليه .. سيبتى المصنع ؟

– قطع هو .. وصاحبه .. من سنة .

– دانا جايا علشان تشغلينى معاك .. أنت عارفة احنا تعبانين خالص من ساعة ما مات عمك عطية ..

وضحكت منيرة ..

– جاية تشتغلى فى مصر ... ؟

– أيوه .. وأبعت قرشين لأمى .. تعبت وحدها .. وبتربى يتامى ..

– يا اختى أنت لسه صغيرة وحلوة .. حاتشتغلى إيه .. خدامة ..

– أنا أعرف أقرأ .. وأقدر أشتغل فى مصنع شرابات .. فانلات .. معمل حلويات .. سمعت أنهم عاوزين بنات ..

– دى أحلام البنت فى القرية .. هناك أحسن ألف مرة من هنا .. أنت عارفة أيه اللى بيجرا هنا ؟

ونهضت منيرة وفتحت النافذة ودخل الضوء الباهر الحجرة وبدت ملابسها المبعثرة على الكرسى وعلى حاجز السرير .. وارتدت الروب

الموضوع على الحامل .. ونظرت فى المرآة .. لتصلح شعرها .. وبدت فى المرآة سمراء ممتلئة .. وشعرها مقصوص وحواجبها مزججة .. ووجهها ينضح بالمساحيق الممزوجة بالعرق ..

وقالت وهى ذاهبة إلى المطبخ : «حاعمل شاى ... » .

وشربتا الشاى .. وأكلت منيرة من الفطير الذى جاءت به نفيسة ، واستطعمت حلاوته وأغمضت عينيها أكثر من مرة .. كأنها تعود إلى القرية كما كانت صغيرة نقية .

ونهضت ترتب الفراش وتنظف البيت ونفيسة تعاونها ..

وسألت نفيسة :

– من بكره حدوّرى لى على شغل يا منيرة مش كده ... ؟

– أنت دلوقت ضيفة عندى .. تونسينى لغاية ماتيجى ستيتة .. وبعدين ندور ..

وظلت الفتاتان تعملان وتتجاذبان الحديث فى ألفة حتى اقترب الغروب .

فجلست منيرة أمام المرآة وأخذت تتزين وتبالغ فى زينتها .. حتى أصبحت تقاطيع وجهها كأنها مصنوعة وقالت وهى ذاهبة إلى الباب الخارجى :

– أنا عندى شغل من ستة لغاية تسعة يا نفيسة .. أوعى تخافى لوحدك .. أو تفتحى الباب لحد .. محبش حد يدخل عندى ..

– متخفيش .. روحى ..

وخرجت منيرة .. وشعرت نفيسة ببعض الخوف عندما خيم الظلام ولكنها كانت قد جاءت إلى القاهرة من قبل أكثر من مرة وإلى هذا البيت بالذات . فلم تشعر بوحشة الغربة وككل فتاة ريفية عليها النعاس بعد أذان العشاء ونامت نوماً عميقاً تتخلله أحلام ذهبية .

* * *

وفى الصباح استيقظت مبكرة كعادتها ووجدت منيرة نائمة كما رأتها فى اليوم السابق وعلى وجهها شحوب أكثر .. فأخذت تنظف البيت وحدها وتعد الشاى .. وشربت واستراحت ووجدت البيت جميلاً ومنسقاً وتمنت أن يكون بيتها هكذا .. فأثاثه جديد وحجره نظيفة والمطبخ عامر بكل الأصناف .. وعندما استيقظت منيرة فى الضحى سرت لأن نفيسة نظفت البيت ورتبته أحسن منها .. وأفطرتا .. وكانت منيرة تشرب السجاير بشراهة وتكثر من الرقاد فى الفراش ولم تشعر بالخجل عندما ينحسر الثوب عن ساقيها أو فخذيها .ولا يحمر خداها وكانت تتحرك فى البيت بقميص النوم .. وعجبت نفيسة لما طرأ على ابنة خالتها من تغيير .

وكانت منيرة تتمنى أن تبقى نفيسة معها فى البيت لتؤنسها ولكن هذه ألحت عليها فى أن تلحقها بأى عمل .. فأرسلتها مع أم نظير عند أسرة فى عابدين .. ولكن الفتاة عادت بعد عشرين يوماً وهى تبكى .. فقد كان سيد البيت يعود فى آخر الليل ثملاً .. ويذهب إلى فراشها ويوقظها بغلظة فلما تستيقظ .. يكلمها برقة ويطلب منها أن تبحث له عن أى شىء فى المطبخ .. أو تصنع له قهوة أو تأتى له بليمونة .. أو تبحث عن أجزاخانة مفتوحة فى الحى ثم أخذ يغازلها ويلمس جسمها عرضاً أو متعمداً .. وهم ذات مرة بعناقها وكانت الست على قيد خطوات منه .. فنزلت نفيسة لتشترى لحمة ولم تعد .

* * *

وكانت تود أن ترسل لوالدتها أى مبلغ بأسرع ما يمكنها فعملت فى بيت آخر ثم فى معمل صغير للحلوى وعلموها كيف تصنع علب الكرتون وسرت بهذا العمل وسرت أكثر لأنها تعمل وسط فتيات صغيرات فى سنها .. وفى مثل نضارتها وبراءتها ولكنها وجدت عينى صاحب المعمل تحطان عليها .. وأبقاها الرجل ذات مساء بعد أن انصرفت الفتيات وكلمها بعذوبة ولم تفهم بغيته وغازلها فلم تفهم غزله .. وأخيراً تقدم ليعانقها .. فدفعته بكل قوتها وصرخت فضعف وتركها ..

وقالت لها منيرة بعد كل هذه الحوادث : «خليكى فى البيت .. لغاية ما تطلع سنية من المستشفى تاخدك معاها .. فى مصنع الفانلات .. ودا مصنع كبير ومنظم مفيهش مسخرة ... » .

– «متشغلينى ممرضة .. عند واحد دكتور زيك ... » .

وسكتت نفيسة وبقيت فى البيت .. وكانت تود أن ترسل أى شىء لوالدتها .. ولو خمسين قرشاً .. فإنها تصنع الكثير فى الريف .. ولكنها لم تحصل على أى مبلغ فقد خرجت من هذه البيوت كلها دون أن تأخذ أى قرش .. لأنها هربت من شر أصحابها .

* * *

وذات ليلة تأخرت منيرة .. حتى عادت فى بكرة الصبح .. وأحست بها نفيسة وهى داخلة واستغربت منها ذلك وقالت لها فى الضحى :

«أنا حسيت بيك وأنت داخلة .. جيتى الصبح» .

فاصفر وجه منيرة : «كان الدكتور عنده شغل فى المستشفى وأخدنى معاه» .

وشربت سيجارة .. ثم أشعلت الثانية .. ونظرت إلى نفيسة وعلى فمها بسمة شاحبة .. وأرخت من جسمها الممدود ورفعت أهدابها .. ولمعت عيناها .. وحجز الدخان الأزرق البريق الممزوج بالقسوة الذى بدا فى سواد العين لحظة ثم انطفأ .

بالنهار شفت سنية .. مسكينة فى عذاب .. قذارة وإهمال .. ومرضى نايمين فى عنبر طويل .. ولا حد بيحس بيهم .. مساكين .. كل ما ادخل العنبر شعرى بيقف .. مش رايحة تانى .. أبدًا .. أبدًا» ولم تذهب حقًا .. ففى اليوم التالى ترك شيخ الحارة ورقة قذرة مطوية .. وكانت إشارة من المستشفى بموت سنية ..

ولم تذهب منيرة إلى المستشفى ولم تخرج من البيت وظلت طول اليوم ترتعش وتبكى إذ كانت تعرف أن هذا مصيرها ..

* * *

وبموت سنية انقطع خيط الأمل الذى كان يلوح فى أفق نفيسة .. وقررت أن تعود كما جاءت إلى ديارها ..

وحزنت منيرة على سنية بضعة أيام .. ثم أخذت تضحك من كل قلبها .. وعادت إلى مرحها ..

* * *

وذات مساء .. خرجت معها نفيسة للنزهة ونزلتا من كوبرى شبرا إلى ميدان المحطة .. ثم سارتا على رصيف شارع نهضة مصر .. بعد محطة كوبرى الليمون .. وأخذتا تروحان وتجيئان فى ذلك الشارع الطويل ودخان القطارات فى الناحية الأخرى يملأ الجو .. ويهب عليهما .. ولكنهما كانتا مستريحتين إلى الأضواء وإلى الحركة فى الشارع وإلى الناس الذاهبين والعائدين فى الطريق وإلى السيارات التى تسير وتقف .. بجانب الرصيف لتغازل الفتيات المارات هناك .

وقالت منيرة ضاحكة وهى تشير إلى سيارة وقفت بجانبهما :

«تركبى يا نفيسة» .

فاحمر وجه نفيسة .. وبعد أن سارتا فى الطريق نصف ساعة .. وعادتا إلى البيت .. مسرورتين من هذه النزهة وبعد العشاء ذهبتا إلى الفراش وصحت نفيسة بعد نصف الليل فلم تجد منيرة بجانبها وفى الفجر .. دخلت .. كانت قادمة من الخارج .. وكانت تود أن تندس فى الفراش دون أن يحس أحد ولكن نفيسة كانت متيقظة فسألتها :

– كنت فين يا منيرة ؟

«بره ..» .

«دلوقت .. ؟» .

«الدكتور جالى لغاية هنا بالعربية .. كان عنده حالة ولادة متعسرة» .

ولم تقتنع نفيسة ..

* * *

وبعد ظهر يوم من أيام الخميس ذهبتا إلى السينما معًا بشارع «عماد الدين» وخرجتا قبل الغروب تتفرجان على واجهات المحال .. ثم سارتا إلى المحطة لتركبا الأتوبيس إلى البيت .

وعندما جاء الأتوبيس .. قالت منيرة :

«خدى المفتاح وروحى قدامى .. جاية وراكى .. بس حكلم الدكتور فى التليفون .. حقوله تعبانة شوية» .

وركبت نفيسة الأتوبيس .. ولكنها نزلت فى المحطة التالية .. فقد قررت أن تتبع منيرة من بعيد لتعرف إلى أين هى ذاهبة .. ووجدتها تعبر الميدان .. وتسرع إلى شارع نهضة مصر وهناك سارت متمهلة على الرصيف «تتمخطر» .. وفى أقل من ثلاث دقائق رأت سيارة .. تقف بجانبها .. ورأتها تركب .. ومضت بها السيارة مسرعة ..

إذن فهى تخرج كل ليلة إلى هذا المكان ليصطادها الرجال .. ولما رجعت إلى البيت أخبرتها نفيسة بما رأته منها .. فخجلت منيرة وبكت وقصت عليها حياتها بصراحة وصدق .. وكيف أن صاحب المصنع أحبها وأثث لها هذا البيت وأغراها بالزواج وعاشرها كزوج .. ثم تركها وطردها من المصنع .. فاضطرت أن تذهب إلى كل مكان .. ووجدت أن الجميع يريدون منها شيئًا واحداً .. فأعطتهم هذا الشىء لتعيش .

وأخذت تغرى نفيسة على أن ترافقها فى هذه النزهة كل ليلة .. وستختار لها الشبان الأثرياء .. وسيصبح معها نقود كثيرة وترسل لأمها وتشترى الفساتين .. والأحذية الجميلة وربما يعشقها رجل ثرى .. فيجعلها أميرة أحلامه .. فكثيراً ما يحدث هذا للنساء ..

وخرجت معها نفيسة لترى كيف توقع الرجل فى حبائلها ..

ومع كل هذا فقد ظلت نفيسة مترددة ترتعش من مجرد التفكير فى الدنس .. ولكن منيرة هونت عليها الأمر واختارت لها ذات ليلة شابًا جميلاً كان قادمًا من بلدته وجيبه عامر بالنقود وأدركت نفيسة من اضطرابه وهو يحادثها أنه خجول ومؤدب ورأت أنه أحسن من يقع عليه الاختيار ..

وكان الشاب يسكن فى منشية الصدر فركب مع نفيسة المترو إلى بيته .

* * *

وعندما صعدت مضطربة وراء الشاب سلالم بيته سمعت من يقول : «مين .. حسن .. حمد الله على السلامة يا بنى .. جالك أمين العصر .. قلت له إنك لازم حتيجى فى قطر الليل ..» .

وكان حسن فى خلال حديث صاحبة البيت يدفع نفيسة إلى ظلام السلم .. ثم فتح الباب على عجل وأدخلها .

ودخلت نفيسة .. حجرة الشاب فوجدت سريراً صغيراً من الحديد وعليه ملاءة غير نظيفة .. ثم منضدة صغيرة .. عليها بعض الصحف والمجلات المصورة .. وكان التراب يعلو هذا كله .. وكان هناك كرسى واحد فجلست عليه نفيسة منكمشة .. وقد ظهر على وجهها الخوف بمجرد أن أغلق الباب وطارت أحلامها فقد كانت تتصور أنه يعيش فى قصر فإذا بها غرفة حقيرة فى حى شعبى ..

ومع هذا جلست صامتة وقررت أن تمضى فى التجربة إلى النهاية .. وكان معه لفة فيها طعام له أحضره من البلد فوضعه على المائدة ودعاها للطعام فأكلت معه قليلاً .. وغسلت يديها وقالت وهى تدير عينيها فى الغرفة والصالة الخالية من كل أثاث .

– ماعندكش مراية ؟

– أبداً ..

– ليه مفيش نسوان بتيجى عندك ؟

– مفيش ..

– ولا حتى من قرايبك ؟

– بلدنا قريبة من بنها .. بييجوا ويسافروا على طول ..

– كان بدل الصور دى كلها هاتلك مراية .. ولا حتى كباية مية .. !

- الجهاز .. جاى يوم الخميس ..

- جهاز إيه ... ؟

- حتجوز ..

- مبروك والعروسة حلوة ؟

- أيوه ..

- وبتحبها ؟

- طبعًا ..

- أمال جايينى هنا ليه ؟

- علشان بحبها ..

- بتمشى فى الشارع دا كل ليلة ؟

- أبدًا دى أول ليلة ..

- وأنتى ؟

- زيك ..

واحمر وجهه ..

واتجه إلى السرير .. فأصلح من وضع المخدة .. والملاءة .. وسوى البطانية الملفوفة فى غير نظام .. وقال وصوته فيه بحة الخوف من شىء لا يدركه ..

- تحبى نستريح دلوقت ؟

- زى ما يعجبك ..

وجلست بكامل ملابسها على السرير .. وجلس بجوارها يتأمل وجهها الجميل الذى يشرق فى الظلام .. وشعرها وعينيها الصافيتين .

واقترب منها وأخذ يقبلها فى فمها .. قبلات خفيفة .. وتركت نفسها لشفتيه .. ولم تكن تحس نحوه بأى عاطفة ثم أحست بمجرد إشفاق لأنه صغير مثلها وكان رقيقًا ومتحيراً ولا تجارب له ..

وأحست به بعد قليل يرتعش وهو يضمها إليه ..

وأدركت بغريزتها النسوية أنه أشد حيرة وخوفًا منها .. وظهر على وجهه الاضطراب والخجل .. وسألها بصوت مبحوح :

– أنت مش متزوجة ... ؟

– أبداً ..

– ولا خرجت بالليل ... ؟

– عمرى ..

– وأنا كمان ..

– إيه ... ؟

– زيك ..

وضحكت ببراءة .. وضمها إليه .. وظهر الإخفاق على وجهه وحركاته .. وابتدأ يثور .. ويغير لهجته فى الحديث معها .. ونهض وأخذ ينظر من النافذة .. ووجهه يسيل عرقًا .

ونهضت .. وأخذت تسوى هندامها وشعرها .. وشعرت بالذلة .. وطلبت منه أن يرافقها حتى باب البيت الخارجى ..

وقال لها فى خشونة : مفيش حد صاحى ..

فخرجت خائفة كأنها لصة ..

* * *

واستقبلتها منيرة بلهفة كأنها غابت عنها حولاً .. وسألتها :

– إزاى الحال ... ؟

– كويس خالص .. !

– مبسوطة ... ؟

– طبعًا مفيش أحسن من كده !

– وداك كام ... ؟

– ولا حاجة ..

– إزاى ... ؟

– دا اللى حصل ..

– ضربك المتوحش ... ؟

– ياريت ..

– أمال إيه ... ؟

– ما بيعرفش حاجة .. !

وضحكت منيرة حتى رقصت من فرط الضحك .. وسقطت على الفراش وضحكت نفيسة مثلها من كل قلبها .. ولم تكن تدرى أضحكت لأنها نجت من الدنس أم لأنها أخفقت فى أول تجربة لها فى حياتها .

وفى الصباح ركبت نفيسة أول قطار وعادت إلى القرية ..

الرجل الضائع

دق جرس التليفون بعد ظهر يوم فى عيادتى . ولم يكن التمرجى موجوداً فرفعت السماعة بنفسى .. وكانت المتكلمة سيدة . حدثتنى بصوت رقيق مضطرب عن حالة خطرة فى ضاحية مصر الجديدة تستدعى وجودى فى الحال . فلما أفهمتها أننى لا أستطيع أن ألبى الطلبات الخارجية إلا بعد انتهاء ميعاد العيادة استحلفتنى بالله بصوت مؤثر أن أجىء ، رحمة بالمريضة المسكينة . فكتبت العنوان فى مفكرتى ووضعت السماعة .

وبقيت بعد ذلك أكثر من ثلاث دقائق وأنا جالس على مكتبى كالمتردد فى تلبية هذا الطلب ، ولقد خالجنى هذا الشعور لأول مرة فى حياتى كطبيب ، وأخيراً تناولت حقيبتى الصغيرة وانطلقت مسرعاً بالسيارة .

واهتديت إلى البيت ، وفتحت لى سيدة فى مقتبل العمر الباب ولعلها التى حدثتنى بالتليفون ، وقادتنى بعد تحية رقيقة إلى الداخل . ودخلت وراءها إلى غرفة مغلقة النوافذ مسدلة الستر قليلة الضوء ، حتى تبينت المريضة بعد جهد وكانت نائمة على سرير كبير فى ركن الغرفة .

وطلبت فتح النوافذ لأفحص المريضة ، وغمر الضياء الغرفة ووقع نظرى عليها وهى فى دائرة الضوء ، وكان أول شىء رأيته وجهها ، وكان ساكناً بادى الشحوب .

وكانت كما قدرت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدا لى من رقدتها أنها طويلة القامة . وكانت محلولة الشعر جميلة المحيا ، ترتدى ثوباً أسود وتضع بطانية عند قدميها ، ولاح لى أنها شعرت بشىء من الخجل عندما وقع نظرى عليها وهى نائمة ، فحاولت بكل جهدها أن تجلس على الفراش .

فقلت لها :

«ابقى مستريحة» .

فظلت بين نائمة وجالسة ، وخدها قد رف لونه قليلاً وشفتها السفلى تتحرك ببطء حركة من يود أن يقول شيئًا على سبيل الاعتذار . ويدها اليمنى تضم الغطاء على صدرها .

وتناولت كرسيًا صغيرًا وجلست عن قرب منها ، وطلبت أن تحدثنى عما تشكو .

فأخذت تتحدث فى صوت خافت . واستمعت إليها وأنا مطرق برأسى ، ولقد تعودت أن استمع إلى مئات من هذه الحالات فى الأسبوع الواحد . ارتفاع فى درجة الحرارة ، ورعشة دوخة ، وخفقان ..

ولما فرغت من حديثها قلت :

«تسمحى ، وترفعى الفستان .. قليلاً» .

ووجدتها تنظر إلى بوجه ساكن قد علته حمرة الخجل ، وكأنها تقول بعينيها :

«الموت أحب إلى من هذا» .

«تسمحى ، يا هانم ، وتساعدينها» .

واقتربت منها وفحصت الجسم كله بيدى وسماعتى ، ولم يكن بها أكثر من ملاريا خفيفة . وكتبت لها «الروشتة» وطمأنتها وقلت لها :

«جربى هذا الدواء لمدة أسبوع ، وإذا شعرت بأى تعب حدثينى فى التليفون ، فى المنزل أو فى العيادة . وأنا عند طلبك» ..

وتناولت الحقيبة الصغيرة وأخذت طريقى إلى الخارج .

وبعد ذلك بيومين سمعت صوت السيدة التى حدثتنى أول مرة ، وقالت لى فى التليفون إن حرارة المريضة بلغت ٣٩ درجة ورجتنى أن أجىء لأراها ، فقلت لها أن الحرارة لا تهم ، وإننى مشغول الآن . وسأمر فى المساء .

فقالت السيدة :

«إنها تبكى الآن . اعمل معروفًا» .

وبعد محاورة طويلة رضيت أن أذهب ، وكانت حرارة المريضة قد بلغت ٤٠ درجة وحالتها لا تدعو للاطمئنان .

وسألت نفسى وأنا أعيد الفحص . هل أخطأت فى تشخيص المرض ، وهل أفلت الزمام من يدى ؟

ورأيت أن أعود مرة أخرى فى المساء .

فقلت للسيدة التى ترافقها :

«استمرى على الدواء ، وسأعود مرة أخرى فى المساء .. الساعة التاسعة ليلاً» .

فظهر على وجه السيدة الاضطراب .

ونظرت إلى المريضة نظرة لم أفهم معناها ثم قالت :

«هلا جئت قبل ذلك» .

«لا أستطيع ، سأحضر بعد العيادة مباشرة» .

«حسنًا ، كما تحب» .

وأخذت طريقى إلى الخارج .

* * *

وفى المساء عدت . وكانت الحرارة قد هبطت درجتين والحالة تحسنت ، واستطاعت المريضة أن تتحدث فى يسر ، وأن يظهر على وجهها السرور لحالها .

وفى اليوم التالى كانت أحسن حالاً وأكثر سروراً وقالت :

أتعرف يا دكتور ، إننى كنت مترددة جداً فى طلبك» .

«طبعًا ، هناك من هو أحسن منى» .

«ليس هذا هو قصدى ، إننى أعيش وحدى كما ترى ، والسيدة ثريا التى طلبتك فى التليفون أول مرة ، جارة لى ، وهى تشفق على هذه الأيام وتمرضنى ، وإنى أعيش وحدى . ودخول رجل فى البيت .. أنت تعرف كلام الناس» .

«ولكننى طبيب» .

«ولو ، الناس لا يفرقون بين الطبيب وغيره إذا دخل منزل سيدة تعيش وحدها» .

ورثيت لحالها .

واستطردت ..

«ولعلك أدركت الآن ، لماذا كنا نلح عليك فى أن تجعل زيارتك لى فى النهار . بدلاً من الليل . لعلك أدركت الآن» .

وابتسمت وقلت لها :

«دعك من هذا كله ، وفكرى فقط فى إنك مريضة تحتاجين للراحة والشفاء .. وستشفين فى هذا الأسبوع وأنا متأكد من ذلك . ولكى أجعلك مستريحة البال ، سأحضر دائماً فى الصباح الباكر قبل ميعاد العيادة» .

وأصبحت أمر عليها فى الساعة الثامنة من كل يوم ، وكانت تتقدم وتتحسن . وشعرت بعد أسبوع من زيارتى المتكررة لها أننى أوليها من العناية أكثر من الواجب ، وأن المسألة ليست مجرد زيارة طبيب لمريضه .

شعرت بأن شيئًا ينمو خفيًا فى داخل نفسى ، وكنت أسر لتقدمها وتحسن صحتها أكثر من أى شىء سررت له فى حياتى . كنت أصعد درجات السلم وأنا جذلان طروب ، وشاعر بسعادة لا حد لها ، وكنت قد أعجبت بها وبطريقتها فى الحياة ، وبالهدوء المطلق الذى وجدته فى بيتها .

كنت فى حاجة بعد طول العمل المضنى المرهق فى الصباح والمساء إلى مثل هذا البيت ، وإلى مثل هذه السيدة .. كانت جميلة باسمة ، دمثة الطبع رقيقة الشعور ، متفتحة آفاق النفس وكنا نشترك فى المشاعر والإحساسات والتفكير .

وكنت أحب فيها رقة عواطفها وهدوء أعصابها ، والأمومة الجياشة فيها التى تجد متنفسا ، فقد فقدت طفلها الوحيد فى سن مبكرة . وفقدت مثلها والدتى وأنا فى عمر الطفولة ، وكنت فى حاجة إلى صدرها لأريح عليه رأسى المثقل بمتاعب الحياة .

وشعرت بعد أيام قليلة أننى معلق بها ، وكنت أود لو تطول فترة المرض لأجد السبيل لمحادثتها وزيارتها . شعرت بأننى أحبها بكل جوارحى .

وكانت تتزين فى الصباح وتبدو فى أحسن مظهر ، وكنت أسر لهذا غاية السرور .

* * *

وشفيت وانقطعت عن زيارتها ، ومضت الأيام وشغلت بعملى حتى كدت أنساها .

وحدث بعد ظهر يوم من أيام الصيف وكنت فى طريقى إلى زيارة صديق فى منشية البكرى ، أن وجدتها واقفة عند موقف الأتوبيس فى ميدان العباسية . ولم ترنى كما رأيتها ، ولم تشعر بى وأنا أوقف السيارة بجوارها .

وقلت بعد أن نزلت من السيارة ومددت يدى مسلماً : «لعلك تذكريننى» .

«آه ! الدكتور . طبعًا . طبعًا» .

«إلى أين ؟»

«إلى البيت ، ولى ساعة وأنا واقفة هنا . وأنت تعرف المواصلات» .

وأشرت إلى سيارتى وقلت :

«تفضلى أوصلك» .

فخجلت ونكست رأسها ، ثم قالت :

«اركب معك ، لغاية محطة روكسى فقط» .

«أما زلت خائفة من الناس ؟» .

«طبعًا» .

وركبت بجوارى . وتمهلت بالسيارة وكنت أود لو يمتد بنا الطريق مئات الأميال .

وقلت لها قبل أن تقترب من محطة روكسى . !

«أريد أن أراك ، يوم الجمعة المقبل» .

فصمتت ثم سألت فى رقة محببة :

«أضرورى هذا ؟» .

«بالطبع» .

والتقينا فى الأسبوع التالى ومضينا النهار كله معًا . وأصبحنا نلتقى بعد ذلك فى أيام الراحة من كل أسبوع بانتظام وأصبحت تدرك بغريزتها حبى لها وتعلقى بها .

وعرضت عليها الزواج فهزت رأسها بالنفى .

«لماذا ؟» .

«مستحيل هذا ، ماذا يقول الناس .. تزوجت الطبيب الذى كان يعالجها ، أى فضيحة . !» .

«ولكنك ستكونين لى ، فلا أستطيع أن أعيش بدونك» .

ومضت الأيام ..

* * *

واشتعلت نيران الحرب في فلسطين بيننا وبين اليهود . وفى الأسبوع الثالث من اشتعالها تقرر أن أذهب مع نفر من الأطباء إلى ميدان القتال . وكتمت عن «هدى» الخبر إلى أن يحدد يوم السفر .

وحدد اليوم فرأيت أن أخبرها ، وقابلتها وأخبرتها ، فاصفر وجهها وأخذت تبكى .

«لماذا تبكين ؟» .

«لا أدرى ، وأنت تعرف طبيعة النساء» .

«أيساورك إحساس بأننى لن أعود ؟» .

«بعد الشر ، أرجوك أن تسكت» .

وأمسكت بيدى ، ورفعت إلىّ عينين مخضلتين إلى أقصاهما بالدمع .

وفى ليلة السفر ظلت معى إلى الصباح ، وكانت لى بجسمها ونفسها .

* * *

وعدت إلى القاهرة بعد أربعة شهور فى إجازة قصيرة ، وكان أول شىء فعلته أن ذهبت إلى هدى ، وفرحت بعودتى وطوقتنى بذراعيها بشدة كأنها تود لو أظل بين ذراعيها ولا أفلت منهما مرة أخرى .

غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلاً ، وحدث ما لم أكن أتوقعه ، فقد انتابتها ، «دوخة» ، وقىء ، وتعب شديد .

ونظرت إلى وهى مصفرة الوجه .

وسألتها :

«ما بك ؟» .

«لا شىء» .

وأمسكت بيدها ونظرت فى أعماق عينيها ، وفهمت . وسألتها ، فأكدت ما دار فى خاطرى .

لقد كان ينمو فى أحشائها ثمرة حبنا .

ومع أننى طبيب فقد نزل على هذا الخبر نزول الصاعقة المدمرة .

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، كانت فى عيادة إحدى الحكيمات ، وكنت أشعر بخوف مجهول ، وأتوقع الضربة الهائلة التى يعدها القدر .

وفى المساء انتهت . ولا أدرى من الذى حمل النعى إلى أهلها ، ولا من الذى سار وراء نعشها .

فقد كنت متخفيًا وراء ستار ، وقد شعرت شعورًا قويًا . بنذالتى ، ولا يزال هذا الشعور يعصف بكيانى وعقلى إلى اليوم ، حتى انتهيت كطبيب ، وأصبحت رجلاً ضائعًا كما ترى ، وما من شىء يرد إلى عقلى الذاهب ويعيد السكينة إلى نفسى .

ولا شىء يحزننى كجهلى كل شىء عنها ، حتى قبرها ..

بائعة العطور

كان الخواجة نعوم يملك محلاً صغيراً للعطور وأدوات الزينة فى شارع فؤاد الأول .. وفى خلال الحرب ربح كثيراً مما كان يبيعه من العطور المغشوشة لجنود الحلفاء حتى تضاعفت ثروته وتضخمت . فلما انتهت الحرب ورحل الإنجليز عن القاهرة فى غير رجعة انكمشت تجارته وقل زبائنه ووقفت راشيل على باب الحانوت تضحك للمارة وتغريهم بابتسامتها على الدخول ... ولكن هيهات فإن شهرة الخواجة نعوم فى غش العطور كانت قد بلغت الآفاق .

ولكن على الرغم من هذا كله فقد ثبت الخواجة نعوم فى الميدان . ووسع واجهة المحل وزينها بأنوار النيون .. وبنى لنفسه دوراً علوياً صغيراً من الداخل .. اتخذ منه مكتبًا له ومخزنًا للعطور .

وكان المكتب عبارة عن غرفة صغيرة أنيقة أحاطها بالستر وزينها بالصور وجعل فيها أريكة طويلة فقد كان الخواجة نعوم ينام أحيانًا وقت الظهيرة فى هذا المكان .

وفى مساء يوم رأى وهو واقف خلف الطاولة ثلاثة يقفون على واجهة المحل يستعرضون ما فيها من بضائع .. واقترب منهم وحدق فيهم وسمع لغتهم .. فسال لعابه لقد كانوا ثلاثة من الجنود الإنجليز فى ملابس مدنية .

وغمز لراشيل بعينه فخرجت واقتربت منهم .. وبعد أقل من دقيقة كان الجنود الثلاثة فى داخل الحانوت .

وعرضت راشيل وزميلتها مارى على الجنود أحسن ما فى المتجر من بضائع .. واستطاعت راشيل بابتسامتها ولباقتها وطريقتها فى عرض الأشياء أن تغرى الجنود بالشراء فاشتروا زجاجات عطر وأدوات زينة للسيدات وجوارب ومناديل ومحافظ جلدية . وسر الخواجة نعوم لهذا وكان يرقص من الفرح وأجلس الجنود داخل المحل وطلب لهم القهوة .

وجلس الجنود يتحدثون مع راشيل إلى أن تجىء القهوة وسأل ماك :

أيوجد تليفون هنا ؟

وأجابه الخواجة نعوم :

«نعم . فوق» .

وأشار إلى راشيل وصعدت مع ماك السلم الداخلى الصغير المؤدى إلى غرفة المكتب ومكث ماك مع راشيل فى هذه الغرفة كثيراً وطال انتظار أصحابه .

وأخيراً نزل وخلفه راشيل وكان يبتسم لرفيقيه مزهواً .

وبعد ساعة كان الجنود الثلاثة فى القطار العائد بهم إلى الإسماعيلية .

وأخرج ماك من جيبه صورة فى حجم الكارت بوستال وعرضها على زميليه .

كانت صورة راشيل وهى فى لباس البحر .

وقال فى فخر :

لقد كان هذا الجسم لى منذ ساعة ..

ونظر إليه صديقاه فى غيظ وحسد وأخذ هو يضحك .. لقد كانت راشيل فاتنة بحق .

وفتح محفظته ليعيد إليها الصورة وكان لا يزال يضحك .

وفجأة صرخ .. لقد اكتشف سرقة الأوراق المالية التي فى المحفظة .

لقد وضعت له راشيل صورتها الجميلة فى المحفظة . ولكنها أخذت بدلها جميع ما فيها من نقود .

وضحك صديقاه فى هذه المرة .. وظلا يضحكان منه طول الطريق .. !

غرفة للايجار

نزل صلاح من القطار فى محطة ايفوريا مع غيره من السائحين وخرج من نطاق المحطة وسار متمهلا فقد كان لا يعرف طريقه .. ووقف عند كشك مصور على طريق الكورنيش يسأله عن غرفة مفروشة فأشار المصور بيده إلى الفيلات الصغيرة الأنيقة المتناثرة على رأس الخليج وفى رقعة الوادى فشكره صلاح وحمل حقيبته وتقدم إلى قلب المدينة . وسر لمنظرها الخلاب وسكونها وطيب مناخها وكانت الفيلات مبنية على نسق واحد وحولها الحدائق الغناء .

ورأى لافتة مكتوبة بالفرنسية على باب فيلا صغيرة « غرفة مفروشة للايجار» فاقترب منها ووقف على الباب وضغط على الجرس وظل أكثر من دقيقة لايسمع حسا حتى تصور أن الفيلا خالية من السكان وتناول حقيبته وهم بالرجوع ، ولكنه سمع فى أثناء هذه الحركة وقع أقدام فى الداخل . وانفرج الباب وبدت سيدة فى منتصف العمر على العتبة .

وسألها صلاح بالفرنسية

« أتوجد غرفة مفروشة ؟

وأجابت السيدة بلغة ركيكة :

« أجل .. وتفضل .. »

ودخل وراءها وأرته غرفة جميلة فى الطابق الأول وأعجب بها وكتبت له السيدة بالأرقام أجرها فى شهر مع الافطار فقط وأجرها بالطعام الكامل فقبل الأخير لأنه لايعرف مطاعم فى هذه الضاحية . وأعطاها

جزء من الايجار ثم غير ملابسه وخرج إلى المصيف . وكانت الشمس فى الضحى والبحر مزدحما بالمصيفين فجلس فى مقصف يطل على البحر مدة ساعة ثم نزل واستحم واختلط بألوان مختلفة من الناس من كل بقاع أوربا جاءت مثله إلى هذا المصيف . ولما اقترب موعد الغداء رجع إلى البيت .

وكانت صاحبة البيت قد أعدت المائدة ولاحظ أنها وضعت الأدوات لثلاثة .

وجلس فى البهو يقلب صفحات دليل للسياحة حتى سمع صاحبة البيت تقول وهى تشير بيدها إلى الساعة :

« إنها تأخرت وربما لا تأتى إلا فى المساء .. فتفضل إلى المائدة .. »

فلم يفهم المقصود بكلامها .

وجلس معها يأكل ويتحدث .

ولاحظ أنها حلوة المعشر دائمة الابتسام لاتمل من الكلام .

وكانت تتحدث بالفرنسية الضعيفة ثم تنسى نفسها فى غمرة الحديث وتتحدث بالايطالية التى تجيدها ثم تدرك أخيرا أن صلاح لايعرف الايطالية فتغرق فى الضحك .

وعلم من حديثها أنها تؤجر الغرفة التى بجوار غرفته إلى مدرسة ذهبت فى الصباح إلى كارمن سيلفيا ولم تعد ساعة الغداء ولعلها فضلت أن تمضى النهار كله هناك .. ولا أحد خلاف هذه المدرسة معها. لأن زوجها يعمل فى بوخارست ويأتى لزيارتها من حين إلى حين وابنها الوحيد فى البحيرة وهى تؤجر هاتين الغرفتين للمصيفين طول الصيف .

ولكن المصيفين لايمكثون عندها إلا قليلا لأن الضاحية صغيرة وليس فيها ملاهى

وسألته :

« اتقيم هنا طول الشهر حقا ؟

« أجل ... »

« ولكنك ستتضجر بعد يومين .. فهذه ضاحية صغيرة وليس فيها أى وسيلة للتسلية وليس معك رفيق » .

« سأبحث عن الرفيق »

« وهل تتصور أنك ستعثر عليه بسهولة .. أنت طالب كما يبدو لى .. ومعظم الفتيات اللواتى تراهن فى المصيف من اليهوديات . جئن من بودابست ووارسو . وبوخارست لاصطياد الرجال الأثرياء . وهم من الكهول عادة . وأنت شاب صغير ولهذا لن تعثر على الرفيق بالسهولة التى تتصورها »

« على أى حال سأبقى طول الشهر .. »

يسرنى ذلك .. »

* * *

وفى صباح اليوم التالى رأى المدرسة على مائدة الافطار وكانت ملامح وجهها غير متناسقة ووجها فى جملته أقرب إلى الدمامة على أن جسمها كان رائع التكوين كأنما صبه مثال بارع وكانت فى سن الصبا طويلة القامة ممتلئة العود . وشعرها أسود غزير . ونظرت إلى صلاح

بتحفظ وعرف أنها تجيدالفرنسية والألمانية والانجليزية .. وكانت صاحبة البيت توجه إليها الكلام بالرومانية وتقوم هى بالترجمة لصلاح ولم يسألها فى خلال الحديث عن جنسيتها .

وكان يراها صباح كل يوم جالسة وحدها على كرسى حجرى عند رأس الخليج ونظرها إلى البحر دائما وكان يلقى إليها التحية العابرة أو يقف معها لحظات يتحدث .

وسألها ذات يوم وقد خيل إليه أنها لاتستحم أبدا :

« ألا تنزلين إلى البحر ؟ »

« أنا لا أستحم مع الرجال »

فحملق فيها دهشا .. فقد استغرب هذا الكلام من شابة أوربية فى عام ١٩٣٥ .

« ألم تنزلى إلى البحر قط »

« إننى أستحم فى كارمن سيلفيا .. »

وكان يعرف أن هناك بلاجا مخصصا للسيدات فى الضاحية التى ذكرتها .. ينزلن فيه إلى البحر عرايا تماما .

وابتسم عندما دارت فى رأسه هذه الخواطر ونظر إليها بخبث .

فسألته « لماذا تنظر إلى هكذا ... ؟ »

« لم أكن أعرف أنك من أتباع هذا المذهب »

« أى مذهب ..؟ »

« مذهب العرى .. »

واكتسى وجهها بحمرة الخجل وقالت بصوت رقيق

« ولكننى لا أذهب إلى هناك لأتعرى .. وإنما لأكون بعيدة عن الرجال » .

« أود أن أذهب إلى هذا البلاج .. »

« لترى العرايا .. ؟ »

« أجل .. وأراك أنت على الأخص ».

« ولكنك لن ترى أى شىء فهناك سد قائم بيننا وبينكم »

« سأخترق هذا السد بأى سبيل ... »

فابتسمت ونكست رأسها :

ومرت به ثلاث فتيات جميلات ومعهن آلة تصوير .. فاقتربن منه وحدثنه بالرومانية فلم يفهم كلمة واحدة واستنجد بالمدرسة لتترجم كلامهن .

فقالت له فى غضب ظاهر :

« أنا لست مترجمة »

ونظر إليها مدهوشا .. وضحكت الفتيات وقلن كلاما لم يفهمه .. ومضين فى سبيلهن وسألها :

« لماذا قابلتيهن بجفوة وما يقصدن غير التصوير .. ؟ »

« إنهن لايردن التصوير وإنما يردن شيئا آخر فاذهب وراءهن .. »

فابتسم ولوح لها بيده فى دائرة واسعة وانطلق خلف الفتيات .

* * *

وأخذ صلاح يرى المدرسة فى الصباح والمساء دائما وحدها .. فيعجب لحالها .. وكان يسائل نفسه أبها شذوذ ؟ .. ألا تحب الرجال ؟ أتشعر بدمامة وجهها ؟ وعدم رغبة أحد فيها .. وقد كون لها هذا الشعور عقدة نفسية . فأصبحت على توالى الأيام نفوره مستفردة .. تقرأ كثيرا وتنسى فى القراءة نفسها وكان يعرف أنها مدرسة تاريخ فى الجامعة ومع هذا فلم يجد فى يدها كتاب تاريخ واحد كانت تطالع القصص بنهم وكانت تذهب إلى المكاتب فى المحطات لتشترى كل يوم كتابا جديدا وكانت صاحبة البيت تقول عنها إنها فتاة شريفة دمثة الطبع ولم تر فتاة فى المصيف فى مثل أخلاقها .

رجع صلاح ذات ليلة من الخارج متأخرا فوجد غرفتها مضاءة فأدرك أنها ساهرة . . وكان قد شرب كثيرا فى مرقص الفندق حتى أنساه الشراب أن فى جيبه مفتاح الباب الخارجى فضغط على الجرس .

وفتحت له المدرسة الباب وسألته فى جفوة :

« أنسيت المفتاح .. ؟ »

« نعم ، وآسف لازعاجك »

ونظر إليها بعينين نهمتين من فعل الخمر وكأنه يراها لأول مرة . وأدركت معنى نظرته وجفلت وضمت ثوبها على صدرها العارى . وأنسته الخمر صورة وجهها وأخذ يتصورها فى جسمها الممتلىء فتنة وأنوثة .

ودخلت غرفتها وأغلقت الباب .. ودخل غرفته وخلع ملابسه ولكنه لم ينم .. ظل يفكر فيها وخرج بعد قليل إلى الردهة .. ونقر على بابها بخفة .

وفتحت له الباب وقالت متعجبة :

« أتود شيئا ؟ »

« أرجو أن تعطينى أى كتاب أقرأه فقد شعرت بالأرق .. »

ودخلت غرفتها . وأعطته الكتاب .. فتناوله منها ونظر إلى صدرها العاجى مرة أخرى وضمت غلالتها على جسمها وبصرها لايتحول عن عينيه .. وظلا على ذلك مدة .. ثم تناول الكتاب وخرج ولكنه لم يستطع أن يقرأ حرفا وظل قلقا ثائر الأعصاب وقد تملكه شيطان أسود .

ورجع ينقر على بابها

وفتحت الباب وناولها الكتاب صامتا .. وتناول يدها ونظر إلى عينيها ثم شدها إليه بقوة .. وظلت تقاومه لحظات .. ثم تراخت وجذبته إليها وحملها إلى غرفته .. !

* * *

وعندما استيقظ فى الصباح لم يجدها بجواره على السرير .. ووجد ورقة منها على المائدة الصغيرة في وسط الغرفة .

وقرأ ...

عزيزى صلاح ..

اضطررت إلى السفر فجأة .. وأرجو أن تدفع عنى أجر غرفتى عن مدة إقامتى هنا .. وإلى اللقاء فى بوخارست .

وسأل صاحبة البيت على مائدة الافطار :

« أكانت المدرسة مجرية ؟ »

« لا .. إنها يهودية من بوخارست .. ! » .

عراك فى الصميم

عاد ثروت بك من سهرته فى الخارج بعد منتصف الليل فلم يجد زوجته فى المنزل ، فغضب لهذا وقرر أن يضع له حداً ، وكان قد تكرر غيابها وسهرها فى الشهور الأخيرة بشكل فاضح حتى أصبح الزوج مضغة الأفواه من الجميع من الخدم ومن الجيران ومن كل المقربين له والأبعدين ، كان قد تزوج « سهاد » منذ سنتين بعد لقاء عارض أعقبه غرام عنيف ، وكانت صغيرة وجميلة ، ومدللة ، فزادها فى كنفه تدليلا وإعزازا ، فقد كان يحبها وكان يحس بضعفه وعجزه أمامها وهو الذى يشتغل فى أعماله الواسعة معظم النهار وجانبا من الليل ، وكان قد سمح لها بالذهاب إلى السينما مع صديقاتها ثم بالزيارات القصيرة لمعارفها ثم بالتردد على بعض الحفلات الاجتماعية وأخيرا بالسهر وحدها ، فانطلقت على هواها وأطلقت العنان لنزواتها. وعواطفها ، حتى أصبحت تقضى الليل كله فى الخارج وتعود إلى المنزل قرب الفجر سكرى .

وكان ثروت بك يسمع وقع أقدامها وهى داخلة البيت فى معظم الليالى ، ويظل فى فراشه ضابطا أعصابه حتى تطفىء النور وتذهب إلى الفراش فينام دون أن يبادلها كلمة واحدة ... ولكنه فى هذه الليلة لم يستطع أن يضبط أعصابه ، وظل جالسا فى البهو فى انتظارها وهو على حالة يرثى لها من القلق وتوتر الأعصاب وسمع حركة المفتاح في قفل الباب ، ورآها وهى تدخل مرتدية ثوب السهرة ، وفى حفل من الزينة ، ولما وقع بصرها عليه حيته فى فتور وانطلقت مسرعة إلى الداخل .

ومشى وراءها وهو ثائر مهتاج وكانت قد جلست على كرسى الزينة فى غرفة النوم وأخذت تخلع حليها .. ونزعت قرطها الماسى فى تؤده ثم

العقد النادر الذى تحلى به جيدها .. وكانت يداها تتحركان فى لين وخفة .. ونظر إليها بعين الغضب وأخذ يسبها وكان جسمه كله يرتعش وهو يتكلم ويلوح لها بيده متوعداً واستغربت منه هذه الثورة المفاجئة وهو الرجل الهادىء الطبع الذى تخطى بسنه نزق الشباب وطيشه .. وقابلت هياجه وسبابه بابتسامة حلوة ارتسمت على شفتين مكتنزتين لاتزال عليهما آثار القبل .. ومضت فى خلع ملابسها فى هدوء وصمت . وتحول عنها وخرج إلى الردهة وجلس على كرسى طويل فيها وأخذ يدخن ويفكر فى الطلاق .

وكان الفصل صيفا والجو صحوا وزرقة السماء تتألق بالنجوم .. فأخذ يتأمل ويتذكر .. تذكر زواجه من سهاد .. وكيف حدث سريعا مثل العاصفة .. وذكر كل التفاصيل الدقيقة التى مرت عليه ليلة الزفاف ورحلة شهر العسل إلى لبنان .. وعودته منها .. وانهماكه فى عمله .. والإشاعات التى ترامت إليه عن زوجته .. ذكر كل هذا وهو جالس فى مكانه وأخذ رأسه يدور كالدوامة ثم نهض فجأة كمن لدغته عقرب ودخل إلى مخدع زوجته . وكانت جالسة على حافة السرير تخلع جوربها .. فنظر إلى ساقيها وهى تخلع عنهما الجورب فى رفق وأناة وكأنه يراهما لأول مرة .. وقف ينظر إلى الساقين فى اشتهاء .. إنه لم يرها من قبل فى مثل هذا الوضع المغرى قط .. وقفت كل الكلمات التى كان يود أن يقولها .. وهدأت ثورته وشعر بضعفه يعود إليه أمام هذا الجمال الآسر .

وجد نفسه يقترب منها دون وعى حتى وضع يده فى رفق على خدها .. وأخذ يربت عليه فدفعت يده فى عنف .. فابتسم وقال بصوت خافت فى ذلة :

« أنت زعلانة منى ياحبيبتى ».

وأدركت أنها انتصرت فلوت عنقها ودفنت رأسها فى صدرها وأخذت تبكى .

وقال وصوته أشد خفوتا وأكثر ذلة :

« ليه يا حبيبتى أنا ماقصدش حاجة .. بس خايف على صحتك من السهر .. »

واقترب منها جدا .. ثم .. ذاب غضبه كله وعاد إليه وجده ، فطوقها بذراعيه وشدها إليه .. ونسى فى أحضانها عاره وشرفه الملوث ..

فاعل خير

كان حسن مختار أفندى موظفاً مشهوراً فى وزارة الأشغال .. وكان يعمل فى قسم السكرتارية ولكنه لم يكن يؤدى أى عمل بعينه ... ولم يكن أحد يدرى أهو سكرتير مكتب الوزير أو الوكيل أو المراقب العام ... ولكنه كان يشاهد فى ساعات العمل فى مكاتب هؤلاء جميعا .. متنقلا من حجرة إلى حجرة وتحت إبطه مجموعة ضخمة من الأوراق وكان طويل القامة أنيق الملبس وجيها .. ومع أنه كان موظفا صغيرا لم يتخط الدرجة السابعة .. فقد كان مظهره يدل على أنه من كبار الموظفين ولهذا كان يقف له السعاة والفراشون اجلالاً وتعظيما كلما شاهدوه مارا فى طرقات الوزارة ومماشيها وكان يحفل بهذه المظاهر أكثر من أى شىء آخر من الديوان . وعلى الرغم من أنه لايؤدى أى عمل ويأخذ مرتبه آخر الشهر بجهد الآخرين وعرق جبينهم . فقد كان محبوبا من الجميع .

وكان قد اشتهر فى الديوان بأنه يسعى إلى الخير ... ففى كل مناسبة من المناسبات عند نقل موظف كبير .. أو وقوع حادث وفاة فجائى لبعض المستخدمين الفقراء يدور على المكاتب وبيده كشف طويل يجمع به التبرعات ... وكان الموظفون لايرونه إلا فى هذه المناسبات يدخل الحجرة بتؤده ناصبا قامته حتى يتوسطها ثم يدور ببصره فى الجالسين وعلى فمه ابتسامة.

ويتحدث اليهم بصوته الرنان وكأنه يخطب فى حفل كبير :

- أيها الزملاء :

« بمناسبة نقل عبد الحميد بك مدير الإدارة فكرنا فى أن نعمل له حفلة تكريم .. ثم رأينا أن هذه الحفلات أصبحت مبتذلة .. فأخذنا له هدية جميلة على سبيل التذكار .. ساعة يد بمنبه .. فكل واحد منكم يجود بما عنده ولا ضغط ولا اكراه ...

ويسأله أحد الموظفين :

– والساعة بكم ثمنها .. ؟

– أربعون جنيها .. وقد جمعت لغاية الآن سبعة عشر جنيها .

ويفتح الموظفون محافظهم .. ويجمع الأوراق المالية الصغيرة ويقيد أسماءهم في الكشف ثم يخرج إلى غرفة أخرى فى الديوان .

وتمر الشهور . وينسى الموظفون عبد الحميد بك والساعة التذكارية وحسن مختار نفسه ويروحون فى غمرة الحياة وعملهم اليومى المرهق .

وفجأة يظهر حسن مختار فى وسط الغرفة وبيده الكشف .. ويرفعون رؤوسهم عن الأوراق وينظرون إليه فى سكون ..

– أيها الأخوان :

« سعادة الوكيل .. سيحال إلى المعاش فى الشهر المقبل ومن الواجب أن نفعل له شيئا على سبيل التذكار . وحفلات التكريم كما تعلمون أصبحت مبتذلة . فأخذنا له هدية تناسب المقام . عصا بيد من الذهب .

ويدور على الموظفين ويجمع النقود ويكتب فى الكشف .. ويخرج .

وتمضى الأيام وينسى الموظفون سعادة الوكيل والعصا التذكارية وحسن مختار نفسه وإذا به يظهر فجأة :

« ياجماعة عبد السلام أفندى رئيس الأرشيف السابق مات بالسكتة وهو فى طريقه لاستلام معاشه من خزينة المالية .. نريد قرشين بسرعة لدفنه .. ومساعدة لأسرته المنكوبة » .

ويجمع التبرعات ويمضى ..

وتمضى الأيام .. وينسى الموظفون رئيس الأرشيف الذى مات بالسكتة القلبية والتبرعات وحسن مختار نفسه .. حتى يتصورونه انتقل إلى رحمة الله ..

وإذا به يظهر فجأة كما إختفى فجأة ...

« يا جماعة أظنكم قرأتم خبر الموظف المسكين الذى انتحر فى وزارة المواصلات لفقره . لقد ترك أرملة بائسة .. وثمانية أطفال بؤساء يحتاجون للطعام والشراب واللباس .. فكرنا فى مساعدة سريعة لهذه الأسرة التاعسة » .

ويدفع له الموظفون عن رغبة .. وينسى الموظفون فى غمرة عملهم اليومى كل شىء عن هذا الحادث ومثله وتمر الأيام .. ويختفى حسن مختار .

وفى اليوم الأول من شهرمايو ظهر مع الموظفين فى غرفة الصراف .. وكانت الغرفة مزدحمة بمئات الموظفين الذين كانوا يوقعون على الكشف ويعدون الأوراق المالية .. وينصرفون واحدا فى أثر واحد .. وضع حسن مختار مرتبه فى جيبه واتخذ طريقه إلى الخارج فى هدوء . فقد كان من عادته أن – يزوغ – قبل الميعاد فى اليوم الأول من الشهر .. واصطدم وهو فى الطرقة بشىء أفقده صوابه .. بزوجته وأولاده الخمسة الصغار يلتفون حولها .. وانقضت عليه كالصاعقة وأمسكت بتلابيبه .. وفتحت فمها بأعلى صوت وصاحت :

– رايح فين بالفلوس ياسكرى ياقـمـرتى يامـجـرم ، ... واشـتـد صراخها وتجمع حواليهما الموظفون ... وحاولوا تخليصه منها ولكنها رفضت وصرخت وهى تبكى ..

– أبدا ماسيبوش .. دا كل شهر .. يقبض .. ويختفى ويتركنى والأولاد للجوع . ويروح يسكر ويقامر ويصرف على الشراميط ... ومايظهرش إلا بعد ما يفلس ... أبدا ما سيبوش المرة دى .. واشتد ضغطها على رباط عنقه ...

وينظر الموظفون إليه ، وتذكروا حسن مختار جامع التبرعات وفاعل الخير .. إذا كان يخدعهم هذا السكير المقامر .. ويحتال عليهم ليجرى وراء شهواته ونزواته ويترك أطفاله للجوع . وتذكروا كل القروش التى دفعوها إليه طوال هذه السنوات أنهم لم يدفعوا إليه هذه القروش ليقدموا ساعة تذكارية لعبد الحميد بك أو عصا ذهبية لسعادة الوكيل . فلم يكن هذا يعنيهم فى شىء .. لم يكن يعنيهم ذهاب هؤلاء إلى المعاش أو إلى الجحيم .. وإنما كانوا يعطونه القروش ... وهم على يقين بأنه سينتفع بها على وجه من وجوه الخير .

أما أن يقامر ويسكر بها فذلك مالا يغتفر أبدا ..

وكان كل واحد منهم ينظر إليه فى غيظ .. وامرأته تصرخ وتبكى وحولها الأطفال يبكون .

وساءته الفضيحة فى وسط الديوان .. وأطارت صوابه فحرك يده وصفع زوجته وثار الموظفون لهذه الإهانة فانقضوا عليه وضربوه ضربا مبرحا وكأنهم ينتقمون لأنفسهم ... وفى صباح اليوم التالى صدر الأمر بنقله إلى وزارة التموين ..

المصارع

.. ركبت قطار المرج من محطة كوبرى الليمون بعد ظهر يوم أعده من أشد الأيام حرارة فى الصيف . وجلست فى عربة من عربات الدرجة الثالثة أتطلع عبر النافذة إلى الطريق وأستنشق الدخان المنبعث من القاطرة .

.. وكان معى قفص كبير الحجم به خبز « شمسى » ودجاج حملته معى من الصعيد لقريب لى يسكن فى ضاحية عين شمس . ولقد تحملت الكثير من المشاق فى سبيل هذا القفص ودفعت ثمنه وثمن كل ما فيه للحمالين ! فقد نقلته من محطة ديروط إلى القطار . ومن القطار إلى محطة القاهرة داخل المحطة ، ومن محطة القاهرة إلى محطة كوبرى الليمون خارج المحطة ، ومن محطة كوبرى الليمون إلى القطار داخل المحطة !

.. ولما بلغ القطار محطة عين شمس ظللت فيها أكثر من عشر دقائق حتى استطعت أن أعثر على حمال يحمله !

وسرت وراء الحمال فى ذلك الشارع الطويل الوحيد فى تلك الضاحية الذى يسمونه شارع المحطة ! وكانت الشمس لاتزال حامية ، والحرارة تشوى الوجوه .. والجو كله يخنق الأنفاس ، ولقد خيل لى وأنا أسير فى الطريق أن هناك بخارا ملتهبا كهذا الذى نراه فى الحمام التركى يتصاعد من الأرض ويملأ الفراغ المحيط كله .

.. ولم يكن فى الطريق إلا أنا والحمال .. وبعض جنود الهجانة المنتشرين فى تلك الضاحية .

وبلغنا المنزل .. وأنزلنا القفص .. وانصرف الحمال وقرعت الباب فلم يرد على أحد .. فعاودت الطرق مرة ، ومرات ، فلم أسمع حسا ، وتلفت وتسمعت .. ثم صعدت إلى الدور الثانى وطرقت الباب .. وبعد ثوان سمعت حركة فى الداخل وصوت شبشب نسائى على البلاط .. وانفرج الباب وبدت سيدة فى منتصف العمر على العتبة .. وسألت عن عبد المجيد أفندى وعرفتها أننى قريبه وقادم من الصعيد ، وأحمل له هدية !

فقالت وهى تبتسم :

« أنا لا أحس به إلا قليلا وهو يجىء متأخرا فى الليل ».

وتركت عندها القفص وشكرتها وانصرفت .. ورأيت وأنا خارج رجلا منتصب القامة ، يجتاز العتبة ، ويدخل متمهلا وفى رفقته غلام .. ولما تطلعت إلى وجهه ، ونظرت إلى مشيته ، أدركت أنه أعمى .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وتلطف الجو نوعا ، وتمشيت قليلا فى الضاحية ثم شعرت بالملل فركبت القطار العائد إلى القاهرة .

* * *

وعدت فى الليل متأخرا لأضمن وجود عبد المجيد أفندى ووجدته .. وسر لعودتى إلى القاهرة بعد غياب عامين طويلين . ولما قلت له إننى وجدت عملا فى مدرسة الهياتم الابتدائية سر كثيرا وتمنى لى التوفيق وعرض على أن أقيم معه لأن الشقة رخيصة وفيها ثلاث غرف وهو لايحتاج لأكثر من غرفة واحدة . فقبلت مسرورا ونمت نوما عميقا .. واستيقظت مبكرا .. وأفطرنا وخرجت مع عبد المجيد أفندى إلى قطعة أرض صغيرة حول المنزل زرعها بعض الخضر .. وأراد أن يستعين بى على تنميتها .. ورأيتها تنمو ضعيفة لأنها لاتجد من يتعهدها .. فأخذت فى تنقية الحشائش التى بها .

وسمعت وأنا جالس على الأرض صوت نافذة تفتح .. ثم خرجت سيدة إلى الشرفة تنشر غسيلا .. ولما نظرت إليها عرفت أنها سيدة الأمس التى تركت عندها القفص ورأيت قلبى يدق وأنا أنظر إليها . ولم أعرف لذلك سببا . وبعد أن نشرت الغسيل دخلت الشقة وتركت نافذة الشرفة مفتوحة .

وظللت معلق النظر بها لا أريم . لعلها تخرج مرة أخرى ولكنها لم تفعل .

* * *

.. وكنت أعود من المدرسة بعد الظهر .. فاخلع ملابسى وأنزل مباشرة إلى الأحواض الصغيرة المزروعة خضرا .. لأسقيها وأنقيها من الحشائش وأجد لذة فى ذلك العمل . وكان نظرى دائما يرتفع إلى الشرفة لأرى السيدة وكنت كلما بصرت بها أحس بضربات قلبى .

.. كنت شابا فى العشرين من عمرى يعيش فى جو كله أحلام ولقد عشت فى القاهرة من قبل ورأيت فتيات فى مثل سنى وأحببت بعضهن .. ولكنى لم أنظر إلى واحدة منهن كما نظرت إلى هذه المرأة التى اقتربت من سن الأربعين . كان سنها ضعف سنى ومع هذا أحببتها وأحببتها بكل جوارحى .. وكنت لاأخرج بعد الظهر من المنزل إلا قليلا فإذا تصادف وجود عبد المجيد أفندى وكان يعمل فى مصنع نسيج فى الزيتون أخذنا فى حديث تافه عن الأقمشة وصناعة النسيج وسعر الفتلة . وأجور العمال . وكأن ذهنه نسيجا وحده فى هذه الأشياء . وكان يستطيع أن يجمع ويضرب آلاف الأرقام دون أن يستعين بورقة أو قلم ! وكانت الأرقام الحسابية دائما فى ذهنه . والوارد والصادر من المصنع هما كل مايفكر فيه فى أيام عطلته ! ولم يكن ذهنى

يستطيع أن يهضم هذه التوافه أو يستطيع أن يعيش ساعة واحدة فى عالم الواقع . كنت خياليا إلى أبعد الحدود .

وكنت أقدس المرأة واعتبرها ملاكا وأعشق الجمال فى الطبيعة وفى جسم الأنثى .

... وكان عبد المجيد افندى يجد لذته الكبرى فى الجلوس على المقاهى ولعب النرد ومعرفة أسعار الأقمشة . وتقلبات السوق . ومع أنه جاوز الثلاثين ولكنه لم يفكر فى المرأة ... ولم تخطر له قط على بال ... ولهذا فإننى لما سألته عن جارته وجدت أنه لايعرف عنها سوى القليل ولا يعير باله إليها .. مع مافيها من جمال وفتنة .

وكان أجره من المصنع ستة جنيهات فى الشهر . ومع هذا فقد كان يلبس بذلة نظيفة أنيقة وقميصا حريريا .. وكان دائما حسن الهندام ...

ويجلس فى مقاهى الدرجة الثانية .. ويسكر أحيانا ويصرف فى الليلة الواحدة أكثر من خمسين قرشا فى الشراب والسجاير .

ولاشك أنه كان يسرق من المصنع بغير حساب !

* * *

وفى عصر يوم كنت أسقى الزرع فى الأرض المجاورة للمنزل فلمحت ملابس بيضاء تسقط من الشرفة ويحملها الريح بعيدا ورفعت وجهى فوجدت صاحبتى واقفة فى الشرفة تجمع غسيلا منشورا . وجريت نحو الشىء الساقط وكنت كلما اقتربت منه وانحنيت لألتقطه حملته الريح إلى مكان آخر . وهكذا إلى أن أمسكت به أخيرا وحملته .. وكانت ترتب هذا من مكانها وتضحك . فقالت مبتسمة وكأن قد قرأت أفكارى :

- بلاش تعب خليه لما تجي الخدامة ..

فهززت رأسي وأمسكت بالقميص وطلعت به إلى فوق .. وكان قميصا حريريا ولا شك أنه لها وشعرت باللين والحرارة وبلذة لاقبل لى بها وأنا ممسك بهذا القميص . بمجرد تصورى أنه يضم جسمها .

وانتظرتني على الباب .. فناولتها القميص .. وقالت وقد تورد خداها من فرط الضحك :

- كتر خيرك .. تعبت ليه ؟

- مفيش تعب ..

ووقفت أنظر ...

ولا شك أنها أدركت نظراتي فقد كانت امرأة ناضحة الأنوثة

- تفضل اشرب قهوة ..

- متشكر . لما أخلص حوض الملوخية .

- زرعت ملوخية؟

- أيوه .. وأول قطفة لك !

فابتسمت ولم تقل شيئا . ونزلت مسرعا .

....

وسألت عنها فعلمت أنها أرملة توفى عنها زوجها منذ ثلاث سنوات .. وترك لها ولدين صغيرين .. وكان زوجها صاحب مصنع للصابون ... وباعت المصنع بعد وفاته واشترت بعض الأطيان في

المطرية .... والمنزل الذى تقيم فيه فى عين شمس ملكها. وهى تؤجر لعبد المجيد أفندى الدور الأرضى وتسكن هى وولداها فى الدور الأوسط ، أما الدور الثالث فيقيم فيه ذلك الرجل الأعمى الذى شاهدته يدخل المنزل فى أول يوم جئت فيه عين شمس .. وتقوم على خدمته أمه ...

وهو شاب رياضى فى الخامسة والثلاثين من عمره قوى الجسم مفتول العضلات وكان يدير ناديا رياضيا فى الزيتون فلم يجد من يشجعه وكسد حاله فأغلق النادى .

ولما قامت الحرب .. أغراه أصحابه بالتجارة .. فذهب إلى الإسماعيلية وهناك أصيب فى غارة جوية مروعة . ورجع منها أعمى .

ومضت الأيام ... وكنت أخرج من المدرسة .. وأعود إلى المنزل فإذا لم أجد السيدة فى النافذة .. أو فى الشرفة اختلق المعاذير .. لاقرع بابها لأراها .

وكنت أستعير بعض أدوات المطبخ .. وكانت تعطينى هذه الأشياء وهى مسرورة .

ولما علمت بأننى مدرس فى المدارس الابتدائية .. طلبت منى أن أعلم أكبر أولادها لأنها ستلحقه فى العام المقبل بالمدرسة .. فكنت أذهب إليه فى شقتها وأحيانا آخذه عندى .. وتقدم الغلام وأخذ يتعلم القراءة بسرعة . وسرت لذلك . وأصبحت بيننا ألفة قوية .

وكان عبد المجيد أفندى يأتى من الخارج فى آخر الليل متعبا فينام بلا حراك .. أما أنا فكنت أظل ساهرا .

وكان الأعمى يجىء من الخارج فى الساعة العاشرة مساء ... ولايتأخر عن ذلك ولايتقدم لحظة واحدة . وكنت أعجب لهذا النظام . وكان معه الغلام الذى يرافقه دائما .

وكنت أسائل نفسى أين يذهب فى الليل من فى مثل حاله ... إلى أن علمت من نعيمة هانم أنه يذهب إلى مقهى فى الزيتون كل ليلة ليسكر . وأنه انقلب بعد الحادث الذى حدث له إلى سكير متوحش !

وإذا تصادف وكنت جالسا فى شقتها أحادثها . وسمعنا حركة أقدامه على السلم وهو صاعد إلى مسكنه ... كنت ألاحظ أنها عندما تسمع صوته .. تصمت ويعلو وجهها الاصفرار .

وذات ليلة .. سهرت معها .. وكان ولداها قد ناما على مرتبة على الأرض .. وجلسنا نتبادل النظرات ونتحدث فى صوت خافت ، وكانت تدرك معنى نظراتى وتشجعنى عليها .. وكانت ترتدى جلبابا أسود مفتوح الصدر .. قصير الأكمام فبرز صدرها المرمرى وذراعاها البضتان .. وكان شعرها فى لون ثوبها... وزاد الثوب الأسود بشرتها الناصعة البياض تألقا وفتنة .

وشعرت بالسكون ... ووجدت نفسى وحيدا معها فى حجرة مغلقة ، وقد جلسنا متقابلين على فرش واحد . ورفعت عينى إلى عينيها ، وقرأت فيهما السكون والحنان والرغبة ... وكنت فى حاجة إلى هذا الحنان المنبعث من عينيها .. نظرت إليها طويلا ولم أنبس ورأيتها تغلق عينيها وتصمت . ثم ارتفع الهدب مرة أخرى وكان السكون مخيما على الحى والظلام فى كل مكان ..

وكان الشىء الوحيد الذى أسمعه فى هذا السكون هو دقات قلبى .

.. وكان النور ينبعث من عينيها ويضىء ظلمات نفسى .

ومددت يدى إليها وأمسكت بيدها لأول مرة .

وتركت يدها .. وأحسست بها لينة رخوة فى يدى الملتهبة . وشعرت بعينى تسبحان في ضباب كثيف ، ووجدت نفسى أنحنى ، دون وعى ، على يدها وأغمرها بالقبلات .

وكان فمى على يدها ، وقد التصقت بالمرتبة ، وانحنت بجسمها كلما انحنيت بجسمى حتى لا يستيقظ الأطفال ..

فشعرت بأنفاسها اللاهثة على وجهى .

وظلت شفتاى على يدها. وظللت منحنياً .

وشعرت بالعرق يتصبب من جسمي وبرعشة شديدة تسرى فى بدنى .

ولما أفقت لنفسى وجدتنى وحيدا فى الغرفة . وخرجت بهدوء دون أن أحدث أى صوت .

* * *

وتعمدت بعد هذه الليلة ألا أراها ، وكنت أتلهى عنها بالذهاب إلى الملاهى والحانات .. والمراقص الصغيرة .. وأرى النساء وهن يرقصن شبه عرايا .. وكنت أحاول بذلك كله أن أسلوها .. ولكن هيهات .

وذهبت مرة إلى حانة صغيرة فى شارع شريف تديرها امرأة أجنبية ومعها فتاة أخرى وكانت الفتاة حلوة . فجلست عن قرب منها وأخذت أشرب ... وبعد قليل سمعت صوت رجل أعرفه ينبعث من ركن فى الحانة ، فمددت بصرى فألفيته جارنا المصارع وكان يجلس فى مكان منزو عن الناس . وأمامه على المائدة الشراب ..

وكان جالسا منتصب القامة كعادته .. وبجواره الغلام الصغير الذى يرافقه دائما ...

ونهضت من مكانى وتوجهت إليه ، وجلست معه على مائدة واحدة . وأخذنا نشرب ونتحدث وقلت له :

« أتجىء إلى هنا كثيرا ... ؟ »

« بعض الأحيان ... وأنا أعرف هذه الحانة وصاحبتها من مدة طويلة ... ! »

« وهذه الفتاة التى معها ألا ترى أنها تغيرت ... » ؟

فابتسم وقال بصوت هادىء « ما الذى تغير فيها .. يا أخى .. إنك أنت الذى تغيرت .. وكلما كبرت فى السن تغير نظرك للأشياء وفهمك للمرأة ... »

« أقصد أن عشرتها للجنود هى التى أكسبتها هذه الجرأة »

« قد يكون هذا .. والحرب تغير كل شىء فى الإنسان .. وأنا كنت فى الإسماعيلية ورأيت جنود الحلفاء الشبان وكانوا قبل الحرب يسعون إلى الخير .. يسعون إلى ماهو أسمى وأنبل .. فلما داروا فى فلك الحرب وسمعوا دوى القنابل وأزيز الرصاص ... انقلبوا إلى وحوش ... وأدركوا حقارة الإنسان ووحشيته ... والجندى يعود من الميدان وقد فهم الحياة البشرية على حقيقتها . فما من شىء أفظع من الحياة ... »

وظللنا نتحدث ولما أخذ الكفاية من الشراب . . استأذن لينصرف فنهضت معه وتوجهنا إلى المحطة سويا لنأخذ القطار إلى عين شمس .

* * *

... وفى صباح اليوم التالى لم أذهب إلى المدرسة وقررت أن أضع حدا لهذا العذاب ... فذهبت إلى شقة نعيمة هانم ... وظللت معها طول النهار .. وفى المساء اتفقنا على الزواج ...

وتزوجتها وكنت سعيدا حالما ... وعشت معها أكثر من عام فى سعادة لاتقدر .. وكنت فى كل ليلة أنظر إليها وهى نائمة بجوارى وأود لو طوقتها بسلسلة حديدية حتى لاتفلت منى أبدا ... كان هناك إحساس باطنى يعمل فى داخل نفسى ويهتف بى بأنى لست كفئا لها .. ولهذا كنت أتعذب ... وكنت أقاسى ... وكنت أشدها إلى صدرى وأغمغم بينى وبين نفسى « هل أنت حقيقة بين ذراعى » .

كنت أعمل فى المدرسة إلى مابعد الظهر .. وأدير لها بعض شئونها فى أيام الراحة.. وكنا ننزل فى الأصيل إلى الحديقة وما يجاورها لنزرع بعض البقول أو نسقى الزرع ... وكانت نعيمة تجلس فى الظل على كرسى من القش وتترك الطفلين يلعبان وترقبنى باهتمام ... وكان المصارع كثيرا ماينزل إلى الحديقة ويدير طلمبة المياه وكان يرتدى بنطلونا رماديا .. ويترك صدره مكشوفا وظهره عاريا .. وكنت أرى جسمه البرنزى وعضلاته القوية وهو يرفع بعض الأثقال .. وأعجب لهذه القوة .. وكنت ألاحظ أن نعيمة تطيل النظر إليه دائما وترقب عضلاته القوية باهتمام زائد ..

وكنت أمسك بالفأس وأنحنى على الأرض وأحاول أن أظهر أمامها فى مظهر الرجل القوى .. ولكن هيهات فإن جسمى كان يتصبب عرقا بعد دقائق قليله . وأقف أمامها لاهثا مبهور الأنفاس وقد شعرت بدوار ، وكانت تنظر إلى طويلا ولا تقول شيئا ...

ولم أكن أدرك شيئا مما يعتمل فى داخل نفسها ... كنت غرا قليل التجارب حديث العهد بالنساء .

وكانت نظرتى سطحية إلى الحياة والناس . وكنت أشكو من سعال دائم وهزال شديد . ولهذا لم أكن أجهد نفسى فى أى عمل شاق . فاخترت التدريس فى مدرسة ابتدائية صغيرة بأجر بسيط لاستريح ..

وكنت أمضى الليل فى تصحيح كراسات التلاميذ وتحضير الدروس والمطالعة الخفيفة !

وكنت أشرب قليلا فى ليالى الشتاء .. وكان جارنا المصارع يشرب كثيرا فكنا نجلس معه إلى مائدة واحدة نشرب ونتحدث .. وكانت زوجتى تجلس معنا وتشاركنا الحديث . ولم يكن المصارع يعمل أى عمل بعد محنته كان يمضى النهار فى البيت . وكنت كثيرا ما أراه وأنا عائد من المدرسة واقفا فى الحديقة يدير طلمبة المياه . . أو جالسا فى ركن منها .. وزوجتى على بعد خطوات منه ومعها طفلاها يلعبان وكنا إذا دعوناه إلى الغذاء أو العشاء .. يجلس بعد الطعام فى ركن من الغرفة دائم الصمت قليل الكلام .. وكنت أنظر إليه فى اشفاق ..

* * *

وذات يوم كنت أعمل فى الحديقة وكانت معى زوجتى .. فاعترضنى حجر ثقيل فرأيت نقله من مكانه لنسوى الأرض وننقل إليها بعض الأتربة لزرعها .. وحاولت حمله فلم أستطع ووضعته على الأرض وقد شعرت بانخذال شديد .. ووقفت ألهث .. ونظرت إلى زوجتى فى ازدراء .

وفى هذه الأثناء دخل المصارع من باب الحديقة فنادته زوجتى وانحنى على الأرض وحمل الحجر فى سهولة بالغة ورأيتها تنظر إليه فى إعجاب ووله .

.. وشعرت بخنجر حاد يمزق قلبى .

ومضت الأيام .. وطارت الأحلام واقتربنا من الواقع .. وكنت كلما زدت بها وجدا .. ازدادت عنى بعدا .. كلما اقتربت منها بعدت عنى وكلما حاولت أن أمسكها واتشبث بها .. عملت على الأفلات منى ..

وظهر ضجرها وملالها .. وكنت من قبل كلما رأيتها تتحدث مع المصارع لا أهتم . أما الآن فقد أصبحت أحمل له كل مقت .. وكان يدخل شقتها.. أثناء وجودى وفى غيابى .. فقررت أن أمنعه وحدثتها فى ذلك .

فقالت فى استخفاف زائد :

« إذا كنت تقدر تمنعه امنعه .... »

فقلت لها فى غضب :

« بل سأطرده من الحى كله .. »

فقهقهت .. ومضت عنى ..

وجلست فى ركن من الغرفة ارتعش وأتصبب عرقا .

وأصبحت كلما رأيته بعد هذا مارا فى الطريق أو عاملا فى الطلمبة أو جالسا يتحدث مع زوجتى يتملكنى غضب أسود وأكاد أجن .. وكنت أود لو أمزقه وأقطعه إربا . ولكن من أين لى القوة على ذلك ..

.. وأخيرا حملت عصا غليظة وتربصت له عند مدخل البيت .. ورأيته قادما من بعيد وكان يسير بخطى منتظمة منتصب القامة فارع الجسم ..

ومر بجانبى .. ولما بدأت أرفع العصا شعرت بيدى تهتز وجسمى كله يرتعش .. فوقفت فى مكانى متخاذلا .. وحاولت مرة أخرى وجمعت شمل نفسى وزفعت العصا ! وفى أثناء ذلك سمعت صرخة حادة فتلفت فألفيت زوجتى واقفة على بعد خطوات منى ترقب مايحدث .. فاندفعت نحوها كالمجنون لأهوى على رأسها بكل قوتى ..

وأحسست بمخلب من حديد يقبض على عنقى ويرفعنى عن الأرض ثم يلقى بى بعيدا فسقطت على الأرض متمرغا فى التراب ..

وجرت نعيمه نحوه وتعلقت بعنقه ودفنت رأسها فى صدره وهى تنشج ..

ورأيت ذراعه القوية تتحسس جسمها فى رفق وتدور حواليه .. ثم تضمها إليه بقوة !

ونهضت .. وخرجت من المنزل منكسرا ذليلا .. ولم أعد بعدها لمنزل الأرملة !

الرجل الأعزل

جلست سميرة هانم فى حديقة منزلها فى ضاحية مصر الجديدة ، تستمتع بهواء الأصيل فى الحديقة الناضرة المزهرة ، وكان بصرها يمتد إلى الفضاء القسيح الممتد أمامها ، حيث تلتمع رمال الصحراء تحت أشعة الشمس الغاربة .

وكان الشعاع يتجمع عند خط الأفق ويكون لونا أرجوانيا أخاذا . وكانت الصحراء ساكنة وهواء الصيف الرضى فى تلك الساعة من النهار يبعث السرور إلى النفس ، فأخذت سميرة هانم تستمتع بما حولها من جمال وفتنة .. وكانت ترتدى فستانا بنى اللون قصير الأكمام مفتوح العروة . وتضع فى رجليها حذاء مكشوفا برزت منه أصابع قدميها ، وقد طليت أظافرها بالأحمر ... ! وكانت لاتلبس جوربا فظهرت الساق العبلى فى كامل فتنتها كأنما صبها مثال قادر .

وكانت عارية الرأس فانسدل شعرها على كتفيها وغطى جيدها .. وكانت وهى جالسة على كرسيها الطويل ، قد مدت ساقيها ، واضطجعت إلى الوراء قليلا . واغمضت عينيها نصف إغماضة كأنها تحلم .. وظلت على ذلك مدة حتى انتبهت على رنين جرس الباب الخارجى فتلفتت . ورأت الخادم وهى تفتح الباب . ودخل شاب فى مقتبل العمر يحمل بيده اليمنى بعض الكتب . ويرتدى بدلة رمادية ... وكان نحيفا طويل العود . مقوس الظهر .. يضع على عينيه منظارا سميكا . ويمشى فى تؤده كأنه يتطلع !

وعندما اجتاز ممر الحديقة ، ومر بجوارها حياها بانحناءة خفيفة

من رأسه ، وتابع سيره إلى الداخل . وراء الخادم . فأدركت سميرة أنه المدرس الجديد الذى يعطى دروسا خاصة لابنها جمال .... وكان قد جاء منذ أسبوعين ولكنها لم تره سوى هذه المرة . وعندما نظرت إليه أشفقت على نحافته ومرضه .

وظلت فى مكانها جالسة بعد أن دخل ... ولكنها عندما سمعت صوته عاليا فى شبه غضب .. نهضت واتجهت إلى الداخل ... ووقفت فى البهو تستمع .. وكانت غرفة المكتب مفتوحة .. فسمعت صوت المدرس وهو يلقى الدرس فى حدة . وصوت ابنها يستعيد مايقول المدرس فى ضعف .. وخيل إليها أن ابنها يبكى ..

فأحست بالشفقة والحنين وودت لو تدخل عليهما الغرفة وتأخذ ابنها الوحيد بين ذراعيها وتطرد الأستاذ ! ولكنها بقيت فى مكانها تأدبا منها .. وبعد برهة هدأت حدة الأستاذ .. فمشت إلى غرفة نومها تتزين . وعندما فرغ حسين من الدرس وحيا الغلام ... وخرج إلى الحديقة نظر إلى الكرسى الذى كانت تجلس عليه سميرة هانم فلاقاه فارغا فشعر بالهم يعصر قلبه .

وأخذ حسين كلما جاء إلى البيت بعد ذلك ورأى سميرة هانم جالسة فى الحديقة أو فى الصالة .. يحييها فى أدب جم وكانت ترد على تحيته فى فتور .

وكان كلما وقع نظره عليها يحس برجفة شديدة تسرى فى بدنه فيجلس على كرسيه فى غرفة المكتب وأمامه ابنها وهو شارد صامت ، فإذا شرب القهوة رجع إلى نفسه وبدأ الدرس ... وكان يراها دائما فى ثياب بسيطة تكشف عن الذراعين والنحر ، وتنحسر عن الساقين فيحس بسياط حادة تلهب ظهره .. ويشعر بقلبه يضطرب وبحلقه يجف !

وكان قد أشرف على الثامنة والعشرين من عمره ولكنه لم ير الدنيا إلا فى صفحات كتاب يطالعه فى المدرسة ، وكانت المرأة تتراءى له فى أحلامه كشىء لذيذ ممتع ولكن ليس إلى الاستحواذ عليه وامتلاكه من سبيل . ولهذا كان يتحسر ويتألم !

وكان عمله كمدرس قد استغرق كل وقته .. وليس تعليم الصبيان بالشىء الهين ، فإنهم يأخذون منه كل وقته ، ويستغرقون كل فكره .. ويجعلونه ينزل أبدا إلى مستواهم فى التفكير والفهم !

ولقد دخل بيوتا كثيرة من قبل ، ورأى أمهات وأخوات تلاميذه ، وحادثهن وجالسهن .. ولكنه لم يشعر قط بمثل العاصف الذى يلفه لفا كلما رأى سميرة هانم ... ولم يدر لذلك سببا ...

كانت قصيرة القامة ، ريانة العود فى الثالثة والأربعين من عمرها ، خمرية لون البشرة ، سوداء العينين يتألق فيهما بريق آسر وهو بريق الرغبة المنطلقة من الجسم الممتلئ حيوية وفتنة .

وكان شعرها أسود غزيرا .. ووجهها مستديرا .. وأنفها دقيقا وفمها بارز الثنايا .. وهنا تجتمع كل فتنتها . فإنه كان يرى دائما فمها مفتوحا ... وشفتها السفلى المكتنزة مهيئة أبدا للقبل . وكم مرة تصور نفسه يعصر هذه الشفة حتى يدميها .. كم مرة تصور ذلك حتى وهو يدرس للغلام ...

كان يترك الغلام يعمل واجباته .. ويسرح هو فى أحلامه .

وخرج ذات ليلة بعد الدرس .. فلقى وهو يجتاز الحديقة إلى الخارج رجلا يدخل المنزل .. وكان يعرف أن زوج سميرة هانم قد مات منذ سنوات .. فمن يكون هذا الرجل ؟

ورآه ذات مرة جالسا مع سميرة هانم فى الحديقة .

ثم أخذ يلتقى به بعد ذلك كثيرا .. وفى الليل غالبا .. كان يراه داخلا البيت وهو فى طريقه إلى الخارج ..

وكان حسين يتلهف إلى معرفة بعض الشىء عنه والتقى به مرة فى صالة البيت وهو خارج من الدرس ... ودعاه الرجل إلى الجلوس فجلسا يتحدثان قليلا .. ورأى حسين أن الرجل مثقف ولكنه شاذ غريب الأطوار ، إن اسمه عاصم . وكان قد تخطى عقده الرابع ولكنه ظل محتفظا ببريق الشباب ورونقه . وكان قوى الجسم مفتول الساعد طويل الوجه أبيض البشرة . فى عينيه بريق الذكاء .. وكانت أرنبة أنفه ملتويه قليلا وذقنه بارزة نوعا وكان عنقه ضخما .. ولهذا كان صوته جهيرا . وكان عذب الحديث لايفرغ من حديث إلا ليعود إلى ماهو أمتع منه .

وعندما حياه حسين وأخذ طريقه إلى الخارج . لم يشعر فى دخيلة نفسه بارتياح نحو هذا الرجل .

وكان كلما اشتد الحر أخر حسين ميعاد الدرس ... حتى كان الدرس فى الأيام القريبة من أيام الامتحان يبدأ عند العشاء .... وكان وهو خارج ليلا يلتقى بهذا الرجل غالبا .. فيحييه وعلى فمه ابتسامه ... وكان يسائل نفسه أيبيت معها .. كان يشعر بالغيرة تنهش قلبه .. وأخذ على توالى الأيام يشعر نحوه بمقت شديد ..

وكان حب حسين لسميرة هانم صامتا مكتوما يشتعل فى داخل نفسه .. وكان كلما رأى مفاتن جسمها تروح وتجىء أمامه يكاد يجن .. وكان إذا بصر بها من فرجة باب المكتب جالسة أمامه فى الصالة تقلب بعض المجلات المصورة .. كان يحدق فيها بعينين نهمتين .. ينظر إلى

ساقيها ويلتهم جسمها كله بنظراته المشتعلة .. ويغفل عن الدرس وينظر إليها ساهما مبهور الأنفاس ويحمد الله على أنها لاتقع على وجهه المنفعل . وكان كلما مرت الأيام اشتد تعلقه بها وزاد حبه سعيرا .. وكان يتحين الفرصة للانفراد بها وبثها لواعج قلبه .. ولكنه كان كلما انفرد بها أحس بلسانه يقف فى حلقه ولايستطيع أن يفصح عما فى نفسه ...

ويزيده الكبت انفعالا وعصبية .. وكانت لاتحس بوجوده إطلاقا .. ولا تعيره أى التفات .

وكان كلما امتنعت عليه ازداد بها وجدا .. وكان يعود فى هدأة الليل ويدور حول منزلها .. ويرقب غرفتها المضاءة من بعيد فإذا لمحها علق بصره بها لايتحول عنها حتى ينطفىء النور فى الغرفة فيبرح المكان وهو فى أشد حالات الألم .

وذات ليلة رآها وقد لبست منامتها وأخذت تتزين مستعدة للنوم . ثم رأى رجلا يدخل عليها الغرفة ويقترب منها وخيل إليه أنه احتواها بين ذراعيه وتصور أنه عاصم .. ورآها تغلق مصرا ع النافذة وتطفىء النور ويبارح المكان وهو يبكى كالطفل .

* * *

ونجح جمال فى الامتحان .. وذهب حسين ليهنئه .. واستقبلته سميرة هانم مرحبة مسرورة ...

وسر لهذا الترحاب وجلس معها يتحدث .. واحس بنفسه لأول مرة ينطلق معها فى الحديث .

وتحدث وتحدث حتى مضى جزء من الليل .. وذهب جمال لينام .. وبقى معها وحيدا .. وتركته قليلا وعادت ومعها مظروف صغير وقدمته له

وهى تقول بصوت ناعم :

- متشكرين يا أستاذ ..

- ما هذا .... ؟

- أتعابك ، وكتر خيرك ..

- لا .. لا .. مش ممكن ..

- إزاى ... ؟

وأعادت إليه المظروف ...

فرده إليها ولمس وهو يفعل ذلك ذراعها ... فأحس بمثل النار فى جسمه ...

وقال بصوت خافت :

- مش عاوز فلوس ..

- أمال عاوز ايه .

- أنت عارفه ...

- مش عارفه حاجه ... ايه ...

ونظر إليها وأحمر وجهه واضطرب جدا .. ثم انطلقت من فمه كلمة كالقذيفة .. !

- عاوزك أنت ..

وأحس بلطمه قوية على خده ... ومر هذا فى مثل خطف البرق .. وأشارت بيدها إلى الباب وقد انقلبت سحنتها إلى سحنة لبؤة .

وخرج مهرولا ذليلا . كالكلب المطرود .

* * *

ومضى فى شارع طويل ملاصق للصحراء وهو شاعر بتعاسة مرة .. كان يود لو تغوص به الأرض ... وأخذ يضرب فى الطريق على غير هدى تاركا العنان لأفكاره تسبح فى أجواء الفضاء .

وكان الليل ساجيا ممتعا والشارع قد أخذ يفرغ من المارة وكان هناك أناس يسيرون رائحين غادين فى خطوات متمهلة رتيبة وعبر الحديقة الطويلة .. ثم مال إلى اليمين فى الشارع المتجه إلى ميدان عمر بن الخطاب ... ورأى وهو نازل فى الطريق رجلا يقبل على مهل .. وعرفه من مشيته لقد كان عاصم .. وشعر بشىء يضغط على قلبه .. وبحنق شديد نحو الرجل . ولما اقترب منه مد إليه عاصم يده مسلما .

وقال وعلى شفتيه ابتسامة :

– لقد انتهت الدروس ..

– أجل ...

– كل امتحان وأنت بخير ..

وخيل لحسين أن الرجل يسخر منه فقال ليتشفى ووجهه ناطق بالخبث :

– أذاهب أنت إلى هناك ..

– إلى أين ... ؟

– إليها ...

ونظر إليه عاصم طويلا .. وقال لنفسه أأحطم أنف هذا المخبول .. أم أقطع لسانه ؟ !

ولكنه لم يصل إلى جواب !

ثم كظم غيظه وسكت قليلا .. ثم قال بصوت هادىء :

– أقرأت جرائد الصباح .. ؟

– أجل .. ماذا فيها .

– اشتداد الحرب فى فلسطين ... وحادثة انتحار مفجعة .. شاب أطلق على نفسه الرصاص بعد أن جبن عن ازاحة غريمه عن الطريق ...

– لماذا .. ؟

– لأنه جبان ... خائب فى الحب ... وفى كل شىء فى الحياة ..

ودفع عاصم يده فى جيبه واخرج منه شيئا صغيرا وقدمه إلى حسين وهو يقول مبتسما .

– خذ هذا هدية منى ... فقد تحتاج إليه ... !

وسأله حسين مستغربا وهو يتناول المسدس بيد مرتجفة :

– احتاج إليه .. أنا ... ؟ !

– أجل قد تذهب يوما ما إلى فلسطين ... أو قد تحتاج إليه فى عمل آخر ...

وترك صاحبه موليا ظهره .. وظل حسين يرقبه وهو يمضى والمسدس فى يده .. وومض فى ذهنه خاطر سريع .. فمد المسدس .. ثم جبن وثنى ذراعه .. وألقى المسدس على الرمال .. وسار فى طريقه حتي ابتلعه الظلام .

النور الذى خبـــا

حدث منذ عشر سنوات أن ذهبت لزيارة صديق لى كان يسكن فى ضاحية المعادى .. وكان يقيم فى الطابق الثانى فى فيلا صغيرة فى الشارع السادس عشر وكانت المسافة بين منزله والمحطة طويلة ولكنها تأخذ بلب المشاهد .. فقطعتها متمهلا شاعرا بكل ماحولى من جمال وفتنة وكنت أشعر بلذة الحياة وقوتها فى ذلك الحين ..

وكنت أحمل معي مخطوطا صغيرا .. وكان ديوانا من الشعر رأيت أن أعرضه على صديق قبل أن أدفع به إلى المطبعة وكان ناقدا بصيرا بفنون الأدب ..

وبلغت منزله ساعة الغروب وفتح لى بنفسه الباب ... فقد كان عزبا وقادنى إلى الداخل . فدخلت كعادتى إلى غرفة المكتب .. ولكننى وقفت على الباب مترددا بحيائى الفطرى فقد رأيت سيدة تجلس على كرسى هناك وقد ولتنى ظهرها ..

ولما رأى صاحبى ترددى قال بصوت عال :

« أدخل ياأخى ... ألا تعرف السيدة إلهام ... »

واستدارت السيدة فى تلك اللحظة .. ورأيت وجهها وانمحى كل ماكونته فى رأسى من خواطر عن صديقى .. فقد كانت عجوزا فى الخمسين من عمرها ... وقد تركت وجهها وشعرها دون أصباغ أو مساحيق ..

ومدت إلى يدا رقيقة ناعمة فسلمت وأنا مرتاح إلى السكون والدماثة اللذين طالعانى من وجهها ..

وقال صديقى عبد الرحمن ...

« أقدم لك السيدة إلهام .. جارتنا .. وهى شاعرة مثلك .. »

ولمعت ابتسامة خفيفة على ثغرها .. وكان وجهها كله مكتسيا نعومة ورقة ولم أر فى حياتى حياء يمتد إلى هذه السن فى المرأة ... كانت كأنها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها وهى تبتسم فى خفر وتعقب فى رقة على كلامنا ..

وجلسنا نتحدث وعرفت أن والدتها أجنبية وأنها عاشت معها بعد وفاة والدها وهى طفلة أكثر من عشرين سنة فى الخارج ولذلك لاتعرف العربية إلا قليلا .. ولهذا يتصور كل من يراها أنها أجنبية ..

وأخذ عبد الرحمن يترجم لها شيئا من شعرى فى المخطوط فظهر على وجهها السرور .. ثم استأذنت وهى تعدنى بأن تهدينى ديوانها فى زيارتى القادمة ...

وبعد أسبوع رأيتها واقفة فى حديقة منزلها وأنا داخل .. ولم تلحظنى .. ومع أنى اقتربت منها كذلك فإنها لم تشعر بى ... فاضطررت أن أرفع صوتى مسلما .... فجفلت قليلا ومدت يدها .. وأدركت وأنا أطيل النظر إلى عينيها أنها ضعيفة البصر وأنها عندما تخلع منظارها لاترى إلا قليلا ..

وظهر على وجهها الإيناس لما عرفتنى وقالت :

« لقد تركت لك ديوانى .. عند الأستاذ عبد الرحمن .. وأرجو أن يروقك .. » وشكرتها وقلت لها أنه يسرنى أن تصعد إلى شقته لنتحدث قليلا فى الأدب فقالت :

« سأحاول أن أحضر ... إن لم تأت مديحة .. »

وكان أول شيء فعلته أن سألت صديقى عبد الرحمن عن مديحه هذه التى تتحدث عنها السيدة الشاعرة .

فقال لى أنها ابنتها الوحيدة ..

وتصورتها بين الخيال وأنا جالس فى كل الصور الجميلة التى تأسر النفس .

ولم تأت السيدة إلهام ... ولا شك أنها شغلت بمديحة كما شغلت أنا بها ..

وفى زيارتى الثالثة لصاحبى .. رأيت باب السيدة مفتوحا .. ورأيت فتاة فى العشرين واقفة على العتبة .. فسألتها عن السيدة إلهام .

فقالت :

« فوق عند الاستاذ .. طلعت .. دلوقت .. »

فأدركت أنها مديحة .. وكانت كما تصورتها آية من آيات الله جمالا وسحرا .

وعند انصرافى من منزل صديقى عبد الرحمن .. دعوت السيدة إلهام إلى العشاء فى الكازينو المطل على النيل .. فى الأسبوع المقبل .. فرفضت وقالت :

« إننى أشعر بالرثاء .. وأرجو أن تعفينى .. » .

– لماذا ... ؟

– شـاب مـثلك .. فى سن ابنى .. يدعـونى فى مكان عـام .. لا .. أرجوك .. أنا أشعر بالاشفاق ..

وألححت .. وقلت لها أنه يسعدنى ذلك وتحمست لمجرد تصورى أن سنها يحول بينها وبين متع الحياة .. وأنها تشعر بتعاسة الوحدة ومرارة الشيخوخه .. وألححت مرارا ..

فقالت :

– إذا كان ولابد من الدعوة .. فسآتى بمديحة معى حتى لا أشعر بالإحـراج .. وسـررت إذ كـنت فى أعـمـاق نفـسـى أوجـه الدعـوة إلى مديحة ..

وفى صبـاح يوم الدعوة .. دق جرس التليفون فى مكتبى .. وكانت السيـدة إلهام هى المتحـدثة . وقالت إنها تعتذر عن الدعوة لأن مـديحة لاتستطيع الحضور لمرضها .. فلم أقبل الاعتذار .. وقلت لها أنه يسعدنى أن تأتى وحدها .. فظلت مترددة ثم قبلت أخيرا ..

ووضعت السماعة وأنا أشعر ببعض الأسى .

وركبت القطار بعد الموعد بقليل .. ولم أشعر وأنا راكبه شعور من يستقل عربة إلى موعد غرام ..

وجلست فى الكازينو ... فى ناصية تطل على النيل .. وشعرت بعد دقيقتين بالانقباض الشديد ... وتمنيت فى أعمـاقى أن لاتأتى ... وأن يعـوقـها عـائق ... ونعـت نفسى بكل صـفـات الحـمـاقـة لأنى تسـرعت ودعوتها ... وكان حولى شبان وشابات ... يتناثرون كالزهر المتفتح ...

وبعد قليل وفى غمرة هذه الخواطر القلقة رأيتها مقبلة من بعيد فتمنيت أن أفر منها وأن تضل الطريق ».

وجلست فى دماثة محببة .. وكانت رقيقة مرهفة الحس جدا فأزحت المقعد وهيأته لها بنفسى .. وطلبت لها العشاء وظللت وأنا جالس معها أنظر إليها أكثرمن نصف دقيقة دون أن أطرف .. وشجعنى على هذا أنها كانت قد خلعت منظارها .. وكانت بعد أن تخلعه لاترى أبعد من أنفها .. وكانت ترتدى فستانا أسود مطرز الحواشى بالدنتلا قصير الأكمام مفتوح العروة ورأيت جسمها المترهل .... وشبابها الذى ولى ونورها الذى خبا ، رأيت هذا كله لأول مرة وشعرت بالانقباض وبالرثاء لها ولنفسى ..

ونسيت الشعر والأدب والفلسفة ... وكل الأحاديث الطلية التى سمعتها منها .. نسيت هذا كله وبرزت أمامى أنثى ليس إلا .. أنثى قد ذبل شبابها وولى ..

وجلست تأكل فى بطء شديد .. وحاولت جاهدا أن أبدو مسرورا معها سعيدا بلقائها .. ولئن كان كل ماحولها يشعرها بأنها دخيلة على هذا المكان .. فقد كان معظم الجالسين من العشاق فى سن الصبا .

ونظرت إلى الشابات حولها وشعرت بالبكاء ... ولهذا أكلت قليلا وتهيأت للانصراف .

فقلت لها :

– ولماذا لا تبقين قليلا .. فالجو جميل .

– ولكن لا أحب أن آخذ من وقتك أكثر من هذا ..

وكانت مرهفة الحس جدا .. وتقرأ خواطر الآخرين .. فذهبت كل محاولاتى لاستبقائها هباء .. ومشيت معها حتى منزلها وودعتها وانصرفت ..

وكان ديوانها صورة منها .. مثال الرقة والشعور الإنسانى الفياض .. ورأيت أن أزورها لأشكرها على الديوان وأبين لها منزلتها بين الشعراء فى هذا العصر ..وفتحت لى مديحة الباب .. وجلست مع الشاعرة أكثر من ساعة .. وسرها إطرائى للغاية ..

وكانت مديحة تروح وتجىء أمامى .. وتقدم لى عصير الليمون والقهوة .. والمجلات الفرنسية التى تنشر فيها والدتها شعرها .. والقصائد الجديدة التى تعدها للنشر ..

وشعرت فى هذه الفترة البسيطة بأننى أشربت روحها وكأن هناك رباطا قويا يجمعنى بها ويضمنى إليها .. فكانت تخاطبنى دون كلفة وفى بساطة ورقة .

وعندما انصرفت خرجت مديحة معى إلى الشارع وتركت يدها فى يدى لحظات وضغطت عليها بعنف وأخذت طريقى إلى المحطة ..

وكان الهدوء والجمال الشعرى الذى أراه وأحس به فى منزل الشاعرة يحببنى إلى زيارتها .. فكنت أزورها مرتين فى الأسبوع .. وأجلس معها ساعات أتحدث فى الأدب والرحلات .. وكانت تقول لى إنها اعتادت أن تسافر كل صيف إلى النمسا وايطاليا لترى الجمال وتسمع الموسيقى .. وكنت أستمع إلى حديثها فى إعجاب وسكون .. ولا أتحدث إلا قليلا وأحسست بعد شهر أنها كانت تتعمد دائما أن تنفرد بى فى الصالون .. وأن تصرف مديحة إلى درس البيان أو إلى أى شىء آخر ..

حتى يطول انفرادها بى .. وكنت ألاحظ دائما أنها تنظر إلى بوله .. ولكن فى سكون وعمق ..

وذات مرة .. تناولت من يدها كتابا فامسكت بيدى وضغطت عليها ونظرت إلى طويلا دون أن تنبس ..

وكنت أفهم مايحتمل فى نفسها من عاطفة نحوى .. ولا أحاول أن أصدها أو أن أجرح شعورها .. وتركتها فى عواطفها وأحلامها ..

ولكن كان فى الجانب الآخر من الحياة .. يأخذ الشباب طريقه بعنف وقوة . فقد اتجهت بكليتى إلى مديحة وكنت أبادلها النظرات والبسمات .. وأتحدث معها كلما التقيت بها .. وأحببتها وشعرت بكليتى أننى فيها .. وكان لا يمر يوم دون أن أراها ..

ومرت الأيام وأصبح حبنا متبادلا عنيفا ولا أدرى هل أحست بذلك الأم أم لا .. وكنا نخرج خلسة .. ونذهب إلى حلوان وأعود بها قبل منتصف الليل إلى المعادى وهى سكرى من الحب ..

وكانت تتعلق بى على الباب وتشدنى إلى صدرها بذراعيها الصغيرتين .. وكنت أخاف أن تحس بنا أمها .. وأحدثها هامسا بمخاوفى .. فكانت تقول فى همس « إنها لاترى .. حتى ولو كانت جالسة فى الصالة .. إن نور بصرها قد خبا .. » وعلى هذا الاعتقاد كنا نتعانق طويلا فى البيت .. ثم اتخلص منها فى رقة وأمضى على وجهى كالمخبول .

وكنا متعانقين مرة وغائبين عمن حولنا وغائبين عن الوجود كله .. عندما استفقنا على صرخة مفزعة .. وتلفتنا مذعورين فوجدنا الأم واقفة فى الردهة وكانت تلبس منظارها وقد أبيض وجهها وظهر عليها رعب من

يدفع عنه ضربة قاتلة على رأسه .. فقد كانت تدفع عن وجهها شيئا بكلتا يديها ..

ومالت وسقطت بعد الصرخة .. دون حراك .. فقد كانت الصدمة عنيفة ولم يقو على احتمالها قلبها الضعيف ..

وكان هذا آخر عهدى بالحب ...

صورة من الخيال

جلست أنهار هانم مع شقيقها وزوجها وابن عمها سعيد فى البنوار وعيناها تدوران فى جوانب المسرح .. وكانت هذه أول مرة تخرج فيها منذ عهد الثورة لترى مسرحية مصرية تمثل فى هذا المكان ..

كانت مترددة فى المجىء وقالت لزوجها الذى فاجأها بالبنوار :

« حرام عليك تضيع علينا رواية عطيل لأرسون ويلز » .

– ولكن المؤلف صديقى وحمل إلى التذكرة بنفسه فلابد من الذهاب .

فارتدت أجمل ثيابها وخرجت إلى السيارة وفى الطريق مرت على شقيقتها إبتسام وصحبتها هى وزوجها .

وجلسوا قبل رفع الستار بقليل يتحدثون فى ارستقراطية وترفع ..

ولاحظت أنهار اختفاء الوجوه الارستقراطية كلية فى البناوير فأين الفراء وقلائد الماس واللآلىء النادرة التى كانت تبهر الأبصار فى هذا المسرح .. لقد اختفت هذه الوجوه وحلت محلها وجوه جديدة من طبقة شعبية مكافحة .. أخذت فى الظهور ولذلك أمتعضت أنهار وجلست ساهمة تلعن زوجها الذى أخذ يخلع عنه ثوب الأرستقراطية ويصحبها إلى الأماكن التى يتردد عليها الشعب ، إنها كانت تود أن تذهب إلى السهرة الخاصة التى يقيمها رشاد وزوجته ألفت .. وهناك تقابل جيهان وحبيبها عاصم .. فيجلسون جميعا على الأرائك فى استرخاء ولذة يشربون الويسكى ويستمعون إلى فكاهات عاصم وملحه .. إنها تود أن تسمع هذه النكات الحلوة التى يرقص لها قلبها وتهتز كل جارحة فى جسمها اللدن .

إنها كانت تود أن تسمع هذه الحكايات .. وبعد السهرة يخرجون إلى العشاء فى الأوبرج وهناك يرقصون ويضحكون فى ضوء القمر إلى الصباح .

وتنبهت وهى فى غمرة هذه الخواطر على صوت الجرس فى القاعة ينذر بابتداء التمثيل .

ورفع الستار ...

وكانت أنهار هانم جالسة بجانب أختها وقد أعطت المسرح نصف وجهها ونصف سمعها .. لأنها كانت تقدر أن المسرحية ... « تهريج .. فارغ ... » .

ولكن بعد قليل أحست أن شيئا جديدا يتحرك على المسرح وأن هناك حركة وحياة وبعض القوة فى التعبير وفى التمثيل .. فتحولت قليلا ..

وبعد بضع دقائق أخرى اتجهت بكليتها إلى المسرح ونسيت كل شىء حولها ... ولما أسدل الستار على الفصل الأول صفقت كثيرا ..

وفى الفصل الثانى ضحكت كثيرا .. حتى نسيت عاصم بوجهه الصبوح وذاته الحلوة .. فضحكت حتى احمر أنفها من الضحك .. ضحكت حتى نسيت الدنيا بمن فيها .. وعاشت فى الرواية واندمجت فيها .. وصور لها خيالها المؤلف الذى يقول كل هذه الفكاهات الطلية .. والذى يعرف كل شىء عن الحياة وعن المرأة .. وأسرار المرأة على الأخص .

فتصورته فتى جميل المحيا مفتول العضل ضاحك الوجه أنيق الهندام .. زير نساء كمثل هذه الوجوه الحلوة التى نراها فى الحفلات الراقصة .. وارتسمت فى خيالها صورة المؤلف كاملة .. وأغمضت

عينيها حتى تراه فى ذهنها أوضح .. وأوضح .

تمنت بعد هذه الصورة الذهنية أن تراه .. تمنت أن يدعوه زوجها إلى بيتهم تمنت هذا .. وطلبت من الله أن يحقق لها هذه الأمنية العزيزة على قلبها .

وتصورت نفسها وقد عرفته ثم أحبته .. وخرجت معه تحت ضوء القمر فى سيارته الأنيقة ... وأراحت صدرها على صدره ...

إنه ولاشك سينقلها إلى عالم آخر .. إلى دنيا أخرى من السعادة الحقه .. غير الدنيا الرتيبة التى تعيش فيها الآن مع زوجها ..

وفى الاستراحة الثانية عندما أضيئت الأنوار ... رأت زوجها يحيى رجلا جالسا فى نهاية الصف فى القاعة ..

وكان الرجل يرتدى حلة رمادية بالية محشوة جيوبها بالأوراق وكان قبيح الوجه منفوش الشعر له رأس قرد وسحنته .

وعجبت من زوجها الذى ترك البنوار ونزل ليصافح الرجل فى القاعة .. وسألته بعد أن رجع متعجبة :

« من هذا الذى قمت لكى تسلم عليه » .

« إنه المؤلف » ؟

وأخذها الدوار ... ثم الصداع . ، ... ولم تسعفها جميع أقراص الأسبرين التى فى حقيبتها .

الشيخ عبد الله

- « سر فى هذه الطريق خطوات ثم تيامن حتى تبلغ مطعما صغيرا فإذا بك على رأس الحارة » - « أشكرك »

ومشى عبد الله يرمق الحوانيت حتى بلغ المطعم الذى خصصه له الرجل فوقف أمامه لحظة ثم تقدم فى حارة ضيقة وأخذ يقرأ الأرقام المعلقة على واجهات المنازل حتى وقف أمام رقم ٩ وكان باب البيت مفتوحاً فدخله دون تردد على أنه لما صعد الدرج الحجرى أحس بازدياد ضربات قلبه واعتراه إحساس يقرب من الوجل والرهبة فتباطأ فى صعوده وكانت حقيبته فى يده اليمنى فدفعها إلى اليسرى ليريح الأولى وليقى نفسه شر الانزلاق على السلم وكان من غير حاجز . وأحس ببعض الاشمئزاز والتأفف لما لمحت عيناه التراب المتراكم على درجات السلم على أنه واصل سيره حتى بلغ بابا خشبيا ذهبت مع الزمن طلاوته وشحب لونه فنقر عليه نقرات خفيفة ووقف بعد ذلك يخلص أنفاسه ويفسح المجال لرئتيه فقد اجهده السلم واضناه وإن كان مسكن صاحبه لا يعدو الطابق الثانى على أنه كان قد ضرب فى المدينة على غير هدى فحمله الترام من محطة القاهرة إلى حى السيدة وهو يقصد حى الحسين فاضطر أن يبلغ مابين الحيين على قدميه وهو يسأل المارة على رأس كل طريق حتى بلغ مكان صاحبه بعد الجهد الشديد .

وانقطع الصوت الذى اشتد داخل المنزل فجأة على أثر سماع طرق على الباب ولعل الجالسين كانوا فى غمرة جدال وحوار عنيف ثم انفرج الباب ولاح شاب فى مقتبل العمر فى لباس شرقى جميل فلما بصر بعبد الله ظهرت على ملامح وجهه علامات الإنكار له ثم تكلف ابتسامة شاحبة

وتقلصت شفتاه ببلاهة ! ووقف الشابان يتبادلان النظرات القوية لحظات عديدة حتى قال عبد الله وقد تكلف رباطة الجأش .

« الشيخ عبد الحميد هنا ؟ » .

فقال الشاب بعد أن لمح الحقيبة في يد صاحبه .

« آه .. أنت عبد الله أفندى أهلا وسهلا شرفت . شرفت ياأخى شرفت تفضل .. الشيخ عبد الحميد ذهب إلى المحطة لينتظرك سيعود حالا شرفت مصر .. » .

ودخل عبد الله الطالب الشامى فحيا الجالسين فى القاعة الفسيحة وكانوا ثمانية من طلاب الأزهر ثلاثة منهم من إخوانه الشوام وأخذ يدور ببصره فى أرجاء الغرفة ليحيط بما فيها فبصر بسريرين صغيرين قبال بعضهما فى ركن من الحجرة مما يلى النافذة وعلى واحد منهما ملاءة صفراء باهتة وعلى الآخر لحاف أزرق . ثم كتب كثيرة موضوعة فى أكوام على النوافذ وتحت الجدار فى غير نظام ولا ترتيب وقد تمزق غلاف الكثير منها وبقى بعضها مفتوحا . وأرض الغرفة من البلاط الحجرى المهشم بعضه فتخلله الغبار الكثير وفى ركن الغرفة الأيمن أوانى الشاى وعلى الأرض سائله المراق فى بقع حمراء كبيرة امتزجت بالتراب فكونت مناظر جغرافية جميلة ! .

ولما جلس عبد الله بين طلاب الأزهر القدماء اعتراهم أول الأمر السكون الذى حل مع الضيف الجديد ثم مالبث أن اتصل حبل الحديث وتدفق سيل الكلام .

ولما استقرت أول قطرة من الشاى فى جوف عبد الله سأله بعض الجالسين وكان شاميا :

« بدك تدخل الأزهر ! » .

« أجل »

« أهلا بك شرفت ياأخى ».

« مذهبك ؟ » .

« حنبلى » .

فدوت ضحكة حادة انتهز فرصتها الطالب السائل وأخذ يصعد بصره في عبد الله ويخفضه كأنه يستصغره فى نظره حتى احمر هذا خجلا وأطرق .

« ستدرس على الشيخ عبد المجيد الهاشمى الأصول وعلى الشيخ على عبد الرحيم الحديث » .

فقاطعه طالب حاد النظرات ، مديد القامة .

« الشيخ عبد الرحيم لايدرس فى السنة الأولى » .

فاحتد الطالب الأول من غير دا ع وقال .

« ياأخى رأيته يدرس بعينى » .

« ولكنه ... » .

وهناسمع القوم طرقا على الباب فانصتوا جميعا يستقبلون الضيف الجديد .

« وجدت لك غرفة لابأس بها على أنك ستمكث فيها مؤقتا حتى

تخلو غرفة فى هذا المنزل . والغرفة مستقلة وبجوارك أصحاب البيت وهم قوم طيبون ... هيا بنا لتراها » .

وقام عبد الله مع عبد الحميد .

ولم يبعد عن الحى الحسينى فدارا فى دروبه مدة حتى بلغا المنزل المقصود فصعدا درجاته « ياساتر .. هاتى مفتاح الغرفة ياأم نجيه فقد جئت لك بالساكن » .

فنشر عبد الله أذنيه عندما سمع نجيه وحملق فى الغرفة التى وقفا أمامها وانفرج باب وبرزت أمرأة نصف فى رداء أسود طويل ولما وصلت عتبة الباب ورأت الضيف غطت وجهها وارتدت خطوة إلى الوراء وإن كانت أخذت تسارق القادم النظر وتتنفس تنفسا لينا فعل الذى استراح لساكنه الجديد !

« غرفة صحية » .

« لابأس بها » .

« لست فى حاجة لأكثر من سرير ومكتب صغير وحمالة للملابس وهذا كله سيجىء بعد ساعة . وأصحاب البيت سيقومون على خدمتك ويعنون بك العناية التامة . فهم قوم طيبون للغاية » .

وعاد عبد الله أفندى إلى غرفته مع الليل وكانت قد فرشت ونظفت فتمطى وخلع حلته ولبس جلبابه وأخذ يفرغ مافى حقيبته من كتب وملابس ويعلق الملابس بحذر على المشجب ويضع الكتب على النضد فى نظام وغاظه نور المصباح وكان يعلو ويهبط لغير ما سبب يدركه ثم ماعتم أن أدرك بعد أن أجهد رأسه أنه قد يكون لتيار الهواء بين النافذة والباب أثر فى ذلك فاغلق النافذة آسفا واكتفى بالباب المؤدى إلى الردهة الرحيبة المظلمة وكان الليل قد زحف وخيم معه السكون على المنزل .

وجلس على النضد يقلب الكتب حتى غير ترتيبها وشوش نظامها وكان قد أحس بالوحشة وشعر بثقل العزلة على نفسه فأشعل سيجارا وكان مع صغر سنه يدخن وتلك عدوى لداته فى بيروت اكتسبها قبل أن يشتد ساعده ويصلب عوده . وأخذ يرمق الدخان وهو يتعاقد فى سقف الغرفة ويرسم عن زرقاء طويلة ترتد خطوط المصباح فى دوائر متلاحقة وتميل إلى الباب لتذهب مع الهواء وتغيب فى جوف الردهة المظلمة .

وكانت قد مرت فى مخيلته الصور الذهنية بطئية واضحة فعاد يذكر معها قريته الصغيرة الجميلة فى ربوع لبنان وأخوته الصغار وهم يلعبون فى الرياض ووالده العطوف فى متجره وأقرانه من الطلاب فى مدارسهم فشعر بالشوق المبرح إلى ذلك كله واشتدت وطأة العزلة على نفسه فقام عن الكرسى يمشى فى أرجاء الغرفة ويعلق بصره بجدرانها ويتوقف عن السير فى غدوه أو رواحه ليسمع ماكان أشوقه إلى سماع صوت انسان فى جوف هذا الليل الساكن .. على أن سكان المنزل كانوا قد ناموا بعد العشاء بقليل وبقى هو ساهرا وحده . لابد ان يسمع صوت انسان فتقدم إلى النافذة وفتح مصراعها فبصر ببعض الحوانيت الصغيرة تلمع ثرياتها فى الحارة الضيقة وبعض المارة يروحون ويجيئون فاستراح لمرآهم قليلا ووقف مكانه مدة حتى أطفأ التيار المصباح فارتد عن النافذة وأغلقها وهو حانق ساخط ! !

ومضى إلى السرير لينام على أن ذهنه كان نشطا وعقله واعيا فلم تأخذه عيناه فتمطى على السرير وتقلب على جنبه الأيمن وأخذ يصور لنفسه ما سيدرسه فى الأزهر بعد يومين من علوم وآداب ويتخيل نفسه بعد أعوام قليلة وقد رجع إلى بلده شيخا عظيما وعالما جليلا من كبار

علماء الأزهر البارزين فإذا سار فى قريته أشاروا إليه بالبنان وإذا أم مجلساً لا قوه بالاحترام .

ولما انقلب على جنبه الأيسر كان مستريحا تماما !! على أن النوم اللعين كان لا يزال يماطله فاستمر يحملق فى الظلام حتى أحس ثانية بالضيق والضجر فاستوى جالساً على السرير وتحسس بيده اليسرى علبة الثقاب وكان قد تركها على النضد فلم يعثر عليها فاغتاظ ونزل عن السرير وهو حافى القدمين يتحسس الثقاب وقد أشعره الظلام الخوف الشديد وعثر بعد لأى بالعلبة تحت كعب كتاب فأشعل المصباح ووقف فى وسط الغرفة يلهث وقد اشتدت وطأة الخوف على نفسه فجأة بشكل عجيب ! !

ووضع أذنه على النافذة يتسمع فلم يحس بصوت وأرهف السمع إلى الباب فلم يصل إليه حس ، ولمح دورق الماء فى ركن من الحجرة فتقدم إليه بعد أن أحس طرآه بالعطش فلقاه فارغا فتميز غيظا وأخذ يلعن فى سره نجية التى تضع الدورق فارغا وتنام مع الغروب كما تنام الكتاكيت !

وكان قد أحس بالعطش الشديد لما قرب الليل أن ينتصف وساوره معه احساس الخوف والوحشة فجاز الغرفة إلى الباب ليبحث عن دورة المياه وسط هذا الظلام الكثيف المخيم على الردهة وضربت قدمه عفوا وهو سائر إناء نحاسيا فدوى صوت خاله عبد الله قصف الرعد فتسمر مكانه مذعوراً مدة طويلة وقد غاب رشده تماما . ثم عاد لنفسه تدريجيا فأحس بمركزه الحرج فتقدم خطوات لينة مرهفا سمعه فسمع غطيطا متعاليا ينبعث من غرفة خالها لشدة الصوت قريبة فتوقف عن السير فزاد الغطيط بشكل عجيب ! فأخذ يسائل نفسه « أيمكن أن يكون هذا الغطيط الشنيع لامرأة ؟ » .

ونسى عطشه واستراحت أعصابه لهذا الصوت الانسانى الجميل !! فتراجع إلى غرفته لينام على أنه أبقى بابه مفتوحا ليمتع أذنيه بالصوت وينام على نغماته .

ولما عاد عبد الله من الأزهر عصر يوم السبت إلى مسكنه وصفق على السلم يطلب المفتاح صاحت أم نجية .

« يابنت يا نجيه هاتى المفتاح لعبد الله أفندى .. فلما بصرت بعبد الله فى عـمـامـتـه الكبيـرة ولبـاسـه الشـرقى الجـمـيـل .. أكملت فى استغراب .. للشيخ عبد الله » .

فى القطار

اجتاز فناء المحطة الخارجى على عجل وصعد الدرج وهو يلهث ولما وصل إلى المشى استقبله الهواء بطراوته . وكان الوقت ظهراً والصيف فى صميمه والشمس مستعرة والهواء راكدا . وتقدم إلى داخل المحطة وهنا صدمته جموع زاخرة من الناس فى طريقها إلى الخارج وكان قد وصل فى الساعة التى وصل فيها قطار سريع أو قطر كثيرة - كما بدا له من فرط الزحام الشديد - وأخذ يدفع الناس وهم يتدفقون كالسيل إلى الخارج حتى ضايقه ذلك وأجهده ووجد أن الوقوف فى وجههم لا يقدم بقدر ما يؤخر . فمال إلى ركن يمسح عرقه المتصبب ويراقب الوجوه التى تمر عليه من كل لون وجنس وعليها التعب والضنى وأثر الحر الشديد . وهى تسير لاهثة مكدودة . وأشمأز من المنظر واستفظعه ، أجسام إليه تتحرك دون وعي ولا عقل لها ولا إدراك . فلو أن أمرا بالغاً ما بلغ من الضعف أخذ على هذه الجموع الحاشدة الطريق وردها على أعقابها لانقلبت على كثرتها توليه ظهرها مذعورة !! ورماها بالنظر الشزر وأخذ يقول لنفسه (فى أمثال هذه الجموع يظهر الغباء الإنسانى مجسما والفرد مهما يكن من الذكاء والفطنة ينقلب متى انخرط وألقى فى غمارها إلى أشد الناس غباء وحمقا) . وزاده حنقاً أن هذا السيل الجارف كان دائما يمده مطر الناس الغزير الهابط من العربات التى خيل إليه أنه لن ينقطع أبدا وهو واقف فى الركن حابساً نفسه ويود بجدع الأنف لو يصارع !! ويدير مع هذه الأناس الفارغة الرؤوس معركة حامية ولتكن العاقبة ما تكون فقد نفد ماعنده من صبر وروعه القلق . والواقع أنه كان يعمل حسابه للوقت فى هذه الساعة على الخصوص

ويعد كل دقيقة تنقضي فرصة طيبة تولي من حساب زمن سعادته ! فكيف به لو وقف دقائق خمساً مثلا هذا الموقف الشنيع . ناظرا إلى هذه الجموع الصماء الحمقاء ! كما صور له غيظه وحنقه في ذلك الوقت وهي تسير سير السلحفاة . بل بدا له انها لا تسير أبدا . وخفت وطأة الزحام قليلا فأسرع إلى الرصيف وعينه إلى الساعة التي توضح موعد تحرك القطار . فالفاها الثالثة فابتهج وحدث نفسه (أمامي متسع من الوقت إذن) وجاز عامل الباب إلى الرصيف وقد تصور أن الرجل يرميه بنظرة غير عادية فاغتاظ وامتعض ومشى على الرصيف وعينه إلى نوافذ القطار حتى تجاوزه كله إلى القاطرة ووقف عندها يرقبها وهي تزفر وتقذف الجو بدخانها وأخذ عينه اللهب وهو يضطرب في جوفها واستشعر الشفقة للسائق الذي يغذي النار . ولفحه اللهب بوهجه فتراجع ووضع يده في جيبه ومشى يذرع الرصيف في تراخ يستقبل من طريقه ما استدبر وقد استحوذ عليه القلق . وعينه تعد العروق الحديدية في سقف المحطة أو تحصي المصابيح الجانبية فيها . شأن المتبطل الذي يشغل ذهنه بشيء ما على أن عينه من وقت لآخر تستقر على باب الرصيف ترقب الداخلين في لهفة . ويصر بها عن بعد تسير عجلى فوجف قلبه ولما وقع نظرها عليه ابتسمت وأسرعت في مشيتها وأسرع هو وجاوب على ابتسامتها الساحرة بابتسامة – لا يمكن أن نقول عنها أنها ساحرة !!

* * *

وجلسا في العربة صامتين وهي ترفع وجهها إليه من وقت لآخر وكأنها تقول له بعينيها تكلم والواقع أنه ود منذ الوقت الذي احتواه فيه المقعد أن يتكلم وفعلا فكر في موضوع بعد أن تبين أن الصمت في مثل

هذا الوقت محير مربك ومخجل أيضاً ثم ما لبث أو وجد أن مجرد التفكير فى موضوع ما أمر مربك فى نفسه أيضاً فتذرع بالصمت وترك التفكير جانباً . وأدركت هى حاله فابتسمت وقالت بخبث :

– الدنيا حر .

فقال بحماسة : جدا .

فضحكت ضحكة مكتومة ثم قالت :

وهذا معطل لرأس « القصصى البارع » ومصدع أيضاً ..

فقال باسماً : هذا صحيح .

وأخذ يلعن صديقه « هلال » فى سره ويسبه ويود من كل قلبه أن ينتقل العرج المؤقت الذى حل برجله اليمنى إلى يده اليمنى ولو مدة أسبوع حتى لايروح بعدها يفرغ من رأسه الفارغ الألقاب الضخمة على الناس وسألها بعد برهة .

– متى العودة ؟

– بعد عامين !

– أجل .

وتكلفت الجهد وسألت وقد حولت وجهها إليه .

– تود العودة بعد ..

فقال بسرعة

بعد دقيقتين ..

فسرها هذا حتى بدا المرح على محياهاالجميل ، وطفقا يتحدثان حتى دق الجرس الأول منبهاً المودعين فقام ونزل إلى الرصيف وارتفعت هى على نافذة القطار ووقف هو محياها الضاحك ، وهو صامت لا يقول شيئا وإن كانت اللوعة المستكنة أخذت تطفر على الوجه حتى خاض البشر وحل محله الأسى المكبوت ورضخت هى للأمر الواقع واستسلمت لرجفات قلبها التى ازدادت بشكل عجيب تموج بالدمع وخافت أن يراها باكية جازعة فحولت وجهها ناحية تزجر عينها عن البكاء . ثم استقبلته بوجه باسم . ولما تحرك القطار مد يده إلى يدها البضة وأخذها بين يده وسار القطار فى سيره البطىء مدة ولما زادت سرعته ووجد أن لامناص من ترك يدها ضغط على يدها بعنف وأفلتها وكانت عينها قد أخذت برفق . ووقف على الرصيف يشايعها بنظره وعيناها لم تتحول عن عينيه وهى تبتسم أحلى ابتسام وألذه . واستمر فى وقفته وعينه إلى وجهها الذى أخذ يولى عنه تدريجيا ويصفر كلما زادت سرعة القطار . على أن العينين كانتا أبدا مستقرتان على عينيه وهما مشبعتان بالنور ومرق القطار كالسهم استوى على الخط طويل فغابت عن بصره .

وجلست تقس بيدها اليسرى يدها اليمنى وتلمس موضع أصابعه . وهى جذلة مرحة إلى أقصى حد . وأغلقت باب الديوان وراحت تستسلم للأحلام اللذيذة التى نشطت فى مخيلتها حتى غمر السرور وكبات كله . ولقد كانت منذ عامين تحاول كلما التقت به أن تعرف دخيلة نفسه ومبلغ عاطفته بيدأنه كان دائماً يغالط ويغير فى لبة مجرى الحديث حتى أشرف بها ذلك على اليأس المرير .

أما الآن فلقد فلتت إرادته القوية – وهى أبرز شىء فيه – من بين يديه ولم يستطع كبح جماح عاطفته فشد على يدها ضغطه ضغطه قوية

لا تصدر إلا من ... وكانت تلك الحركة خيرعندها ألف مرة من أن يقول لها تلك الكلمة العذبة . فكم تسمج الكلمة وترخص عندما يكثر مضغها في الأفواه ودورانها على الألسنة .

ورفعت يدها إلى شعرها الساقط على جيبنها ثم مدت يدها التى امسك بها صاحبها منذ دقائق وأخذت ترفعها بامعان وهى باسمة ووضعت يدها اليسرى عليها وشدت وهى تقول لنفسها فعل هكذا . لاهكذا .. ليس هكذا وإنما هكذا . ولكن يدى باردة ويده كانت ملتهبة .

وانتبهت من أحلامها على نقرات خفيفة على الباب الزجاجى وفتح الباب واطل الكمسارى منه وقال بصوته الذى تصورته جافا جدا .

- التذكرة ياسيدتى .

ففتحت حقيبتها فى غيظ وحيرة . واخرجت منها التذكرة ودفعتها إليه وغضت بصرها حتى بارحها الرجل . ولما اعادت التذكرة إلى مكانها فى الحقيبة نظرت إلى وجهها فى مرآتها الصغيرة فالفته يرف لونه رفيف الأقحوان وفى عينها بريق لم تألفه قبل ذلك فسوت شعرها وهى تقول لنفسها (يجب أن ابدوا منذ اليوم دائماً جميلة) .

وتنفست الصعداء ورمت بعينها إلى النافذة تستقبل بوجهها حياة جديدة .

دمعـــــــــة

استيقظ بعد أن أفجر النهار تعس النفس ضيق الصدر موزع الخاطر مشتت الذهن والواقع أنه شعر فى ليلته الماضية بغير ماكان يتوقع ويقدر . فما احتواه البحر حتى اكتنفته الوحشة واعتراه الملل وراح يرزخ تحت أعباء هذا وينوء بحمله الثقيل عليه حتى كانت ليلته ليلاء فما غمض له جفن ولا استقر به مضجع وطردت الوساوس عن ذهنه كل الصور الجميلة والأمانى العذبة التى طافت بمخيلته قبل أن يعد العدة للسفر ويأخذ أهبته للرحيل وحلت محلها أوهام جسمها له نوع من « الهستريا » استقر فى رأسه فى الشهرين الأخيرين واستحوذ عليه بشكل عجيب ! . حتى خشى مغبة هذا على نفسه فاستشار طبيباً يثق فيه فحبب له هذا السفر فنزل عند رغبته وسافر ! فلما أحس بما أحس به فى الليلة التى نفضت ورأى أن السفر انقلب نقمة لا نعمة لعن هذا الطبيب فى سره ألف مرة !! على أنه عزم على جلب السرور لنفسه بكل ما يملك من حول . فمشى وئيد الخطى إلى مقدم السفينة يستقبل شروق الشمس ويفتح صدره لهواء الصبح العليل . وكانت الطبيعة مازالت راقدة فى حضن الكرى وخيم سكون رهيب تجلت معه أروع المناظر وأبدع الرؤى .

وما عتم بعد ساعات من هذا أن حن للطبيعة وجنح إلى العزلة بحكم ميوله ورغباته والتذ لهذا ووجد أن الهم أخذ ينزاح عن قلبه وأن العافية بدت تسرى إلى جسمه وتدب فى عظامه . وكان إذا صفت نفسه وطابت يجلس على مقعد خشبى يقع فى ركن منعزل فى الجزء الأمامى من السفينة . ويأخذ فى ترتيل القرآن بصوت شجى مؤثر وهو خاشع

سادر . وهنا يشعر بإحساس روحي جارف يغمر قلبه ويفيض على نفسه فيمعن فى القراءة حتى يغيب بكليته عن الوجود .

* * *

كانت « مارلين » تستشعر فى كل آونة تسمع فيها هذا الصوت الشجى الساحر الهافى إليها من نافذة غرفتها - وكانت أول غرفة فى الجناح الأيمن - بإحساس لذيذ يتملك فؤادها ويستحوذ على كيانها حتى كانت من فرط السرور تضع أذنها ملاصقة للنافذة علها تزداد من الصوت قربا . واستمرت تسمع هذا الصوت ثلاثة أيام متتالية فى وقت معين حتى كان صباح أحست فيه أن الصوت بلغ من الرقة والعذوبة مبلغاً لامزيد بعده . فتسمعت وقد اضطرب جسمها واهتز واشتدت ضربات قلبها وتدافعت وتملكها احساس غامض وشعرت نحو الصوت بحنين بالغ لم تقو معه على البقاء فى غرفتها فمشت إلى الباب وجذبت مصراعه بيد راعشة واجتازت المر الصغير إلى ممشى السفينة الجانبى وهناك أرهفت سمعها بعد أن حبست أنفاسها فألفت الصوت آتيا من الأمام فتقدمت قليلا ثم جفلت وتراجعت . وهنا ارتفع الصوت وازداد حلاوة . فجمدت فى مكانها . ماهذا ؟ هذا الصوت الساحر يناديها ! أجل هذا الذى نفذ إلى شغاف قلبها وحرك كل جارحة فى جسمها وأرسل الدمع من عينها لابد أنه يناديها ! ومشت مسلوبة الإرادة سادرة البصر إلى الأمام وكان الصوت قد خفت ولكنه تنغم وازداد سحراً . ورمت بصرها فألفت إنسانا يجلس فى ركن منعزل على مقعد طويل فوقفت دقيقة تحرن ثم مالت على مقعد آخر وجلست بالقرب منه وكان وجهه إلى البحر فلم يحس بها .

وانطلق هو يرتل فى صوت خافت .

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين يزودان قال ماخطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاة وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب أنى لما أنزلت إلى من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت .. » .

وجلست تسائل نفسها :

« ما الذى يتغنى به ؟ ما الذى يقوله ؟ بأى لغة يتكلم ؟ »

وقامت وتقدمت نحوه إلى أن وقفت أمامه . فألفته شابا فى مقتبل العمر يضرب لونه إلى السمرة ويميل جسمه إلى النحافة . وملامحه بعد ذلك عادية وليس فيه مايبعث على استلفات النظر غير شعره الجثل الطويل الذى أرسل على غير نظام .

وحاولت الكلام فجف ريقها ووقفت الكلمات فى حلقها . وكان هو قد أخذها بنظره ثم غضه وأطرق . وتابع قراءته حتى فرغ من الآية .

وتشجعت قليلا بعد أن صمتت وقالت بالإنجليزية فى صوت خافت مرتعش .

« ما الذى تغنيه ؟ »

فرمقها بعينه وقد أربد وجهه واضطرم وقالت لها عيناه .

« دعينى وحيداً » .

فلم يخذلها هذا وكررت .

« ما الذى تغنيه ؟ »

وظهر على وجهه عند هذا الإستياء والضجر فقد كان شديد المقت

للمرأة وقال لنفسه – أى شيطان رماك ؟ إليك عنى – ورفع وجهه إليها ثانية وتقرس فيها فرأى الطهر يطل من عينيها ويطفح بلون الأرجوان على خديها . فأجاب بصوت خافت .

« ما كنت أغنى وإنما أرتل القرآن »

« القرآن ! » .

ومدت الألف ونغمت النون .

« أجل » .

« أعربى أنت ؟ »

« أجل » .

« ولكن صوتك جميل للغاية »

« ذلك لأنى أتلو كلام الله »

« كلام الله ! »

« أى نعم »

« أممتع هو جدا ؟ »

« إلى الحد الذى لا يدركه العقل البشرى »

« أيمكنك أن تترجم لى شيئاً ؟ »

« قليلا من المعنى »

وانطلق يقص عليها جزءاً كبيراً من سورة القصص وهى مأخوذة بحلاوة الحديث فائضة البشر طلقة المحيا . ثم قالت فى صوت عذب .

« أصعب تعلم العربية ؟ »

« أبداً . سهل جداً »

« أيمكنك أن تعلمنى شيئاً منها ؟ »

« أقبل هذا عن طيب خاطر . ولكنا سنفترق بعد يومين .. ! »

« لنبدأ فيهما وسأستكمل الباقى بنفسى »

ومضى يوم كامل وهما أحسن أصدقاء ثم أطل عليهما الدردنيل بشامخاته .

* * *

ولاحت الأستانة فى الأصيل بمآذنها وقبابها ومساجدها وقصورها وهى قائمة على سط الماء كعرائسه ضاحكة مستبشرة . وقد تغشى الأفق سحاب خفيف تلتقى به الشمس أو تهوى به الريح . وحلقت عصائب الطير تحىّ الركب فى إيناس ! وخفت سرعة الباخرة لما خرجت من الميناء ثم ألقت مرساها حتى يجىء الربان التركى . وأفلت الشمس وخيم على الوجود صمت عميق .

وصعد ، وهى تتبعه ، درج السفينة الخشبى حتى وصلا الظهر فوقفا فى المشى الأمامى ، وكان خالياً وارتفقا على الحاجز وصوبا عينيهما إلى البوسفور وكان قد أشرف برياضه وقصوره ووقفا سادرين مشدوهين من فرط الروعة المحيطة والجمال الشامل .

ودوى صوت قوى قطع هذا الصمت العميق .

الله أكبر الله أكبر

فحملقت فيه وكان غارقا عنها ذاهلا عن وجودها وحاولت أن تجره إلى الكلام بيد أنها رأت أن ماغشيه كان أعمق وأبلغ فصمتت . وكانت يدها على مدى ذراع منه فحركتها وهى ترجف حتى قربت من يده قليلا . ووجف قلبها فارتعدت مفاصلها من فرط الرهبة الشاملة .

ووصل المؤذن عند :

أشهد أن محمدا رسول الله

فجال فى عينيها الدمع وتحدر وقربت يدها من يده حتى لامستها وظلت على هذا دقيقة كاملة نسيت فيها الوجود كله . وانتفض هو من حركة يدها وأبعدها عنه برفق .

ولما فرغ المؤذن من أذان المغرب نظرت إليه بعين دامعة وقالت :

« ما الذى قاله ؟ »

« يؤذن بالصلاة ... »

وسأل وقد حول وجهه إليها .

« ألا تعرفين شيئاً عن الإسلام ؟ »

« طبعا لا ... ولكنى بدأت أعلم القليل ... وبدأت أحب الإسلام ...»
وكانت تود أن تضيف « وأحبك أنت أيضاً على أنها لم تجسر على هذا »

وقالت بعد فترة تقضت .

« سأستأذن من أمى وأخى . وأهبط معك إلى أجمل المدائن فى الشرق » .

فأجابها باسماً « أقبل هذا بصدر رحب »

وعادت بعد مدة لابسة ثوبا داكنا تبدو عليه الحشمة والبساطة معاً . وابتدرته قائلة :

« ألا تود أن تغير حلتك ؟ ألا تنوى النزول إلى المدينة الآن ؟ »

« لا أود النزول الآن . وإنما بعد أن يهبط الناس وتفرغ السفينة »

« ألا تحب الناس ؟ .. أتتضايق منهم ؟ »

« أجل »

« وربما ستتضايق منى أيضاً ! »

وأمعنت البصر فيه مستفسرة . بيد أنه صمت ولم يقل شيئاً ، وآلمها هذا كثيراً .

* * *

وقامت من فراشها مبكرة جداً ومشت مرحة نشطة إلى غرفته وقرعتها قرعاً خفيفاً فلم يجاوبها أحد ، فانقلبت تدق الباب بشدة وقد تمشى فى مفاصلها الخوف واستولى عليها القلق . وسمعتها الوصيف فسعت إليها وقالت بلطف .

« السيد خرج »

« إلى أين ... ؟ إلى البهو الكبير ؟ »

« لا أدرى ! »

فجرت وهى تلهث إلى المكان الذى اعتاد الجلوس فيه فلم تجده وكرت راجعة تهرول كالمخبولة وجازت البهو بسرعة . ثم صعدت إلى السطح فالفته يجلس فى ركن منزو ويرتل فى صوت خافت .

ولما فرغ من القراءة استقبلها بوجهه وأشار إليها بأن تجلس ففعلت .

وقالت :

« لماذا غيرت مكان قراءتك ؟ .. ألا تود أن أسمع صوتك ؟ »

فصمت ثم نظر إليها فى عطف وقال .

« ألا ترغبين فى درس الآن قبل أن نزور أياصوفيا ؟ »

فأجابت وقد لمعت عيونها .

« ما أحلى هذا عندى ».

* * *

وركبا الترام إلى أياصوفيا وكانت الشمس قد ارتفعت وغمر نورها البسيطة . واجتاز الترام كبرى « غلطه » ثم دار فى عرجات وممرات ملتوية حتى استوى عند سور عال . وهنا صعد طريقاً منحدراً حتى وقف عند ميدان فسيح فنزلا وجازاه إلى المسجد .

ودخلا المسجد خاشعين ضارعين ، ولما توسطاه اتجه إلى القبلة وصلى ركعتين .

ووقفت هى ترقبه فى إكبار وإعظام . وبصرت عند القبلة باسم الله ورسوله

الله محمد .

وسجد فسجدت .

ولما فرغ من السجود فرغت ومدت يدها إليه وعينها مخضلة بالدمع فشد عليها فى عنف

* * *

وبعد شهر من هذا كان شاب وفتاة يدلفان إلى محطة بودابست وقد احتقب الشاب حقيبة صغيرة ووضع على ذراعه معطفاً للسفر ! ومشى إلى لوحة مواعيد سفر القطر الحديدية ووقف عندها يتأمل :

وقالت الفتاة

« أود لو تسافر فى آخر قطار يقوم الليلة إلى بخارست »

« سأفعل هذا »

« لدينا إذاً أكثر من ثلاث ساعات نقضيها معاً »

وصمتت لحظة ثم أردفت

« هيا إلى الدانوب »

«الآن »

« أجل »

ووقفا على « الكوبرى » صامتين وعيناهما إلى ماء الدانوب الأزرق الجميل . ثم حولت وجهها إليه وقالت بصوت موسيقى فاتن .

« رتل بعض آيات من القرآن »

« هنا ؟ »

« أجل : أرجوك ! »

فصمت برهة ثم قرأ

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

وسألت

« متى أفهم معنى هذا الكلام ! »

« بعد عام »

« إذن فسأصبر عاماً ؟ »

« أجل »

« ستذكرنى ؟ »

« دائما »

« وستكتب إلى »

« كل يوم رسالة »

فأستضحكت

« كل يوم ! إذاً فلتكن بلغة القرآن »

« أتحبينه ؟ »

« أكثر من كل شيء »

فأخرج من جيبه مصحفاً مذهباً صغيراً وقدمه إليها

« ليكن هذا كتذكار خالد »

« سأضعه دائما عند قلبى »

فأطرق يغالب انفعالا شديداً ...

* * *

ولما قربا من المحطة تخاذلت واشتدت ضربات قلبها وغشى عينيها مثل الضباب وبدا لها أن تتحامل على كتفه أو تستعين بساعده بيد أن إرادة قوية صرفتها عن هذا . ووضعت يدها على المصحف فشعرت بقوة غريبة فتماسكت واشتدت .

ولما تحرك القطار مد يده إليها وقال

لا إله إلا الله محمد رسول الله

وشيعت القطار بعينيها حتى طواه الليل في جوفه ثم مشت متثاقلة تهيم على وجهها في الطرقات وهي شاردة ساهمة حتى ألفت نفسها في المكان الذي كانت فيه منذ ساعة . ووقفت حيث وقف ووضعت يدها حيث وضع يده ثم اخرجت المصحف وقبلته واهتز جسمها عند هذا وأرجف . وندت عن عينها دمعة صافية امتزجت بماء الدانوب الأزرق الجميل ..

فهارس

مجموعات قصص / محمود البدوى

(١) الرحيل رواية قصيرة	١٩٣٥	المطبعة الرحمانية بالخرنفش بالقاهرة
(٢) رجل	١٩٣٦	المطبعة الرحمانية بالخرنفش بالقاهرة
١ - رجل		
٢- الأعمى		
٣ - النجم البعيد		
٤ - فى الظلام		
(٣) فندق الدانوب	١٩٤١	مطبعة النهار بالقاهرة (الطبعة
١- فندق الدانوب		الأولى ١٩٤١)
٢ - سائق القطار		مكتبة مصر ومطبعتها (الطبعة
٣ - ليلة فى الحان		الثانية ١٩٤٥)
٤ - صوت الدم		
٥ - طريق الفناء		
٦ - الزوجة المصونة		
٧ - الحب الأول		
٨ - من أيام الصبا		
٩ - بعد العرس		
١٠ - امرأة أحلامى		
١١ - سكون العاصفة		
(٤) الذئاب الجائعة	١٩٤٤	مكتبة مصر ومطبعتها طبعة أولى ١٩٤٤
١ - الذئاب الجائعة		طبعة ثانية الكتاب الذهبى ١٩٥٤

٢ – ساعات الهول	١٩٤٤	طبعة ثالثة الكتاب الذهبى
٣ – النفوس المعذبة		١٩٦١ الدار القومية للطباعة
٤ – رجل مريض		والنشر
٥ – فى القرية		
٦ – حياة رجل		
٧ – قلب عذراء		
٨ – فى القطار		
٩ – رجل		
١٠ – النجم البعيد		
١١ – الأعمى		
١٢ – فى الظلام		
١٣ – الدراجة		
(٥) العربة الأخيرة	١٩٤٨	مكتبة مصر ومطبعتها طبعة
١ – العربة الأخيرة		أولى ١٩٤٨
٢ – رجل على الطريق		طبعة ثانية ١٩٦٠ الكتاب الذهبى
٣ – الشيخ عمران		مكتبة الأسرة ١٩٩٩ طبعة ثالثة
٤ – زهور ذابلة		
٥ – البواب الأعرج		
٦ – نساء فى الطريق		

٧ – هاجر
٨ – الجواد الجريح
٩ – ليلة لن أنساها
١٠ – الدرس الأول
١١ – جسد وفنان
١٢ – الملهمة
١٣ – روح الفنان
١٤ – حارس القرية

(٦) حدث ذات ليلة — ١٩٥٣ — دار مصر للطباعة طبعة أولى ١٩٥٣ الكتاب الماسى الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ طبعة ثانية

١– اللهب الأحمر
٢ – بنسيون منيرفا
٣ – المعجزة
٤ – ليلة رهيبة
٥ – حلاق للسيدات
٦ – طبيب المركز
٧ – بيت الأشجان
٨ – الزوجة العصرية
٩ – صالح للعمل
١٠ – عندما نحب النساء
١١ – فى منزل المقامر

١٢ – سارق النساء

١٣ – حدث ذات ليلة

١٤ – المايسترو

(٧) العذراء والليل	١٩٥٦	كتب للجميع ١٩٥٦ طبعة أولى
١ – ليلة فى بوخارست		كتاب الهلال طبعة ثانية ١٩٧٥
٢ – حارس المحطة		مكتبة الأسرة ١٩٩٦

٣ – النار

٤ – صراع مع الشر

٥ – فاعل خير

٦ – العذراء والليل

٧ – شكوى إلى السماء

٨ – دار لنج

٩ – العزبة الجديدة

١٠ – ذكريات من الدانوب

١١ – سوق السبت

١٢ – السفينة

١٣ – الغريق

١٤ – الخنزير

١٥ – دروس خصوصية

١٦ – صرخة فى الليل

١٧- لا تباع

١٨ - رسالة من الميدان

١٩ - ليلة فى الصحراء

٢٠ - أفيون

٢١ - الباشمهندس

(٨) الأعرج فى الميناء	١٩٥٨	الكتاب الفضى طبعة أولى
١ - الأعرج فى الميناء		١٩٥٨
٢ - ذراع البحار		الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ - سيدة وحيدة		١٩٧٦

٤ - الكهربائى

٥ - الصورة الناقصة

٦ - الحاجز

٧ - الزلزال

٨ - الثعبان

٩ - الخيط

١٠ - الشعلة

١١ - العودة إلى البيت

١٢ - مكتبة فى الممر

١٣ - الطاحونة

١٤ - الدوامة

١٥ – حانة المحطة

١٦ – النساء

١٧ – التنين

(٩) الزلة الأولى ١٩٥٩ الكتاب الذهبى ١٩٥٩

١ – الليل والرجل

٢ – الآخرون

٣ – ليلة فى بومباى

٤ – المعجزات السبع

٥ – فراغ

٦ – الأمواج

٧ – الذئب

٨ – الباب الزجاجى

٩ – الرفيق

١٠ – فندق البحر

١١ – مجموعة الطوابع

١٢ – الغول

١٣ – العاصفة

١٤ – الزلة الأولى

١٥ – الليل والوحش

١٦ – الحقيبة

١٧ – الماس

١٨ – الرجل الأشول

١٩ – العربون

٢٠ – صراع

٢١ – الورقة

(١٠) غرفة على السطح ١٩٦٠ الكتاب الذهبى .

١ – امرأة فى الجانب الآخر

٢ – ساعة المحطة

٣ – الرماد المشتعل

٤ – جسر الحياة

٥ – المنارة

٦ – الوجه الصامت

٧ – عند البحيرة

٨ – غرفة على السطح

٩ – المجداف

١٠ – التفاحة

١١ – المصباح

١٢ – جذوة فى الرماد

(١١) حارس البستان ١٩٦٠ الكتاب الماسى الدار القومية للطباعة والنشر

١ – هذه هى الحياة

٢٢ – اللؤلؤة

(١٢) زوجة الصياد	١٩٦١	الكتاب الماسى الدار القومية للطباعة والنشر

١ – زوجة الصياد

٢ – قطار الساعة ٨

٣ – الأفيال

٤ – المفتش العام

٥ – تيفود

٦ – جريمة

٧ – الجياد الشهباء

٨ – دروس فى الفلسفة

٩ – الأحدب

١٠ – وحوش

١١ – عابر سبيل

١٢ – وجه الشمس

١٣ – الأرقام الناطقة

١٤ – السكين

١٥ – لجنة الشباك

١٦ – القنطرة

١٧ – فندق على الدرب

١٨ – فى القفص

(١٣) ليلة فى الطريق	١٩٦٢	الكتاب الذهبى

١ – الذهب

٢ – الزورق

٣ – امرأة فى الظل

٤ – الرجل الأعزب

٥ – الرماد

٦ – ليلة فى الطريق

٧ – تحت الأمطار

٨ – ألحان راقصة

٩ – الزهور

١٠ – الطلقة الأخيرة

١١ – الطوق

١٢ – فى البرية

١٣ – اللؤلؤ

١٤ – نور فى المحطة

١٥ – التنين

١٦ – العرجاء

١٧ – قصة فتاة

(١٤) الجمال الحزين	١٩٦٢	الكتاب الماسى الدار القومية للطباعة والنشر

١ – اكسير الحياة

(١٥) عذراء ووحش ١٩٦٣ الكتاب الذهبى

١ – السلسلة

٢ – الشيطان

٣ – العذراء والوحش

٤ – خياطة للسيدات

٥ – السيجارة

٦ – الشيخ تمام

٧ – الجوهرة

٨ – الأخرس

٩ – النافذة

١٠ – رجل فى القطار

١١ – الرجل الشريف

١٢ – البخيل والعروس

١٣ – تذكار

١٤ – ليلة فى العربة

١٥ – الركشا

١٦ – الدليل

١٧ – فتاة من جنزا

١٨ – حانة البحار السبعة

(١٦) مساء الخميس 1966 الكتـاب الماسى الدار القـومـيـة للطباعة والنشر

١ – وقفة على الدرب
٢ – سوق الأحد
٣ – مساء الخميس
٤ – صقر الصحراء
٥ – السائق
٦ – خيط من النور
٧ – حقل البطيخ
٨ – صقر البحار
٩ – الأصابع العارية
١٠ – البائع الجوال
١١ – الوحش
١٢ – درس
١٣ – الجوع
١٤ – النجوم
١٥ – بداية طيبة
١٦ – المظلة اليابانية
١٧ – حبات من الزمرد
١٨ – القفل
١٩ – الياقوت

٢٠ - الوسيط

٢١ - الخبير

(١٧) صقر الليل ١٩٧١ كتاب اليوم (مؤسسة أخبار اليوم)

١ - صقر الليل

٢ - ليلة العاصفة

٣ - الخفير

٤ - التمثال

٥ - فى الليل وحدى

٦ - سونيا الجميلة

٧ - الجواد والفارس

٨ - الأصبع التى تشير

٩ - فى المتجر

١٠ - ليلة فى شنغهاى

١١ - الأصلع

١٢ - وقفة فى الضوء

١٣ - الإعلان

١٤ - رحلة إلى بحر الزمرد

١٥ - الظل

١٦ - الجريح

١٧ - على النهر

(١٨) السفينة الذهبية ١٩٧١ دار الشعب

١ – البرج

٢ – العطر

٣ – المثالة

٤ – الخيط الذى فى السماء

٥ – السفينة الذهبية

٦ – الصياد

٧ – وقفة فى جنزا

٨ – الثلاثة

٩ – المظروف

١٠ – الطبيب

١١ – اللهب

١٢ – البرتو

١٣ – القاتل

١٤ – زائر الليل

١٥ – الدكان

١٦ – الحلم

١٧ – الراقصة

(١٩) الباب الآخر ١٩٧٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب

١ – الخطوط الثلاثة

٢ – الشبابيك
٣ – النداء الصامت
٤ – لم يفعل شيئا
٥ – الجبار
٦ – الصمت
٧ – حدث فى الظلام
٨ – انفجار
٩ – الرنين
١٠ – الباب الآخر
١١ – المسافرة
١٢ – الهوان
١٣ – الصقر
١٤ – الجائزة
١٥ – الرسام الجوال
١٦ – السباك
١٧ – علاقة انسانية

(٢٠) صورة فى الجدار ١٩٨٠ مكتبة غريب (دار غريب للطباعة بالقاهرة)

١ – صورة فى الجدار
٢ – القطار الأزرق
٣ – الأسرار

٤ – الزورق		
٥ – صوت البحر		
(٢١) الظرف المغلق	١٩٨٠	مكتبة غريب (دار غريب للطباعة بالقاهرة)
١ – الظرف المغلق		
٢ – الشجاع		
٣ – الحارس		
٤ – بائع العطور		
٥ – الورقة المطوية		
٦ – السن الذهبية		
٧ – طلقة فى الظلام		
٨ – الغجرى		
(٢٢) السكاكين	١٩٨٣	دار غريب للطباعة والنشر بالقاهرة
١ – السكاكين		
٢ – عضة كلب		
٣ – الساعاتى		
٤ – المهاجر		
٥ – الفقير		
(٢٣) عودة الابن الضال	١٩٩٣	دار الشعب
١ – الحارس		
٢ – الابن الضال		

٣ – صوت البحر
٤ – المفتاح
٥ – طلقة فى الظلام
٦ – القطار الأزرق
٧ – السن الذهبية
٨ – الورقة البيضاء
٩ – الكمنجة
١٠ – الرسالة
١١ – الرجل الصامت
١٢ – الغزال
١٣ – الجعران
١٤ – سأصنع له تمثالا
١٥ – القطار الانسيابى

(٢٤) مدينة الأحلام ١٩٦٣ الدار القومية للطباعة والنشر
« من أدب الرحلات »

فهارس

بأسماء القصص المنشورة بالصحف والمجلات

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
دمعة	م . صوت الاسلام	٧	١٩٣٥/٨/١١	
عبد الرحمن القس	» » »	٨	١٩٣٥/٨/١٨	
فى القطار	» » »	١٠	١٩٣٥/٩/١	
الأم « غير كاملة »	» » »	١٥	١٩٣٥/١٠/٧	
الشيخ عبد الله	» » »	٢٦و٢٧	١٩٣٦/١/٢٢	
الأعمى	م . الرسالة	١٥٦	١٩٣٦/٦/٢٩	الذئاب الجائعة
الأعمى	م . الرسالة	١٥٧	١٩٣٦/٧/٦	الذئاب الجائعة
سائق القطار	م . الرسالة	١٧٨	١٩٣٦/١١/٣٠	فندق الدانوب
الحب الأول	م . العروسة	٦٥٤	١٩٣٨/٢/٢	فندق الدانوب
طريق الفناء	م . العصور	١	١٩٣٨/١١/١٩	فندق الدانوب
بعد العرس	م . العصور	٢	١٩٣٨/١٢/٩	فندق الدانوب
من أيام الصبا	م . الرسالة	٣٩٢	١٩٤١/١/٦	فندق الدانوب
فندق الدانوب	م . الرسالة	٣٩٨	١٩٤١/٢/١٧	فندق الدانوب
سكون العاصفة	م . الرسالة	٤٠٣	١٩٤١/٣/٢٤	فندق الدانوب
زهور ذابلة	م . كليوباترا	٤	١٩٤١/٩/١٦	العربة الأخيرة
الشيخ عمران	ص أخبار اليوم	١٠٩	١٩٤٦/١٢/٧	العربة الأخيرة
العربة الأخيرة	السوادى	٦٩	١٩٤٨/١/١٩	العربة الأخيرة
روح الفنان	دنيا الفن	٦٩	١٩٤٨/١/٢٠	العربة الأخيرة
الجواد الجريح	السوادى	٧١	١٩٤٨/٢/٢	العربة الأخيرة

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
جسد وفنان	السوادى	٧٣	١٩٤٨/٢/١٦	العربة الأخيرة
طبيب المركز	آخر ساعة	٧٩٤	١٩٥٠/١/١١	حدث ذات ليلة
حارس المحطة	م . القصة	١٢	١٩٥٠/٣/١٠	العذراء والليل
بيت الأشجان	ص . الزمان		١٩٥٠/٥/٣٠	حدث ذات ليلة
صالح العمل	ص . الزمان		١٩٥٠/٧/١١	حدث ذات ليلة
سميرة هانم	قصص للجميع	٩	يونيو ١٩٥٠	
حلاق للسيدات	ص . الزمان		١٩٥٠/٧/١٨	حدث ذات ليلة
الزوجة العصرية	ص . الزمان		١٩٥٠/٧/٢٥	حدث ذات ليلة
المصارع	قصص للجميع	١٠	يوليه ١٩٥٠	
ليلة رهيبه	ص . الزمان		١٩٥٠/٨/١	حدث ذات ليلة
المعجزه	ص . الزمان		١٩٥٠/٨/٨	حدث ذات ليلة
بنسيون منيرفا	ص . الزمان		١٩٥٠/٨/١٥	حدث ذات ليلة
عندما تحب النساء	ص . الزمان		١٩٥٠/٨/٢٩	حدث ذات ليلة
اللهب الأحمر١ ،٢	ص . الزمان		٢٢و١٩٥٠/٨/٢٣	حدث ذات ليلة
فى منزل المقامر	ص . الزمان		١٩٥٠/٩/٥	حدث ذات ليلة
شيخ العزبة	ص . الزمان		١٩٥٠/٩/٢٦	حدث ذات ليلة
فى المزاد	ص . الزمان		١٩٥٠/١٠/٣	حدث ذات ليلة
ذكريات	ص . الزمان		١٩٥٠/١٠/٢٤	حدث ذات ليلة
تيفود	ص . الزمان		١٩٥٠/١٠/٣١	زوجة الصياد

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
ساعات الهول	م . القصة		١٩٥٠/١١/٥	الذئاب الجائعة
رجل مريض	ص . الزمان		١٩٥٠/١١/٧	الذئاب الجائعة
حدث ذات ليلة	قصص للجميع		١٩٥٠/١١/١٤	حدث ذات ليلة
قلب عذراء	ص . الزمان		١٤و١٥و١٦	
			و١٧و١٩و٢١	
			و١٩٥٠/١١/٢٢	الذئاب الجائعة
النفوس المعذبة	ص . الزمان		١٩٥٠/١١/٢٨	الذئاب الجائعة
فى الظلام	ص . الزمان		١٩٥٠/١٢/٥	الذئاب الجائعة
الجواد الجريح	ص . الزمان		١٩٥٠/١٢/١٢	العربة الأخيرة
فى القطار	ص . الزمان		١٩٥٠/١٢/١٩	
			و١٩٥٠/١٢/٢١	الذئاب الجائعة
حياة رجل	ص . الزمان		٢٧و١٩٥٠/١٢/٢٨	الذئاب الجائعة
الملهمة	ص . الزمان		١٩٥١/١/٢	العربة الأخيرة
سارق النساء	ص . الزمان		١٩٥٠/١/١٦	حدث ذات ليلة
فاعل خير	ص . الزمان		١٩٥١/١/٢٠	
فى عيادة الطبيب	ص . الزمان		١٩٥١/١/٢٣	
عراك فى الصميم	ص . الزمان		١٩٥١/٣/٢٧	
غرفة للايجار	م . القصة ٣٨		١٩٥١/٤/٢٠	
ليلة رهيبة	م . الأديب البروتية			
	جـ٤ السنة ١١		١٩٥٢/٤/١	حدث ذات ليلة

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
ذات ليلة	النداء		١٩٥٢/٧/٨	حدث ذات ليلة
المعجزة	م . الأديب جـ٤			
	السنة ١١		١٩٥٢/٨/١	حدث ذات ليلة
شيخ العزبة	م . الأديب جـ١٢			
	السنة ١١		١٩٥٢/١٢/١	
بائعة الزهور	م . القصة	٨٠	١٩٥٣/١/٢٠	
الرجل الضائع	م . الأديب جـ٤			
	السنة ١٣		أبريل ١٩٥٤	
جهة الاختصاص	ص . الجمهورية	١٨٨	١٩٥٤/٦/١٥	
لجنة الشباك	ص . الجمهورية	٢٠٢	١٩٥٤/٦/٢٩	زوجة الصياد
الرماد المشتعل	ص . الجمهورية	٢٣٠	١٩٥٤/٧/٢٧	غرفة على السطوح
دروس خصوصية	م . الرسالة الجديدة	٥	١٩٥٤/٨/١	العذراء والليل
الباشمهندس	ص . الجمهورية		١٩٥٤/٨/٢٢	العذراء والليل
قطار الليل	م . الجيل الجديد	١٤١	١٩٥٤/٩/٦	العذراء والليل
(العذراء والليل)				
سوق السبت	م . الثورة	١١	١٩٥٤/٩/٩	العذراء والليل
(زكى بك)				
حمدى بك	ص . الجمهورية	٢٨٣	١٩٥٤/٩/٢٠	حارس البستان
ذات ليلة	م . القصة	١٢٠	١٩٥٤/٩/٢٠	حدث ذات ليلة

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
ليلة فى بوخارست	م . الجيل الجديدة	١٤٥	١٩٥٤/١٠/٤	العذراء والليل
دروس فى الفلسفة	ص . الجمهورية	٢٩٧	١٩٥٤/١٠/٤	زوجة الصياد
مـــــدام ايزابيل (خياطة للسيدات)	م . الجيل الجديدة	١٤٧	١٩٥٤/١٠/١٨	عذراء ووحش
النار	ص . الجمهورية	٣٠٧	١٩٥٤/١٠/١٤	العذراء والليل
السفينة	م . الجيل الجديد	١٤٩	١٩٥٤/١١/١	العذراء والليل
المعجزات السبع	ص . الجمهورية	٣٣٥	١٩٥٤/١١/١١	العذراء والليل
العزبة الجديدة	م . الجيل الجديد	١٥٢	١٩٥٤/١١/٢٢	الجمال الجزين
الفريق	ص . الجمهورية	٣٥٣	١٩٥٤/١١/٢٩	العذراء والليل
الجمال الحزين	م . الجيل الجديد	١٥٤	١٩٥٤/١٢/٦	الجمال الحزين
المصراع الأيسر	م . الجيل الجديد	١٥٦	١٩٥٤/١٢/٢٠	العذراء والليل
حفلة زفاف	م . الجيل	١٥٩	١٩٥٥/١/١٠	الجمال الحزين
عالم الأسرار	ص . الجمهورية	٣٩٧	١٩٥٥/١/١٢	الجمال الحزين
الرجل الشريف	م . الجيل	١٦١	١٩٥٥/١/٢٤	عذراء ووحش
مكتبة فى الممر	ص . الجمهورية	٤٢١	١٩٥٥/٢/٥	الأعرج فى الميناء
الزلة الكبرى	م . الجيل	١٦٤	١٩٥٥/٢/١٤	الزلة الأولى
الليل والرجل	م . الجيل	١٦٥	١٩٥٥/٢/١٤	الزلة الأولى
حوار من الشرق	م . الجيل	١٦٨	١٩٥٥/٢/٢١	
النساء	ص . الجمهورية	٤٦٩	١٩٥٥/٣/٢٥	الأعرج فى الميناء

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
العودة إلى البيت	م . الجيل	١٧١	١٩٥٥/٤/٤	الأعرج فى الميناء
البطل	ص . الجمهورية	٤٨٣	١٩٥٥/٤/٨	
حارس البستان	ص . الجمهورية	٤٩١	١٩٥٥/٤/١٦	حارس البستان
الحاجز	م . الجيل	١٧٣	١٩٥٥/٤/١٨	الأعرج فى الميناء
فتاة من القرية	م . الجيل	١٧٥	١٩٥٥/٥/٢	
ليلة فى الصحراء	م . الجيل	١٧٨	١٩٥٥/٥/٢٣	
المرأة التى أحببتها	م . الجيل	١٧٩	١٩٥٥/٥/٣٠	
الكهربائى	ص . الجمهورية	٥٣٦	١٩٥٥/٦/٣	الأعرج فى الميناء
أفيون	ص . الجمهورية	٥٤٩	١٩٥٥/٦/١٦	عذراء الليل
حانة المحطة	م . الجيل	١٨٣	٢٧ يونيه ١٩٥٥	الأعرج فى الميناء
(دعوة إلى عرس) دعوة إلى زفاف	م . الجيل	١٨٥	١٩٥٥/٧/١١	الجمال الحزين
العريون	م . الجيل	١٨٧	١٩٥٥/٧/٢٥	الزلة الأولى
الأعرج فى الميناء	م . الجيل	١٨٩	١٩٥٥/٨/٨	الأعرج فى الميناء
حب فى القرية	م . الجيل	١٩٢	١٩٥٥/٨/٢٩	الأعرج فى الميناء
الطاحونة	م . الجيل	١٩٥	١٩٥٥/٩/١٩	الأعرج فى الميناء
هكذا الحياة	م . الجيل	١٩٨	١٩٥٥/١٠/١٠	
ساكن البحر(نزاع البحار)	م . الجيل	٢٠٠	١٩٥٥/١٠/٢٤	الأعرج فى الميناء

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الخيط	م . الجيل	٢٠٤	١٩٥٥/١١/٢١	الأعرج فى الميناء
الزلزال	م . الجيل	٢٠٨	١٩٥٥/١٢/١٩	الأعرج فى الميناء
الدوامه	م . الجيل		١٩٥٦/١/٢٣	الأعرج فى الميناء
الثعبان	ص الأهرام	٢٥٢٥٩	١٩٥٦/١/٢٦	الأعرج فى الميناء
المفتش العام	ص الأهرام	٢٥٣٠١	١٩٥٦/٣/٨	زوجة الصياد
حادث فى القرية	م . الجيل		١٩٥٦/٣/١٢	
أكسير الحياة	ص الأهرام	٢٥٣١٠	١٩٥٦/٣/١٧	الجمال الحزين
فى الليل	ص الأهرام	٢٥٣١٧	١٩٥٦/٣/٢٤	الجمال الحزين
وحوش	م . الرسالة الجديدة	٢٥	١٩٥٦/٤/١	
بداية طيبة	م . الجيل	٢٢٦	١٩٥٦/٤/٢٣	مساء الخميس
ساعة المحطة	م . الجيل	٢٢٧	١٩٥٦/٤/٣٠	غرفة على السطح
صراع	م . الأدب	٤	١٩٥٦/٦/١	الزلة الأولى
حوار فى الطريق	الجيل	٢٣٢	١٩٥٦/٦/٤	
جسر الحياة (١)	ص . الشعب	٢	١٩٥٦/٦/٥	غرفة على السطح
جسر الحياة (٢)	ص . الشعب	٣	١٩٥٦/٦/٦	غرفة على السطح
درس	ص . الشعب	٢٦	١٩٥٦/٦/٢٩	مساء الخميس
المنقذ «الوسيط»	ص . الشعب	٤٤	١٩٥٦/٧/١٧	مساء الخميس
النحلة	ص . الشعب	٦٨	١٩٥٦/٨/١٢	
تحت الريح	م . الجيل	٢٤٢	١٩٥٦/٨/١٣	حارس البستان

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الرجل الأشول	ص . الشعب	٧٥	١٩٥٦/٨/١٩	الزلة الأولى
الرجال	ص . الشعب	٨٩	١٩٥٦/٩/٢	
عاصفة	ص . الشعب	٩٦	١٩٥٦/٩/٩	
الرمال	ص . الشعب	١٠٣	١٩٥٦/٩/١٦	حارس البستان
ليلة فى الطريق	ص . الشعب	١١١	١٩٥٦/٩/٢٤	ليلة فى الطريق
المصباح (١)	ص . الشعب	١١٧	١٩٥٦/٩/٣٠	غرفة على السطح
الغريب	ص . الشعب	١٣٦	١٩٥٦/١٠/٩	حارس البستان
الدراجة	م . الجيل	٢٥٢	١٩٥٦/١٠/٢٢	الذئاب الجائعة
اللهب	ص . الشعب	١٤٩	١٩٥٦/١١/١	حدث ذات ليلة
فى الجبهة	ص . الشعب	١٥٦	١٩٥٦/١١/٨	
تحت النيران	ص . الشعب	١٦٣	١٩٥٦/١١/١٥	
رصاصة	ص . الشعب	١٨٥	١٩٥٦/١٢/٧	الجمال الحزين
عند البحيرة	م . الجيل	٢٩٥	١٩٥٦/١٢/١٠	غرفة على السطح
النور	ص . الشعب	١٩١	١٩٥٦/١٢/١٣	
اللوحة	ص . الشعب	١٩٨	١٩٥٦/١٢/٢٠	حارس البستان
الجريح	ص . الشعب	٢٠٣	١٩٥٦/١٢/٢٥	صقر الليل
السكين	ص . الشعب	٢١٣	١٩٥٧/١/٤	زوجة الصياد
فراغ	ص . الشعب	٢٦٣	١٩٥٧/١/٧	الزلة الأولى
العملاق	ص . الشعب	٢١٩	١٩٥٧/١/١٠	

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الفنان	ص . الشعب	٢٢٦	١٩٥٧/١/١٧	حارس البستان
الفرقة الأجنبية	ص . الشعب	٢٤٠	١٩٥٧/٢/١	حارس البستان
فى المحطة	ص . الشعب	٢٤٧	١٩٥٧/٢/٧	الجمال الحزين
الطبيب	م . الجيل	٢٦٨	١٩٥٧/٢/١١	
قصة فتاة	ص . الشعب	٢٥٤	١٩٥٧/٢/١٤	ليلة فى الطريق
فى البحار	ص . الشعب	٢٦١	١٩٥٧/٢/٢١	
العاصفة	ص . الشعب	٢٦٨	١٩٥٧/٢/٢٨	الزلة الأولى
الباب الزجاجى	ص . الشعب	٢٧٥	١٩٥٧/٣/٧	الزلة الأولى
فى المنزل المقابل	م . الجيل	٢٨٢	١٩٥٧/٣/١٤	حارس البستان
ذكريات من الصبا	م . الجيل	٢٧٣	١٩٥٧/٣/١٨	
ألحان راقصة	ص . الشعب	٢٨٩	١٩٥٧/٣/٢٧	ليلة فى الطريق
الذئب	ص . الشعب	٣٠٨	١٩٥٧/٤/٩	الزلة الأولى
على النهر	ص . الشعب	٣٢٧	١٩٥٧/٤/٢٩	صقر الليل
الأمواج	ص . الشعب	٣٣٣	١٩٥٧/٥/٧	الزلة الأولى
الوحش	م . الجيل	٢٨١	١٩٥٧/٥/١٣	مساء الخميس
الورقة	ص . الشعب	٣٤٧	١٩٥٧/٥/١٩	الزلة الأولى
الزهور	ص . الشعب	٣٥٩	١٩٥٧/٦/٢	ليلة فى الطريق
الرفيق	ص . الشعب	٣٦٦	١٩٥٧/٦/٩	الزلة الأولى
سيدة وحيدة	ص . الشعب	٣٨٠	١٩٥٧/٦/٢٣	الأعرج فى الميناء

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الهارب	م . الجيل	٢٨٧	١٩٥٧/٦/٢٤	
الجواد	ص . الشعب	٤٠٧	١٩٥٧/٧/٢٢	
مجموعة الطوابع	ص . الشعب	٤١٤	١٩٥٧/٧/٢٩	الزلة الأولى
المفتاح	ص . الشعب	٤٣١	١٩٥٧/٨/١٥	
الليل والوحش	ص . الشعب	٤٤٥	١٩٥٧/٨/٢٩	الزلة الأولى
الشعلة	م . الرسالة الجديدة	٤٢	١٩٥٧/٩/١	الأعرج فى الميناء
فندق البحر	ص . الشعب	٤٥٢	١٩٥٧/٩/٥	الزلة الأولى
الحياة	م .الجيل	٢٩٨	١٩٥٧/٩/٩	
الغول	ص . الشعب	٤٦٦	١٩٥٧/٩/١٩	الزلة الأولى
الصورة الناقصة	ص . الشعب	٥٨٥	١٩٥٨/١/١٦	الأعرج فى الميناء
التنين	ص . الشعب	٦٤٨	١٩٥٨/٣/٢٠	الأعرج فى الميناء
الحقيبة	ص . الشعب	٦٨٤	١٩٥٨/٤/٢٨	الزلة الأولى
الحبل	ص . الشعب	٦٩٨	١٩٥٨/٥/١٢	حارس البستان
الجرس	ص . الشعب	٧١٢	١٩٥٨/٥/٢٦	حارس البستان
الاشارة	م . الرسالة الجديدة	٥٢	١٩٥٨/٧/١	الجمال الحزين
تحت الأمطار	ص . الشعب	٧٨٧	١٩٥٨/٨/٩	ليلة فى الطريق
القطار الحالم	م . الجيل	٣٤٧	١٩٥٨/٨/١٨	
اللؤلؤ	م . الجيل	٣٥٠	١٩٥٨/٩/٨	ليلة فى الطريق
الباب الزجاجى	م . الأحد	الثالث	١٩٥٨/١١/١٦	الزلة الأولى

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الأخرون (الآلة الأولى)	م . الجيل	٣٦٣	١٩٥٨/١٢/٨	الزلة الأولى
العذراء والوحش	م . الجبل	٣٦٧	٥ يناير ١٩٥٩	عذراء ووحش
حكاية من طوكيو	« «	٣٦٨	١٢ يناير ١٩٥٩	
جذوة فى الرماد	م . الجيل	٣٧٤	١٩٥٩/٢/٢٣	غرفة على السطح
الوشم	» »	٣٧٨	١٩٥٩/٣/٢٣	حارس البستان
امرأة فى الظل	» »	٣٨٠	١٩٥٩/٤/٦	ليلة فى الطريق
ليلة فى العربة	» »	٣٨٢	١٩٥٩/٤/٢٠	عذراء ووحش
قطار الساعة ٨	» »	٣٨٤	١٩٥٩/٥/٤	زوجة الصياد
الركشا	» »	٣٨٧	١٩٥٩/٥/٢٥	عذراء ووحش
الأفيال	الشعب	١٠٩٩	١٩٥٩/٦/٧	زوجة الصياد
غرفة على السطح	الجيل	٣٩١	١٩٥٩/٦/٢٢	غرفة على السطح
جريمة	الشعب	١١٠٧	١٩٥٩/٦/٢٥	زوجة الصياد
الأعزب	الجيل	٣٩٣	١٩٥٩/٧/٦	الجمال الحزين
المجداف	الشعب	١١٢١	١٩٥٩/٧/٩	عذراء ووحش
تذكار	الجيل	٣٤٩	١٩٥٩/٧/١٣	غرفة فوق السطح
التفاحة	الشعب	١١٣٦	١٩٥٩/٧/٢٤	غرفة فوق السطح
النافذة	الجيل	٣٩٧	١٩٥٩/٨/٣	غرفة فوق السطح
ليلة فى بانكوك	الجيل	٣٩٨	١٩٥٩/٨/١٠	
امرأة أخرى	ص . المساء	١٠٣٧	١٩٥٩/٨/٢١	

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
هزة فى القطار	م . الجيل	٤٠٣	١٩٥٩/٩/١٤	غرفة فوق السطح
الطلقة الأخيرة	ص . المساء	١٠٧٩	١٩٥٩/١٠/٢	ليلة فى الطريق
الغفران	م . الجيل	٤٠٨	١٩٥٩/١٠/١٩	
السراج	ص . المساء		١٩٥٩/١٠/٢٣	الذئاب الجائعة
الوجه الصامت	م . الجيل	٤١٢	١٩٥٩/١١/١٦	غرفة على السطح
البديل	م . الجيل	٤١٥	١٩٥٩/١٢/٧	حارس البستان
المحطة الجديدة	ص . المساء	١١٩١	١٩٦٠/١/٢٢	
العرجاء	الجيل	٤٢٢	١٩٦٠/١/٢٥	ليلة فى الطريق
(سيدة وفنان) دماء على الرمال	المساء	١٢٠٥	١٩٦٠/٢/٥	حارس البستان
الهلب	الجيل	٤٢٤	١٩٦٠/٢/٨	
الطوق	المساء	١٢٢٨	١٩٦٠/٣/٢٠	ليلة فى الطريق
قطار الأحلام	الجيل	٤٢٦	١٩٦٠/٦/٢٢	
الضبع	المساء	١٢٤٠	١٩٦٠/٣/١١	الجمال الحزين
هذه هى الحياة	المساء	١٢٥٤	١٩٦٠/٣/٢٥	حارس البستان
قصة فتاة	الجيل	٤٣٢	١٩٦٠/٤/٤	ليلة فى الطريق
اللؤلؤة	المساء	١٢٦٧	١٩٦٠/٤/٨	حارس البستان
امرأة فى الجانب الآخر	روز اليوسف	٧٤	مايو ١٩٦٠	غرفة على السطح

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
(رجل يعـيش)	المساء	١٣٣٤	١٩٦٠/٦/١٧	حارس البستان
هم حياته				
المنزل	المساء	١٣٤٨	١٩٦٠/٧/١	حارس البستان
السيجارة	الجيل	٤٤٥	١٩٦٠/٧/٤	عذراء ووحش
العودة	المساء	١٣٧٦	١٩٦٠/٧/٢٩	
الغريب	الهدف		أغسطس ١٩٦٠	
معشوق النساء	الجيل	٤٤٩	١٩٦٠/٨/١	الجمال الحزين
(السماء تطل علينا)	المساء	١٣٩٧	١٩٦٠/٨/١٩	حارس البستان
الأشياء المفقودة				
الدليل	م . الجيل	٤٥٣	١٩٦٠/٨/٢٩	عذراء ووحش
الكردان (فى البرية)	المساء	١٤٢٥	١٩٦٠/٩/١٦	ليلة فى الطريق
الزورق	«	١٤٤٦	١٩٦٠/١٠/٧	ليلة فى الطريق
حـــلم الـزفـــاف	«	١٤٨٨	١٩٦٠/١١/١٨	عذراء ووحش
(البخيل العروس)				
المسافر	«	١٥١٦	١٩٦٠/١٢/١٦	عذراء ووحش
رجل فى القطار	المساء	١٥٥١	١٩٦١/١/٢٠	عذراء ووحش
الرماد	المساء الأسبوعية	١٥٧٩	١٩٦١/١٢/١٧	ليلة فى الطريق
عين لاتنام	آخر ساعة	١٣٧٨	١٩٦١/٣/٢٢	حارس البستان
الأحدب	الجيل	٤٨٣	١٩٦١/٣/٢٧	زوجة البستان

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
النهب	أخبار اليوم	٨٥٧	١٩٦١/٤/٨	ليلة فى الطريق
وجه الشمس	« «	٨٦٠	١٩٦١/٤/٢٩	زوجة الصياد
فندق على الدرب	الجيل	٤٩٠	١٩٦١/٥/١٥	ليلة فى الطريق
الرجل الأعزب	أخبار اليوم	٨٦٤	١٩٦١/٥/٢٧	عذراء ووحش
فتاة من جنزا	آخر ساعة	١٣٩١	١٩٦١/٦/٢١	عذراء ووحش
النافذة الخلفية	الجيل	٤٩٧	١٩٦١/٧/٣	الجمال الحزين
زوجة الصياد	آخر ساعة	١٣٩٣	١٩٦١/٧/٥	زوجة الصياد
العين الخضراء	«	١٤٠٠	١٩٦١/٨/٢٣	الجمال الحزين
السلسلة	«	١٤٠٣	١٩٦١/٩/١٣	عذراء ووحش
القنطرة	أخبار اليوم	٨٨٠	١٩٦١/٩/١٦	زوجة الصياد
الجياد الشهباء	« «	١٤٠٨	١٩٦١/١٠/١٨	زوجة الصياد
حانة البحار السبعة	« «	٨٨٦	١٩٦١/١٠/٢٨	عذراء ووحش
الأرقام الناطقة	« «	٨٨٨	١٩٦١/١١/١١	زوجة الصياد
الجوهرة	الجيل	٥١٨	١٩٦١/١١/٢٧	عذراء ووحش
الحياة البهيجة	آخر ساعة	١٤١٩	٣ يناير ١٩٦٢	الجمال الحزين
ذات ليلة	آخر ساعة	١٤٢٠	١٠ يناير ١٩٦٢	الجمال الحزين
عابر سبيل	آخر ساعة	١٤٢٤	٧ فبراير ١٩٦٢	زوجة الصياد
فى القفص	م . آخر ساعة	١٤٣٤	١٩٦٢/٤/١٨	زوجة الصياد
الزورق	م . القوات المسلحة	٣٧٤	١ مايو ١٩٦٢	ليلة فى الطريق

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الليل والنهار	م . آخر ساعة	١٤٣٨		
الشيطان	الثقافة	٦٩	أكتوبر ١٩٦٢	
الأخرس	ص المساء الفنى	٢	١٢ ديسمبر ١٩٦٢	عذراء ووحش
ضبع الليل	المساء الفنى والأدبى	٨	٢٣ يناير ١٩٦٣	
فى المزاد	م . القوات المسلحة	٣٨٩	١٦ مايو ١٩٦٣	
الغضب	م . القصة		٧ يوليه ١٩٦٤	مساء الخميس
الجواد	م .القوات المسلحة	٤١٩	١٦ أغسطس ١٩٦٤	
صقر الصحراء	م . القصة	٩	سبتمبر ١٩٦٤	مساء الخميس
النار	م . القوات المسلحة	٤٢٣	١٦ أكتوبر ١٩٦٤	العذراء والليل
خيط من النور	م . القصة	١٣	يناير ١٩٦٥	مساء الخميس
رسالة من الميدان	م . القوات المسلحة	٤٣١	١٩٦٥/٢/١٦	العذراء والليل
المفتاح	المساء	٣٠٢٥	١٩٦٥/٢/١٨	عودة الابن الضال
الأب	المساء	٣٠٣٩	٤ مارس ١٩٦٥	السفينة الذهبية
الفخ (الثلاثة)	المساء	٣٠٩٢	١٩٦٥/٤/٢٩	السفينة الذهبية
الجوع	أخبار اليوم	١٠٧١	١٩٦٥/٥/١٥	مساء الخميس
الورقة	التعاون	١١٨	١٩٦٥/٥/٢٣	الزلة الأولى
النجوم	أخبار اليوم	١٠٧٣	١٩٦٥/٥/٢٩	مساء الخميس
الرجل الذى يعرف الحياة	التعاون	١٢٢	١٩٦٥/٦/٢٠	مساء الخميس

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الغريب	م . القوات المسلحة	٤٤٣	١٩٦٥/٨/١٦	حارس البستان
القفل	التعاون	١٣٠	١٩٦٥/٩/١٥	مساء الخميس
الياقوت	التعاون	١٣٥	١٩٦٥/٩/١٩	مساء الخميس
القائل	أخبار اليوم	١٠٩٤	١٩٦٥/١٠/٢٣	السفينة الذهبية
المظروف	التعاون	١٥٤	١٩٦٦/١/٣٠	السفينة الذهبية
الأشول (الرجل الأشول)	م . القوات المسلحة		١٩٦٦/٢/١٦	الزلة الأولى
وقفة فى جنزا	التعاون	١٦٥	١٩٦٦/٤/١٧	السفينة الذهبية
طارق الليل	التعاون	١٦٩	١٩٦٦/٥/١٥	
الياسمين	التعاون	١٧٤	١٩٦٦/٦/١٩	
المثالة	م . روز اليوسف		١٩٦٦/٧/٤	السفينة الذهبية
الخيط الذى فى السماء	م . روز اليوسف		١٩٦٦/٩/١٢	السفنية الذهبية
الظل	م . المجلة	١٢٦	يونيو ١٩٦٧	صقر الليل
ليلة العاصفة	الجمهورية	٥٠٥٨	١٩٦٧/١٠/٢٨	صقر الليل
الراقصة	الجمهورية	٥١٣٣	١١ يناير ١٩٦٨	السفينة الذهبية
الخفير	الجمهورية	٥٢٥٢	٩ مايو ١٩٦٨	صقر الليل
البرتو	م . نادى القصة	٣	يونيو ١٩٦٨	السفينة الذهبية
فى المتجر	م . المجلة	١٣٩	يوليو ٦٨	صقر الليل

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الدكان	م . الهلال	٨	أغسطس ١٩٦٩	السفينة الذهبية
فى الليل	م . الشبان المسلمين	١٥٣	١٩٦٩/١١/١	الجمال الحزين
اللهب	م . العالم العربى		٢ يناير ١٩٧٠	السفينة الذهبية
فى الليل وحدى	الجمهورية		١٩٧٠ /١١/٢٩	صقر الليل
الأصبع التى تشير	الجمهورية	٥٩٣٥	١٩٧٠/٣/٢٦	صقر الليل
بائع الصحف	الجمهورية	٥٩٦٣	١٩٧٠/٤/٢٣	
وقفة فى الضوء	الجمهورية	٥٩٨٤	١٩٧٠/٥/١٤	صقر الليل
صقر الليل	م . الهلال	٨	أغسطس ١٩٧٠	صقر الليل
الأحلام الذهبية	روز اليوسف	٢٢١٤	١٩٧٠/١١/١٦	صقر الليل
الأصلع	م . الهلال	١٠	أكتوبر ١٩٧٠	
السن الذهبية	م . الهلال	٢	فبراير ١٩٨١	
فى بحر الزمرد	م . الرسالة الجديدة	١	ربيع ١٩٧١	
الجواد والفارس	م . المجلة	١٧١	مارس ١٩٧١	صقر الليل
سونيا	م . الهلال	٥	مايو ١٩٧١	صقر الليل
سأصنع له تمثالا	م . روز اليوسف	٢٢٩٨	١٩٧٢/٦/٢٦	عودة الابن الضال
الغزال	المصور	٢٤٩١	١٩٧٢/٧/٧	عودة الابن الضال
صوت البحر	الجمهورية	٦٨٠٩	١٧ أغسطس ١٩٧٢	عودة الابن الضال
طلقة فى الظلام	م . الهلال	٩	سبتمبر ١٩٧٢	الظرف المغلق
القطار الأخير	الجمهورية	٨٠٨٩	١٩٧٣/٥/٢٤	

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الورقة البيضاء	م . الهلال	٦	يونيو ١٩٧٣	عودة الابن الضال
القطار الأزرق	م . الثقافة	١	١ أكتوبر ١٩٧٣	عودة الابن الضال
الكمنجة	الهلال	١٠	ا أكتوبر ١٩٧٣	عودة الابن الضال
الرسالة	م . الثقافة	٤	يناير ١٩٧٤	عودة الابن الضال
الحارس	م . الهلال	١	يناير ١٩٧٤	
عودة الابن الضال	روز اليوسف	٢٣٩٤	١٩٧٤/٤/٢٩	عودة الابن الضال
الجعران	الثقافة	٩	يونيه ١٩٧٤	عودة الابن الضال
القطار الانسيابى	الثقافة	١٤	نوفمبر ١٩٧٤	عودة الابن الضال
الجبار	الثقافة	١٩	أبريل ١٩٧٥	الباب الآخر
الهوان	الثقافة	٢٠	مايو ١٩٧٥	الباب الآخر
الشبابيك	الهلال	٥	مايو ١٩٧٥	الباب الآخر
الخطوط الثلاثة	م . الثقافة	٢١	يونيه ١٩٧٥	الباب الآخر
الصقر	الثقافة	٢٤	سبتمبر ١٩٧٥	الباب الآخر
الصمت	الثقافة	٢٥	أكتوبر ١٩٧٥	الباب الآخر
المسافر	م . الاذاعة والتلفزيون	٥١٢٥	٧٥١/٢/٦	الباب الآخر
انفجار	الثقافة	٢٨	يناير ١٩٧٦	الباب الآخر
حدث فى الظلام	م . الاذاعة والتليفزيون	٢١٣٠	١٠ يناير ١٩٧٦	الباب الآخر
لم يفعل شيئا	م . الإذاعة والتليفزيون	٢١٣٥	١٤ فبراير ١٩٧٦	الباب الآخر
النداء الصامت	الثقافة	٣٠	مارس ١٩٧٦	الباب الآخر

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الباب الآخر	م . الهلال	٤	أبريل ١٩٧٦	الباب الآخر
الرنين	المصور	٢١٤٢	١٩٧٦/٤/٣	
الجائزة	آخر ساعة	٢١٦٨	٧٦/٥/١٢	
(الرسام الجوال)	آخر ساعة	٢١٧٠	٧٦/٥/٢٦	
الرسام والموديل				
السباك	الثقافة	٣٥	أغسطس ١٩٧٦	
علاقة إنسانية	الثقافة	٣٧	أكتوبر ١٩٧٦	الباب الآخر
الزورق المقلوب	الثقافة	٣٩	ديسمبر ١٩٧٦	صورة فى الجدار
الغزال فى المصيدة	الثقافة	٤٦	يوليه ١٩٧٧	
الشجاع	الثقافة	٤٨	سبتمبر ١٩٧٧	الظرف المغلق
صورة فى الجدار	الثقافة	٥٠	نوفمبر ١٩٧٧	صورة فى الجدار
قصة فريدة	الثقافة	٥١	ديسمبر ١٩٧٧	
وردة الجميلة	م . الثقافة	٥٤	مارس ١٩٧٧	
الغريب	م .الرائد	العدد الأول	مارس ١٩٧٨	حارس البستان
وردة جميلة	الثقافة	٥٤	مارس ١٩٧٨	
بائع العطور	الثقافة	٥٨	يوليه ١٩٧٨	الظرف المغلق
الورقة	الجمهورية	٨٩٩١	١٠ أغسطس ١٩٧٨	
الأسرار	الثقافة	٦٤	يناير ٧٩	
الظرف المغلق	الثقافة	٦٥	فبراير ٧٩	

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الفجرى	الثقافة	٧٠	يونيه ٧٩	
الأعسر	الثقافة	٧١	١ أغسطس ٧٩	
المارد	الثقافة	٨٠	مايو ١٩٨٠	
الرفاق	القصة	٢٥	أغسطس ١٩٨٠	الزلة الأولى
التفاحة	القصة	٢٦	أكتوبر ١٩٨٠	غرفة على السطح
المجداف	القصة	٢٦	أكتوبر ١٩٨٠	عرفة على السطح
للرجال فقط (عضة الكلب)	مايو	٨	٢٠ أبريل ١٩٨١	السكاكين
السكاكين	مايو	١٣	٢٥ مايو ١٩٨١	السكاكين
الساعاتى	مايو	١٨	٢٩ يونيه ١٩٨١	السكاكين
المهاجر	مايو	٢١	٢٠ يوليه ١٩٨١	السكاكين
المأخوذ (١)	مايو	٤٢	١٦ نوفمبر ١٩٨١	
المأخوذ (٢)	مايو	٤٣	٢٣ نوفمبر ١٩٨١	
الفارس	مايو	٤٨	٢٨ ديسمبر ١٩٨١	
الإنسان	مايو	٥٩	٨٢/٣/١٥	
المشلولة	مايو	٢٤	٨٢/٤/١٩	
المسكين	مايو	٧٥	٨٢/٦/٢٨	
القهوة التركية فى فندق أوكرانيا	عالم القصة	٩	أغسطس ١٩٨٢	

اسم القصة	المصدر	الرقم	التاريخ	ملاحظات
الفقير (١)	مايو	١٠٩	٢٤ يناير ٨٣	
الفقير (٢)	مايو	١١٠	٣١ يناير ٨٣	
الطبيب	أخبار اليوم	٢٠٣٩	٢٦ نوفمبر ١٩٨٣	
ليلة فى طوكيو	أخبار اليوم	٢٠٧٠	١٩٨٤/٦/٣٠	
القاضى	أخبار اليوم	٢٠٧٨	٢٥ أغسطس ١٩٨٤	
القرية الآمنة	أخبار اليوم	٢٠٨٠	٨ سبتمبر ١٩٨٤	
السماء لا تغفل أبدا	مايو	٦٠٢	١٩٨٥/٣/٤	

أعمال الترجمة

الجورب الوردى – تشيكوف – الرسالة ٢٠ – ١٩٣٣/١٢/١

صه – تشيكوف – الرسالة ٢٣ – ١٩٣٣/١٢/١١

من غير عنوان – تشيكوف – الرسالة ٢٤ – ١٩٣٣/١٢/١٨

أعصاب – تشيكوف – الرسالة ١٦٢ – ١٩٣٦/٨/١٠

ذكرى – موبسان – الرسالة ١٦٣ – ١٩٣٦/٨/١٧

الكذب – نيكولايفش اندريف – الرسالة ١٧١ – ١٩٣٦/١٠/١٢

المقالة والدراسة

كتاب صدى أحلامى – الشاعرة جميلة العلايلى – الرسالة ١٧٣ – ١٩٣٦/١٠/٢٦

الشيخ عطا الله – الأستاذ محمود تيمور – الرسالة ١٧١ – ١٩٣٦/١٠/١٢

الإسلام فى بولندا – على فورونوفتش ومحمد سيد الحموى – الرسالة ١٧٤ – ١٩٣٦/١١/٢

وحيد – حسين عفيفي المحامى – الرسالة ١٧٤ – ١٩٣٦/١١/٢

مرافعات – حسن الجداوى – الرسالة ١٨٧ – ١٩٣٧/٢/١

أدبنا الحائر بين السينما والمسرح والإذاعة – محمود البدوى – م. الفن – ١٩٥٦/١/٢

مقال عن الأدب المصرى فى الصين - محمود البدوى - ص. الشعب ٥٤٩ - ١٩٥٧/١٢/١١

هونج كونج المدينة التى لا تنام - محمود البدوى - الجيل ٣١٦ - ١٩٥٨/١/١٣

تعال معى إلى هونج كونج - محمود البدوى - الجيل ٣١٨ - ١٩٥٨/١/٢٧

مدينة الأفيون أجمل مدن الصين - محمود البدوى - الجيل ٣٢١ - ١٩٥٨/٢/١٧

فى أحلى مدن الصين - محمود البدوى - الجيل ٣٢٤ - ١٩٥٨/٣/١٠

بكين مدينة القصور - محمود البدوى - الجيل ٣٢٨ - ١٩٥٨/٤/٧

طوكيو مدينة الأحلام - محمود البدوى - الجيل ٣٣٣ - ١٩٥٨/٥/١٢

صبر أيوب عند الزوجة اليابانية - محمود البدوى - الجيل ٣٤١ - ١٩٥٨/٧/٧

جنزاقلب طوكيو الذهبى - محمود البدوى - الجيل ٣٤٤ - ١٩٥٨/٧/٢٨

القطار الحالم فى ليل طوكيو - محمود البدوى - الجيل ٣٤٧ - ١٩٥٨/٨/١٨

هانشو مدينة البحيرات – محمود البدوى – الجبل ٣٥٢ – ١٩٥٨/٩/٢٢

نانكنج مدينة الأمطار – محمود البدوى – الجبل ٣٥٦ – ١٩٥٨/١٠/٢٠

حكاية من طوكيو – محمود البدوى – الجبل ٣٦٨ – ١٩٥٩/١/١٢

هنكاو مدينة الطرق المعلقة – محمود البدوى – الجبل ٣٧١ – ١٩٥٩/٢/٢

أمين يوسف غراب وأيامه الجميلة – محمود البدوى – آخر ساعة ١٨٩٢ – ١٩٧١/١/٢٧

فى بيت تشيكوف – محمود البدوى – الثقافة ٦ – مارس ١٩٧٤

فى منزل يوشكين – محمود البدوى – الثقافة ٧ – أبريل ١٩٧٤

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ١٨ – مارس ١٩٧٥

السادى والمرتشى والمختلس – محمود البدوى – الأخبار – ١٩٧٧/٦/١

تحركوا بالعمل لا بالكلام – محمود البدوى – الأخبار – ١٩٧٧/٧/١٩

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٤٩ – أكتوبر ١٩٧٧

يوسف السباعى الأديب الأنسان – محمود البدوى – الثقافة ٥٥ – أبريل ١٩٧٨

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٦٢ – نوفمبر ١٩٧٨

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٧٤ – نوفمبر ١٩٧٩

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٧٥ – ديسمبر ١٩٧٩

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٧٦ – يناير ١٩٨٠

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٧٨ – مارس ١٩٨٠

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٨٣ – أغسطس ١٩٨٠

ذكريات مطوية – محمود البدوى – الثقافة ٨٩ – فبراير ١٩٨١

ذكريات مطوية - محمود البدوى - الثقافة ٩٣ - يونية ١٩٨١

القلق النفسى والإبداع - محمود البدوى - الثقافة ٩٦ - سبتمبر ١٩٨١

كوبنهاجن مدينة السحر والجمال - محمود البدوى - الثقافة ١٠٢ - مارس ١٩٨٢

الكتب ودور النشر فى كوبنهاجن - محمود البدوى - الثقافة ١٠٣ - أبريل ١٩٨٢

الكمسارى فى قطار الضواحى بكوبنهاجن - محمود البدوى - الثقافة ١٠٥ - يونية ١٩٨٢

القهوة التركية فى فندق أوكرانيا - محمود البدوى - م. عالم القصة ٩ - أغسطس ١٩٨٢

السائق فى كوبنهاجن - محمود البدوى - الثقافة ١٠٨ - سبتمبر ١٩٨٢

البحث عن كاتب القصة الدانمركى - محمود البدوى - الثقافة ١١٠ - نوفمبر ١٩٨٢

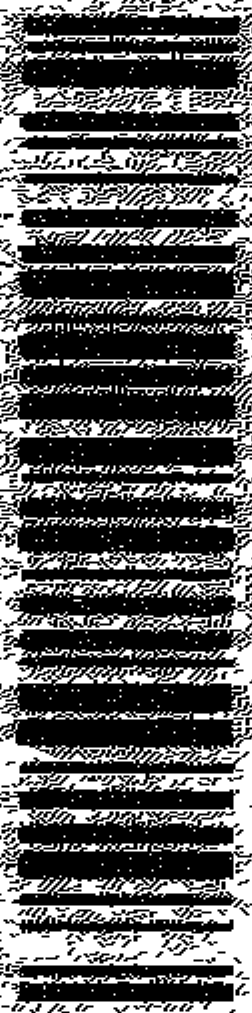
رحلة حول عالم الأدب - محمود البدوى - م. القصة ٣٩ - يناير ١٩٨٤

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠١٥٣ / ٢٠٠٠

ربما تخطئ بعض المحاولات النقدية تحديد موقع محمود البدوي على خريطة الحياة الأدبية في بلادنا ، ذلك لأننا نهمل مكانة المبدع في زمانه ، في الوقت الذي يدين له بالريادة . من الظلم أن أجاوز عشرات الأعوام لأحاسب مبدعًا في ضوء تيارات إبداعية ونقدية حديثة . تلك النظرة المتعسفة تكفل - في تقديري - ظلم الكثير من كبار المبدعين ، وربما التهوين من قيمة معطياتهم ، ولنا أن نستعيد - في زمانها - نظرات المنفلوطي وعبراته ، وزينب لهيكل ، وشجرة البؤس لطه حسين ، وعودة الروح للحكيم ، وأرخص ليالي ليوسف إدريس إلخ .

إن البدوي - في تقدير الكثيرين - هو رائد الواقعية في القصة المصرية القصيرة . وإذا كانت حملة «الأدب الجديد» التي حمل لواءها عبد الرحمن الخميسي ومحمود عبد المنعم مراد وعبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم وغيرهم في أوائل الخمسينيات ، قد استطاعت أن تشق للواقعية الاشتراكية طريقًا في مسار الحياة الأدبية المصرية ، فإن الواقعية - كتيار أدبي حي ، وخصب - أكدت وجودها في منتصف الثلاثينيات ، ومنذ أصدر البدوي مجموعته القصصية الأولى على وجه التحديد .



تصميم الغلاف / عبد العزيز السماحي

LE 19.00

